



یوری  
نجیبین

# الصدى

(وقصص أخرى)



دار «رادوفا»  
موسكو

ISBN 5-801100-20-2



## مقدمة المؤلف

ترجمة د. أبو بكر يوسف

Юрий Нагибин

РАССКАЗЫ

На арабском языке

Перевод сделан по изданию:

Юрий Нагибин. Собрание сочинений.  
В 4-х тт. М. «Художественная литература»,  
1980—1981, тт. 1—4

صغر كتابي الوحيد باللغة العربية - مجموعة قصص «الغليون» - منذ حوالي دهر تقريباً . . . قرب نهاية الخمسينات ، ورغم ان قصصى كانت تنشر مترجمة من حين لآخر فى المجالات والصحف الدورية فى مختلف البلدان العربية ، فسيكون من الاسراف فى الغرور الظن بان اسمى يعنى شيئاً ما لجمهورين القراء العرب العريضة . ولهذا اجد لزاماً عليّ قبل كل شيء ان اقدم نفسى .

ولدت عام ١٩٢٠ فى مدينة موسكو ، فى اسرة موظف ، وكنا نعيش فى الجزء القديم الاصيل من موسكو ، قرب بوليفار «تشيسستوبرودنى» (البرك الصافية) الذى كُتبت عنه كثيراً من القصص ، فى كنف الكتانسن والمباني القديمة والحدائق التى غرست اشجارها فى القرن السابع عشر ، وكان يتسامى فوق بيتنا «برج مينشيكوف» المذهب الشهير ، اعلى برج فى موسكو فى تلك الآونة . وقد تعرفت انا واثرايى على التاريخ الروسى لا عن طريق الكتب ، بل عبر المبانى والمعابد والحدائق والمتنزهات . . . ومن ذكريات تلك الايام البعيدة ظهر كتابى «صغر الطفولة» الذى ترجم الى العديد من اللغات الاجنبية . كذلك ظهر كتاب القصص والروايات التاريخية «صباح ضيعة تسارسكى سيل» من انهيارى فى طفولتى بتاريخ موسكو المنقوش على الاحجار .

① التأليف والمقدمة دار «رادوغا» ، ١٩٨٧

② الترجمة الى اللغة العربية - دار «رادوغا» ، ١٩٨٧  
طبع فى الاتحاد السوفييتى

H 4702010200-156 077-87  
031 (01)-87

ISBN 5-05-001198-1

وفي صباى لم تكن لدي مواهب بارزة محددة ، فلم أعرف خلافا لمعظم رفاقي وأنا أنهى المدرسة الثانوية ما الذى سوف أفعله بعد ذلك . وكانت أمى وزوج أمى ، الكاتب ريكاشوف ، يأملان بأن أصبح من رجال العصر : مهندسا او عالما فى ميدان العلوم الدقيقة ، ، فراحسا يحسوانى يكتب الكيمياء والفيزياء ، ويكتب السير المبسطة لعظماء العلماء . ومن أجل تهدئة خاطرهما اقتنيت اثنايحب اختبار ودوائر مواد كيمائية ، بيد أن نشاطى العلمى كله انصرف فى قيامى بين الحين والحين بتحضير طلاء أحذية من نوعية فظيعة . وفى نهاية الامر انفجر شئ ما لدي ، وكدت اضرم النار فى الشقة ، ففرض الحظر على تجاربي الجريئة .

بيد ان قننى بنفسى كانت تزداد اكثر فاكثر فى ملعب كرة القدم ، وثنيان الى المدرب بمستقبل زاهر . ووعدتى بأن يضمينى الى احتياطى اللاعبين الكبار عندما يبلغ الثامنة عشرة . لكن أمى لم تشأ ان تستسلم لفكرة انها عانت آلام المخاض من أجل ان تلد ظهير دفاع ايسر او جناحا ايمن . وزاح زوج أمى يلح عليّ ، بضغط منها فيها يبدو ، ان اكتب شيئا ما ، وهكذا ، وتحت ضغط خارجي ، بدأت حياتى الادبية . وكتبت قصة قصيرة عن نزعة بالزلاجات قمت بها مع تلاميذ الصف فى يوم احد . وقرأ زوج أمى القصة ، ولم يطلب منى بعد ذلك ان اكتب شيئا . بالطبع كانت قصة سيئة ، ومع ذلك فلدي من الاسس ما يجعلنى اعتقد ان ملاحم طريقي الادبى قد تحددت فى تلك المحاولة الاولى بالذات ، متشكلة فى عدم الاختلاق ، بل الانطلاق من الحياة مباشرة ، و«القصص» فى مادة الواقع ، بحثا فيها عن المزيد من العناقط .

ادركت جيدا سنيب صمت زوج أمى ، ولم أحاول مجادلته فى حكمه القاصم المخبفى وراء هذا الصمت . لكن الكتابة شددتنى اليها تماما . ولدهشتى البالغة اكتشفت كيف انه من مجرد الحاجة الى نقل الانطباعات بسيطة عن يوم نزهة الى الورق اخذت جميع المشاعر والانطباعات المرتبطة بهذه النزهة العادية تتعمق وتتسع بصورة غريبة . ووجدتنى أرى بمنظور

جديد زملاء الدراسة ونسيج علاقاتهم المتشابك الدقيق المعقد على غير توقع . وانضج لى ان الكتابة ليست مجرد تصوير للحياة بل ادراك لها . فاخذت اكتب ، ولكنى انغفى ذلك عن اقاربى .

وذات مرة اخذ زوج أمى من على مكتبى عملا ادبيا كنت قد نسيت بهك . وبعد ان قراه قال لى : «يبدو مع ذلك ان هذا هو عميلك الحقيقى . اكتب» . ورفع هذا التشجيع من معنوياتى فانكببت على الكتابة ، وعلى الفور هيبط مستوى فى ملعب الكرة . وسرعان ما طردنى المدرب من الفريق ، الامر الذى لم آسف عليه قط وقد استحوذت عليّ شهوة تسويد الصفحات .

وبدأت مرحلة جديدة من الدراسة الادبية . وكاد زوج أمى ، الذى اعتبره معلمى الاول والوحيد ، ان يوصلنى الى اليأس بشدة متطلباته . حتى بدأت احيانا أمقت الكلمات ، بيد انه أصبح من الصعب انتزاعى من الورق .

ومع ذلك فبدلا من الالتحاق بكلية الآداب ، وجدت نفسى بعد التخرج من المدرسة ، طالبا فى معهد الطب الاول ، فقد خافت أمى وزوج أمى من وعورة طريق الكتابة غير المضمون . وقاومت طويلا ، لكننى لم استطع الصمود أمام مثال تشيخوف وبولجاكوف . فانظرت اية موهبة كانا ، ومع ذلك أمنا انفسهما بهمة مضمونة مؤكدة .

ودرست باجتهاد رغم شعورى فى قرارة نفسى بأننى لن اصبح طبيبا جيدا . فالدراسة فى معهد الطب فى غاية الصعوبة ، وتتطلب ، عدا أشياء أخرى ، حفظا مستمرا للمصطلحات اللاتينية . ولم يعد ثمة مجال حتى للتفكير فى الكتابة . وصمدت حتى أول دورة امتحانات . . .

وفى ذلك الوقت بالذات فتح باب القبول فى كلية السيناريو بمعهد السينما . فهرعت الى هناك .

كانت الدراسة فى معهد السينما آنذاك ، قبل الحرب ،

• الاديبان الطون تشيخوف وميخائيل بولجاكوف درسا الطب ومارسا مهنة الطبيب بعض الوقت . المحرر •



سهلة ، تترك لك من الوقت قدر ما تشاء لكتابة القصص والمقالات الادبية والنقدية والتعليقات ا . وفي مارس ١٩٤٠ نشرت مجلة «اجونيوك» اول قصة لى بعنوان «الغلا المزدوج» ، وكانت تتناول مصير كاتب مبتدى . ورحبت اركض من كشك صنف الى آخر واسأل : هل لديكم آخر قصة لنجيبين ؟ ان اول عمل منشور يسلمع نوره فى الذاكرة اقوى من الحب الاول .

وعندما بدأت الحرب الوطنية العظمى طلعت للقتال . ومنحت رتبة ملازم . وحاربت فى جبهة فولخوف ولينينجراد وفورونيج . وفى عام ١٩٤٣ صدرت لى اول مجموعة قصص حربية عما رايت وعايشته ، وكان عنوانها : «رجل من الجبهة» . وقبل صدورها كنت قد أصبحت عضوا فى اتحاد الكتاب بناء على قصصى المنشورة فى المجلات .

وفى نهاية عام ١٩٤٢ أصبت بصدمة انفجار شديدة ، ومرضت طويلا ، وبعد شفائى عدت الى الجبهة مراسلا حربية لجريدة ثقافية سلمية جدا هى «ترود» (العمل) ، حيث عملت حتى نهاية الحرب . وقد اتيج لى ان اזור ستالينجراد فى اقصى ايام معركتها الضارية ، ولينينجراد المحاصرة ، ثم شهدت معارك تحرير مينسك وفيلنوس وكاوناس ، كما زرت قطاعات الجبهة الأخرى . كذلك زرت خطوط المؤخرة ، وشهدت بداية اعمال التعمير فى ستالينجراد حيث رايت انتاج اول جرار بعد تحرير المدينة ، وتجنيف مناجم الدونباس وشاهدت كيف كان يكسح حمالو الفولجا وعاملات السجىج فى ايفانوفو . . .

وبعد الحرب بدأت اعيش حياة الكاتب المخترف . وهكذا لم ارجع الى مقعد الدراسة بعد ان أصبحت رب أسرة . ان معرفة الحياة اهم بالنسبة للكاتب من المحاضرات ودورات البحث . وقد امدتني الحرب بخبرة حياتية كبيرة ، ولكنها احادية الجانب الى حد ما ، ومن ثم كان عليّ ان ارى كيف يعيش الشعب الذى نزع عنه معظم الجندي وراح يداوى جراحه البالغة . فاصبحت ، وللسنوات طويلة ، صحفيا جوالا ، او كما يقال بلغة الصحف ، مراسلا متقلبا .

واقرتبط نقطة التحول فى حياتى ككاتب بقصة «الغليون» ، التى كادت تصبح مع قصة «البلوطة الشتوية» اشهر ما كتبت . كان استقبال القراء لهما حارا ومجمعا بصورة نادرة . وفى الواقع لم اخبر ذلك الاحساس الغريب ، المثير بلا حدود ، بان لك قراء ، الا بصدر «الغليون» . ولنسب ما أصبحت حكاية تشبه ذلك العجى الصغير والبصائب التى واجهها فى السنوات الاولى بعد الثورة شقية على حد سواء لمواطنى بلدى وللأفارقة (صدرت القصة بلغتي الهوسية والسواحلى) وللمتحدثين بالأوردو والهندي والتاميل والسنگالى ، وللعرب والصينيين ، ولجميع الأوربيين بلا استثناء . وبفس الصورة ذاعت قصة «البلوطة الشتوية» ، اللهم الا فى افريقيا الاستوائية التى لم تصدر هذه القصة فيها ، ربما لانهم لم يروا الثلوج هناك أبدا .

ومنذ ذلك الحين بدأت اعيش حياة أكثر استقرارا ، تلك الحياة الضرورية لكاتب محترف . وظلت القصة القصيرة هى لوني الأدبى «الرئيسى» . وبماكانى حتى ان اقول اننى لست انسا الذى اخترت القصة القصيرة ، بل هى التى اخترتنى . فانا بطبيعتى لا استطيع ان اكتب اشياء «سنيكية» . ان تقسى قصير . وعندما كنت لعب الكرة كانت قواى تكفى لشوط واحد . كنت ابدل قواى عن آخرها . ويبدو ان هيكل المؤلفات «الصغيرة الشكل» (القصة القصيرة ، النوفيل ، الرواية القصيرة ، السيناريو) تنفق رايقاعى الداخلى . وعلاوة على ذلك فانا مقتنع بان اى موضوع يمكن معالجته فى حدود مائتى صفحة . وفى عصرنا المتشبع اللاهث فى سرعته ، تفرض اصول احترام القارى على الكاتب ان يكون موجزا ومختصرا . ان العصر المتسارع الايقاع وحياة المدينة يتطلبان الایجاز .

ولكن كلفانا حديثا عن مطبخ القصة . ففي اواسط الخمسينيات ، ودون ان اقطع صلتى بموسكو ، اخترت لنفسى مكانا للاقامة الدائمة على شاطئ نهر «ديستنا» ، وهو نهر يمر بضواحي موسكو ، على مسافة اربعين كيلومترا من

العاصمة ، حيث شيدت منزلاً صغيراً دائماً وسط اشجار الصنوبر والشوح والبتولا . وفي هدوء الغابات والحقول ارتفع معدل انتاجي الادبي بصورة ملحوظة ، فتوالى صدور مجموعاتي القصصية : «البلوطة الشتوية» ، «الجنادل الصخرية» ، «الانسان والطريق» ، «البرك الصافية» ، «قبيل العيد» ، «البعيد والقریب» ، «في البحيرات» ، «قلب آخر» ، «حارات طفولتي» .

وتحولت مجموعة «حارات طفولتي» الى كتاب كبير بعنوان «سفر الطفولة» عن القصص عن الطفولة في موسكو في العشرينات تحمل بصمات السيرة الذاتية ، مثلها مثل قصصى عن الصبا والشباب . ويحمل معظم ابطالها اسماءهم الحقيقية . اننى عاشق طفولتي ، وذلك الفناء الواسع المصاحب ، حيث كنا نلعب كرة القدم والهوكسى ، ونطير الحمام ، ونتعارك ، ونغرم ، ونتشاجر ، وننصالح ، وتتعلم ، كما يقال في لغة الملاككة كيف «تتحمل الضربة» . وليس بأقل من ذلك حبى لمدرستى في ذلك الزقاق الهادئ قرب «البرك الصافية» . ولم تنقطع اواصر الصداقة بين خريجي دفعة عام ١٩٣٨ ، وما زلنا نلتقى كل عام في عيد النصر ، عند البرك الصافية ، امام تمثال الشاعر الروسى الكسندر جربوبيدوف . وتذكر الاصدقاء الذين رحلوا عنا ، من لم يعد من جبهات الحرب ، ومن مات بفصل الجراح القديمة او الامراض ، وتذكر مدرسينا ، ونغنى الاغانى القديمة ، ونفرح بحياتنا التى لم تزول بعد ممتدة . وهذه الصداقة هى اضمن ثروة لدى .

اننى لا اسعى بحثا عن مادة لقصصى ، فالحياة نفسها هى التى تهينى المواضيع . وبعد ان كتبت قصصا عن الحرب الماضية وعن الريف ، وعن الطفولة ، جاء دور قصص الصيادين . فذات مرة اخذنى واحد من اقرب اصدقائى الى رحلة لصيد البط . ومن يومها دخلت «ميشورا» حياتى بصورة راسخة ، هى وموضوعها ، ومواطنها الصياد اناثولى ايفانوفتش ، أحد معوقى الحرب ، وقد كتبت عنه مجموعة قصص وسيناريو الفيلم الروائى «المطاردة» ، ولكنى بخلاف

ذلك كله . أحب اصدق الحب هذا الرجل المتفرد والابى واعتز بصداقته . أما «ميشورا» فهى منطقة رائنة ، تقع على بعد مائتى كيلومتر من موسكو ، بها غابات عذراء ، وبحيرات عميقة ، وانهار صافية . وعلى ارضها رأى النور الشاعر الروسى العظيم سرجى يسينين .

ان من قرأ قصصى يعرف اننى أحب الحيوانات جدا . وقد يبدو غريبا كيف يتفق الصيد مع حبى «لاخوتنا الاصغر» (حبيب تعبیر يسينين) . بيد اننا اذا استثنينا اولئك الصيادين ذوى الكروش السجينة ، الذين يدفع لهم القناصون الخدومون بالطيور نحو بنادقهم تماما ، فان جميع الصيادين يحبون الحيوانات . ان اطلاق النار على بطة مندفعة كالسهم ، او على دجاجة برية منطلقة بعنف من وراء خيملة ، وعلى اى طائر او وحش تخفيه سرعته وخفة حركته ومهارته . . ان ذلك ليس قسوة . . .

منذ وقت ليس بالبعيد كان هذا الراى يتفق وموقفى فيما يخص صيد الطيور وصيد الاسماك (فقد كنت ايضا مغرماً بصيد الاسماك) . كنت مؤمناً بعقيدة هيمينجواى البسيطة ، وهى انه طالما توجد طيور فلا بد ان يكون هناك صياد . المهم فقط ان تحاول التسديد بدقة ، حتى لا تترك طيوراً جريحة ، ولا تسبب آلاماً لا داعى لها لمخلوق حي ، وفيما عدا ذلك لا تشغل بالك . بيد ان الضمور القاسى الراحن الذى اصاب الطبيعة ، والعطف على تلك المخلوقات الحية التى ما زالت تسكن الغابات والمياه ، قد قلبا رأسا على عقب بعض مبادئى ، فقد تحولت من الفلسفة التى تغفو مقدما عن الشخص الحامل للبنديقة الى معتقدات مضادة تماما ، وهى ان صيد الطيور والاسماك فى ملكة الطبيعة التى اصابتها الفقر حاليا هو عمل لااخلاقى . فليتم بذلك اشخاص معينون ، هم الصيادون المحترفون ، وعلى اساس القوانين الموضوعية . اما ما هو جدير بالانسان كإنسان فهو ان يبذل كل ما فى وسعه ليحصى من الدمار ذلك العالم الاخضر الضعيف الذى اسلم لنا مصيره ،



وأن يكبح فى نفسه الشهوة القديمة فى السيطرة من خلال التدمير .

بين هاتين النقطتين المتطرفتين لموقفى من الصيد امتد طريق طويل نحو ادراك مكانة الانسان فى الطبيعة . فى البداية لم اكن اهتم عموما بمسلك الانسان فى العالم الذى وُضع سنيداً له ، اى بين الحيوانات والنباتات . ولكنى كلما ازداد احساسى والى بضعف هذا العالم ، وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه امام هذا السيد ذى الساقين ، اصبحت نظرتى الى العلاقات القائمة هنا اشد تعقيداً وقسوة . وللأسف ، فكثير من الناس لا يصمدون امام اختبار السنولية والتسامح . تستطيع فى الطبيعة ان تفعل اى شئ ، وليس هناك اختبار للانسان اشد قسوة من ان يكون بمنأى عن العقاب . وبالتدرج توصلت الى قناعة بان المسلك السميّ فى الغابة ، او على النهر ، او على البحيرة او فى الجبال لابد وان يلازمه مسلك سميّ فى الأسرة وبين الأهل والاقارب ، وفى العمل ، وفى المجتمع البشرى بوجه عام . فهنا ثمة علاقة متبادلة مباشرة لا تنضم . وليس هناك معيار للحكم على الشخصية الانسانية اكثر دقة وقسوة من مسلكه ازاء الطبيعة . هكذا تحول عندى موضوع الصيد القديم .

وقد يتبادر الى الذهن الظن بان حياتى قائمة على سلسلة من الامتناعات : ففى البدايات تخلّيت عن الفضاء الرحب باستقراى فى كوخ فى غابة ، وبعد ذلك تخلّيت عن صيد الاسماك والطيور (ويمكن اضافة الرياضة الى ذلك ، فقد اعطتنى الكثير من الموضوعات ، ولكن الازمة القلبية المبكرة طردتها من حياتى) . ولكن المسألة ، فى الواقع ، غير ذلك تماماً . فكل عام اقوم بجولة صغيرة بالسيارة فى المدن الروسية القديمة الرائعة ، ومعروف ما مدى المسافات لدينا فى روسيا . . ففى جولة «صغيرة» كهذه تقطع بالسيارة حوالى الالفين وخمسمائة كيلومتر . وكل عام اسافر الى الخارج ، ومن هذه الرحلات ظهرت كتبى : «افريقيانى» و«اصدقائى البشر» و«لا تدعه يموت» وغيرها . ويكاد يكون موضوع

الخارج ، موضوع وحدة البشر ، ركاب السفينة الحزينة الوحيدة - فليس هناك غيرهما ولن يكون - هو الموضوع الدائم فى اعمالى الادبية ، بل والسينمائية ايضا . لقد شاركت فى افلام مشتركة كثيرة ، مع الايطاليين والامريكيين واليابانيين والنرويجيين والبولنديين والمجريين ، وكانت افلامنا تخدم اهداف الفهم المتبادل والسلام .

ولدى اصدقاء كثيرين جدا ، ولقائى بهم ، الصاخبة ، المليئة بالجدل العنيف الطيب ، تهينى الكثير من الفرح . وحتى الصيد لم يخرج من حياتى تماماً ، وان كنت الآن امارس «الصيد الثالث» البرى ، اى جمع الفطر كما يسمونه عندنا ، وانا اسكن فى منطقة من اغنى مناطق الفطر فى ضواحي موسكو . وبقيت لدى الرياضة ايضا . . لعب البلياردو وكرة الطاولة ، والالعاب التى تمارسها وانت جالس ، مثل مشاهدة كرة القدم فى التليفزيون . . .

ولم اذكر شيئاً عن قصصى حول الموضوعات الأدبية : الحياة والموت ، الحب والكراهية ، البحث عن الحقيقة وطريق الصواب فى الحياة . ولا اظن انه يمكن فصلها ووضعها فى مجموعة على حدة . فهذه الموضوعات ، كالهواء الذى نتنفسه ، موجودة فى اى قصة من القصص .

وفى السنوات الخمس عشرة الاخيرة اقبلت اكثر فاكثر على الكتابة عن الماضى ، دون ان اعبى العارض . وفى هذه السلسلة الكبيرة من القصص القصيرة والروايات القصيرة كتبت عن تشايكوفسكى وباخ ورحمانينوف وبوشكين وفوته ومينجواى وغيرهم من الفنانين الأقل شهرة وان لم يقلوا جدارة . وقد بدأ ذلك بكتابة سيناريو لفيلم عن الموسيقار الروسى العظيم تشايكوفسكى . وجذبنى الموضوع اليه فكنت عملاً كبيراً ، واضطر المخرج الى اختصاره . ونتيجة لذلك سقطت من العمل اجزاء كبيرة كانت تتناول صديقة تشايكوفسكى ، تلك المرأة الروسية الرائعة ناديجدا فون ميك ، محبة الموسيقى وزاوية الفن ، التى خلّصت الموسيقار القليل التذوّب والمعوذ دائماً من عناء التفكير فى لقمة

«ميكانكا» مولد القصيدة او الصورة الموسيقية ، وتلفس اسرار ولادة الجمال .

ان قصصى عن المبدعين الراحلين لا يمكن اعتبارها من الاعمال الادبية التاريخية الا تجاوزا . اذ لم يكن ما يهتمى هو احداث الايام الغائرة ، بل الشخصيات المبدعة ، حتى اننى كنت احيانا ، وعن وعي ، اخالف الواقعة التاريخية رغبة متى فى التاكيد على ان التاريخ بالنسبة لى ما هو الا وسيلة وليس غاية على الاطلاق . ولكنى فى نهاية الامر اخذت اهتم بالتاريخ فى حد ذاته ، فانكبت على المؤلفات التاريخية ، والذكريات ، وشتى المجلات القديمة ، وفى العام الماضى كتبت روايتين تاريخيتين .

لقد وهبت الكثير من قواى للعمل السينمائى . وقد بدأت من تحويل قصصى الى افلام سينمائية ، مثلا «ضيف ليل» و«ابن طمار» و«الفتاة والصدى» (الذى فاز بالجائزة الكبرى فى مهرجان كان الدولى) ، ثم بدأت اضمع سيناريوهات مستقلة ، انتجت على اسمها افلام : «تشييكوفسكى» و«الخيمة الحمراء» و«ملكة النساء» و«المدير» و«ياروسلاف دومبروفسكى» واكثر افلامى ذيوغا : «الرئيس» ، وهو عن واحد من اولئك الذين اعادوا تعمير القرى التى دمرها العدو ، وذلك فى سنوات ما بعد الحرب القاسية . واذكر ان النقاد ابدوا دهشتهم الشديدة من ان سايكنا موسكوفيا قد مثل نجيبين الذى نشأ وترعرع فى المدينة ، يعرف شئون الريف على هذا النحو . بيد ان الريف دخل حياتى فى وقت مبكر . فقد كانت لى من بيعة عجوز تدعى فيرا ايفانوفنا - فيرونيسا - من قرية فنكوفو الثانية فى محافظة ريزان . وكنت اسافر كل صيف اليها هى واقاربها الكثيرين . وهكذا نشأ حبى للريف ، لعالم الريف بهيمومه وباعماله الشاقة التى لا تنتهى . ولهذا السبب فقد اخترت عالم القرية ، لا عالم المدينة ، عندما عملت صحفيا بعد انتهاء الحرب . ووضعت فى سيناريو «الرئيس» خبرتى كمراسل ريفى ، وخبرة سنوات الحرب ، اذ كنا نعسكر

الخيز ، بل ووفرت له حياة عريضة ، حرة ، مستقلة . غير ان ناديجدا فون ميك كانت الى جانب سناخا فى رعاية الفن تميز بسجية اخرى نادرة ، اذ كانت لديها بصيرة فنية نافذة . ففى اول من اكتشف عمقيرة الفنان فى ذلك المؤلف الموسيقى المتواضع فى الكونسرفتوار . وكان ذلك بالنسبة لتشييكوفسكى ، الذى لم يفهمه النقاد القصيرو النظر وظلموه ، اثنى من كل نعم الدنيا .

وقررت ان اجعل من هذه المادة عملا ادبيا حيا . وهكذا ولدت رواية «كيف تم شراء الغابة» المترجمة حاليا الى لغات اجنبية عديدة . وشجعنى نجاح الرواية فكبت رواية اخرى عن تشييكوفسكى بعنوان «عندما انطلقت الالعاب النارية» التى وضعت الخاتمة لـ «قصة غرام الاشباح» . . وهو التعبير الذى اطلق منذ زمن بعيد على العلاقة الغريبة عن بعد بين تشييكوفسكى وفون ميك . فالغريب ان هذين الشخصين اللذين احبا بعضهما البعض ، لم يلتقيا ابدا ، ولم ير احدهما الآخر الا صدفة . مرة اثناء نزهة ، ومرة اخرى فى المسرح .

بهاتين الروائيتين القصيرتين بدأت مرحلة جديدة فى حياتى الادبية . واتسع اهتمامى بالموضوع تدريجيا . لم تعد سيكولوجيا الابداع هى وحدها التى تهمنى ، بل وعلاقة المبدع بالمجتمع . فمن المتعارف عليه ، وهذا صائب تماما ، اعتبار ان الفنان مدين للمجتمع ، بيد ان هناك علاقة عكسية ايضا ، فالمجتمع بدوره مدين للفنان . فكم من آلام جلبها على المبدعين العظام - من ليوناردو حتى رحمانينوف مثلا - عدم فهم معاصريهم لهم . وفى قصصى يتردد بكل وضوح : ايها الناس ، كونوا اكثر اهتماما وحرصا وطيبة وصراحة مع اولئك الذين يعترضون من اجلكم كل دماء قلوبهم . انسى اريد ، ولو متاخرا ، ولو بعد العمامات ، ان ارد الاعتبار لاولئك المبدعين غير المعترف بهم وغير المعروفين وشبهه المعروفين . اما هدى الآخر من كتاباتى تلك فكان ادراك



لفترة طويلة في قرى تركها العدو شبه أطلال ، ثم بالطبع  
خبرة طفولتي .

بيد ان فيلم «الرئيس» ليس مشهورا في الخارج شهرة  
فيلم «درسو أوزالا» الذي أخرجه المخرج اليا باني الشهير  
أكيرا كوروساوا حسب السيناريو الذي وضعته أنا وانتجه  
ستوديو «موسيلم» بوسكو . لقد فاز هذا الفيلم بأعظم  
جائزة سينمائية في العالم وهي «الأوسكار» .

وفي الختام بودي ان اذكر بضعة كلمات عن هذه  
الطبعة . ففي وقت مضى ، واذ عشقت العالم العربي  
المزخرف ، المتعدد الأبعاد ، وحضارته العريقة ، وفنونه  
المذهلة ، كنت كل عام أزور بلداً عربياً . وهكذا مرّ عير  
حياتي المغرب من الرباط الى أغادير ، ومن الدار البيضاء  
الى فاس ، وتونس ، ومصر بأقصاها وأسوانها ، والسودان  
طولا وعرضا ، وسوريا من دمشق الى حلب ، ولبنان ، ثم  
مصر من جديد . وكتبت عن رحلاتي قصصا ومقالات أدبية  
صدرت في كتابين . كتبت عن المدن والقرى ، عن الصحاري  
والجبال ، عن نمط الحياة ، وعن الحرف والفنون ، وعن  
كفاح الشعوب العربية وأهدافها ، وعن الناس الرائعين  
الشديدي التفاوت . وكان من بين أبطال المطربة اللبنانية  
الموهوبة والممثلة السينمائية فيروز ، و«تشيخوف مصر»  
التقصاص يوسف إدريس ، الذي قلب رأسا على عقب أسلوب  
الكتابة الثورية العربية التقليدية ، والبائع التونسي الصغير  
سهيل الطيب القلب ، والأديب السوداني محمد المجدوب ،  
والصحفية الحسنة خديجة ، ونساء قريية «الطيبة» اللائي  
رقصن «رقصة الجمل» التي تصور عمل الفلاح ، والطبيب  
حسين من مركز البشيري ، الذي يعالج سبعة عشر ألف  
شخص ، وراعي البعير السوري الذي يرعى قطيعه في نفس  
المكان الذي كان يرعى فيه النبي إبراهيم ، والحرفيون  
المهرة من مكناس وفاس : النخارون ، والنحاسون  
والنقاشون والمبطلون ، وغيرهم وغيرهم .

وأصبح لي بين العرب اصدقاء كبار وأوفياء ، منهم

سفير مصر الأسبق في الاتحاد السوفيتي ورجل الأعمال حاليا  
الدكتور مراد غالب ، وقرينته الرائعة مدام شوشو ،  
والشاعر الفلسطيني الموهوب وال شخصية الاجتماعية معين  
بسيسو الذي اختطفه الموت ميكر ، والأديبان الآنفا الذكر  
يوسف إدريس ومحمد المجدوب . واذكر من بينهم بكل  
سرور مترجم هذه المجموعة الدكتور أبو بكر يوسف . وقد  
سعدت باستقبال هؤلاء الأصدقاء في بيتي . واني لوافق من  
ان هذه الصداقة ستبقى الى الأبد مهما كانت تصاريف  
القدر . ولا شك انني سعيد بصدور مجموعة قصصى هذه  
باللغة العربية . انها تضم قصصا كتبت في سنوات مختلفة ،  
وفي موضوعات مختلفة ، كما انها مختلفة من حيث المادة  
والحياتية والزاج . وهذا أفضل ، اذ سمّاح للقراء العرب ان  
يكرّوا فكرة أشمل عن عمل كقصاص . لقد تقدم بى  
العرب ، وأصبحت ملازما لبيتى ، نادرا ما اتجاسر على القيام  
برحلات بعيدة ، واذن فليذهب ولو كتابى الى تلك الاماكن ،  
التي انخرت صورتها العريضة في قلبي الى الأبد .

يودى نجيبين





وكان عمرى سبعة أعوام لما سكنت الأشجار والمنازل  
والحقول والغمائل جميعا الى راحة راسخة . فقد أصيبت امي  
بمرض خطير اوجب علينا أن نغير حياة الخيام ونستوطن في  
قرية بوغدانوفو ، في مقاطعة خورونيج السابقة ، عند  
ميخايلو الاصعب ، احد اقاربنا البعداء ..

كان ميخايلو حدادا يعيش مهنته . وهو من العجسر  
القلائل الذين قاءوا الى حياة مستقرة ، وقرب دكانه المنخفضة  
المسودة من الدخان والتي يدور بابها حول مفصلة هي كل ما  
يشبهه . وتعلو سقفها المنخور مدخنة سماور مقطوعة ما تقفأ  
تقذف السماء بخمات من الشرابات ، قرب هذه الدكان يقوم  
كوخ صغير لا يقل عن الدكان رانة وتهالكا . لقد زعزعت  
ضربات مطرقة ميخايلو الجبارة هذا الكوخ المتهالك أصلا  
واذا كل شيء فيه يصر : الابواب والنوافذ والجدران  
والارض . وكل خطوة تخطي يصاحبها رنين الاواني ، اما  
حينما يعتاز ميخايلو ، الضخم الثقيل ، عتبة البيت تتواثب  
المناضد والمقاعد كلها . وتلا البيت موسيقى يتردد صداها  
طويلا .

في هذا البيت الصغير المغنى ، المبلط بالسبخام يعيش  
الناس في غير شعة ولكن في مرح . ولم تلبث امي ان ابنت  
من مرضها ، وانصرفت في شغف الى امور البيت ، وهو عمل  
جديد عليها . وكان ميخايلو يشتغل في حدادته ، وزوج امي  
يببض الحلل ، وهما يدندان اغنيات قبيلتنا الطلقة  
والحرينة .

وعشنا على هذا النوع حتى صيف عام ١٩١٩ ، حينما  
احرقت إحدى فصائل الجنرال الابيض ماووتوف. قريتنا .  
والحقيقة اننى لم اعلم حينذاك من اضرم النار ولماذا . كانت  
القزيرة تقع تحتنا ، في غور ، وذات صباح رأيت ، بدلا من  
سطوح النش والالواح ، عوارض مسودة ، مفعجة ، تنبعث  
منها خطوط حلزونية رفيقة من الدخان .

في ذلك الحين تردد في بيتنا فعل «خطأ» الذي كتب  
نسيته وهو يعنى عند العجس هذا الحنين الخفى الذى يكونه

للسرعة . اصبح «الخط» وزما للحركة عند العجس الذين  
ادهمتهم سرعة المواصلات على خطوط السكة الحديدية  
فجعلوا يلفظونها ولعلهم كانوا يقرأون متى عرباتهم الوئيد  
بظيران القطار المسحى .

اما علم ميخايلو ان فى بيتنا «الخط» حمل على إحدى  
كتفيه مظرفته التي ترز يودين ؟ وكبره على الاخرى وذعيب  
يفتش عن عمل حدادة في الاماكن المجاورة .

ولما نحن فلم نترج مزيجا . كنا ننتظر ، كما علمت  
فيما بعد ، مخيم أميلكا ، الذى سيمر بهذه النواحي على ما  
يقولون . وكانت جدتي تنتقل مع هذا المخيم .

وذاذ ليلة ايقظوني من نومي ، وبعد ان البستنى امي  
حدثني ، اخبرتنى الى فناء الدار . لم اكن قد استيقظت تماما  
فلم استطع ان افهم شيئا . كان الفضاء حول الدكان غاصا  
كله بالعربات . المغطاة بالتماشى السميك ، التي بدت لي  
نعم الليل ضخمة . وكان رجال يعملون حزما مشتبعة من  
القب يروحون ويحيثون بين العربات ، في هذا النور المجمع  
(المعرق) ، كانت تظهر وجوه مسرعية : انوف غفاء ، جلد  
اسمر قاتم حتى الزرقعة ، لحي شعيباء ، سوداء  
كالفطران . . . لقد نسيتم خلال العام الذى قضيناه عند  
ميخايلو ، حياة ابناء عشيرتى الرجل ، نسيتم اصواتهم  
الخالقة المتحسرة . حركات رجالهم المستطيلة وايادات  
نضائهم المتقطعة المضطربة . كسان العجس يقيمون بالأعمال  
الغاية التي يقومون بها حينما يخيمون في مكان ما : يكون  
الخيل ويعلمونها ويخضون العجلات ويلبسونها . ويصلحون  
سرج الخيل المقطعة ! ومع ذلك فليس بدت لي حركاتهم  
البسيطة غامضة ومرعبة . وفوق ذلك فقد اضعفت في هذا  
الهرج والمرج احدى .

كانت الدموع تغل في خنجرتي ، وفجئت فمى لارسل  
الصيحة الوحيدة القادرة على ان تعيد لي امي ، ولو كانت في

\* البود مقياس وزن روسى يعادل ١٦ كيلوغراما تقريبا . المغرب .

آخر الدنيا ، واذا شيء طري دافئ يحترق ويغطي مثل  
لحاف الريش وضوء لا مثل لحافه يهتف :  
- يا حفيدى ، يا حبيبى !

احسنت بالاطمئنان والثقة بتفغلان فى اعماق ووحى ،  
فالتصقت بجسد جدتى الكبير الدافئ .

ولكننى لم البث ان رايتنى من جديد يملؤنى الضجينة  
والصرير والعشقة الغفيلة التى توافق الحركة : لقد  
استأنفت القيلة السير . ومنذ ذلك الحين لم تعد السنة  
التي قضيتها على الارض الراسخة تسبى الى الاحلام قصيرة  
خادعا .

فى الصباح تفحصت جدتى . كان وجهها اسمر املى .  
كما لو انه طلى بطيخة من الميتة ، وعيناها تشبهان الكرز ،  
وشعرها الابيض تتخلله خصلية سوداء مثل الفحم . ولكن  
هذا الشعر الابيض لم يكن يضفى عليها الكبر . . . شعمتا  
الاذنين وحدهما اللتان كانتا قنينا عن ان جدتى سلبحت  
سنوات طويلة وزادها . كانتا ذابلتين متدلتين . وتقبا  
انقرطين يشبهان شقين صنعنا بالسكين .

وكان فى العربة ، ما خلا اسرختا وجدتى ، سلفة امسى  
ورضيع لها غيره سنة . وزوجها الذى يقود العجل : طوال  
الرحلة لم اكن ارى الا بروجين حادين لمظضى ظهري من  
تحت قميص قطنى وردى - وبنيها اخوامسى الاصغر . كان  
هذا مزاحا فى حوالى الخامسة عشرة ، فسى جسم راشد ذى  
يدين وقدمين كبيرتين ووجه مشع بالطيبة وانف اقوى .  
لما اكتشف وجودى فى العربة زحف نحوى وسألنى هل  
احسن التدخين ، فاجبت :

- لا .

- عندك ساعة ؟

فاجبت بالنفى من جديد .

فقال : بيثيا ضاحكا فى احتقار :

- ويزعم هذا انه عجوز !

وسألته بدورى :

- وانت ، هل عندك ساعة ؟

- بسلسلة ؟

- نعم .

فاغترق بيثيا متنهدا :

- لا ، ليس عندى بسلسلة .

- ودون سلسلة ؟

فاجاب فى حزن افقدنى الرغبة فى السخرية منه :

- ولا دون سلسلة .

ولكن بيثيا لم يقدر سماحتى . فعبس ولم يعد يكلمنى ،  
لم يحزننى ذلك ابدا . كانت جدتى تلح على ان اتاديه «يا  
خالى» ولكننى كنت اجد من المعنق مناداة غلام «يا خالى» .  
كان ضربنا مؤلفا من فخر مبينين . كان الفجر  
يتقسمون حسب منهم الى ثلاث فئات كبيرة : الاولى فئة  
الفجر التجار ، الذين كانوا يبيعون الخيول ويشترونها  
ويقودون من مقاطعة الى اخرى قطعانا كاملة ويربكون مبالغ  
ضخمة من المال . هؤلاء هم «البارقالى» ، الفجر الاثرياء .  
وعلى النقيض من هؤلاء يأتى «الزليدارى» ، الذين يتمتعون  
الشحادة والسرفه والاحتيايل وكذلك الشموذة . فاذا خطر  
فى بال ارملة صبية ان تستميل اليها قلب فتى فى مقبل  
العمر «تسخره» وجدت فى قبيلتنا عددا غير قليل من  
الاضحائيين البارعين فى هذا الشأن . واخيرا تاتى الفئة  
الثالثة التى تضم الفجر الصناع او «المبيضين» الذين  
يبعضون القدر ويصنعون المذارى ويسودون طباجر الصليب  
ويلحمون الطاسات .

اطن ان مبيضينا لم يكونوا يأتون فى الطريق ونسائل  
كسب الرزق الاخرى . فقد سخرنا اكثر من فتى لحسابه  
ارامل صبايا سود الوجاه . . . وجلينا اكثر من علبة  
وشفيتنا من اخرى ونهبنا اكثر من بستان ونفضنا اكثر من  
شجرة كرز . وكثرنا عن ذوبنا هذه بمعانات الطريق .

كانت عرباتنا تسير فوق ارض مخربة ، وكنا نسير  
بضياح وقرى مخروقة ، وبضائع وسعائل مهددة . ونجتاز



محطات كبيرة للسكة الحديدية فخرى على خطوط التخزين  
تواصل طويلة تصرخ طالبة افساح الطريق .

وكنا نتقدم في ارض قفراء ، مدهور فوقها غبار مسن  
الفحم ، حيث تنفجر بقايا المنجم المخروطية يمتلئها السوداء ،  
في زرقة السماء الصافية ، حيث الآليات الصبدة التي تمتص  
فوق آبار المناجم المغمورة لم تعد الا ملجأ للزرازيير  
والغريان .

وخلقتنا ورائنا لاجئين تمساء يستبدون الى الامام على  
غير هدى . كان الناس يشون ويقعون ويموتون على الطرق .  
واما نحن فقد كنا نتقدم الى الجنوب ، لا نبال بمصائب  
الآخرين ، ولا نأبه لاي شيء . لا ينس حياتنا المتشردة .

كانت معارك الحرب الاهلية تهدر حولنا ولكننا لم نلتق  
قبل بوحداث عسكرية . وكان اميلكا ، على ما يبدو ، يعرف  
كيف يقود مخيمنا . مسرة واحدة اضلطنا للوقوف عند  
الزلقان قطار له في عمري مثيلا - بيت من الفولاذ  
على عجل ، مكثر عن فوهات المدافع - كان يتجه وليدا نحو  
الغرب ، وكان يقف على السفحة المبرعة رجال باليسة مدنية  
خصورهم مشدودة بأحزمة . كنت استطيع ان اميز بوضوح  
وجوههم المكشوفة الصارمة ، وايديهم المعزوقة المشدودة على  
البنادق .

حملت بملء عيني في هذا القطار العجيب واذا برعب  
يتسلكني فجأة . وقضى الرعب في عيني الفضول قدسست  
وجهي في ثغرة جدتي ، ولم ارفع رأسي الا حينئذ هدأت  
انفاس القطار الفولاذي الالهة في البعيد .

ولقد اخرجت السامة التي كنت اربح تحتها طوال فترة  
الترحال ، اخرجت في ذاكرتي كسبا العاطش تفاصيل هذه  
الرحلة الطويلة . ويعود كل شيء الى الوضوح بصورة مذهشة  
منذ اللحظة التي بدأت عجلات عرباتنا تغرز في رمال  
الحافطة السابقة «تاوريا» .

\* تسمى الآن مقاطعة القرم . بالهراب .

واذكر اني اخرجت رأسي من تحت غطاء العربا ولبست  
مدهوشا . كانت تسمع ، في السماء البيضاء ، شمس خريفية  
حارة ، تترك على بقايا الغصون فوق جذوع الصنوبر على حين  
ان الارض كانت مكسوة بالثلج ، وقفرت على الارض فقصت  
حتى الرسخ في ثلج حار جاف فيه حمار بنفسجي مذهيب  
يختلف الاضمار . وهرعت نحو جدتي .

- ستي ، ثلج !

فاجابت جدتي :

- لا يا حبيبي ليس هذا ثلجا ، هذه ملاكات ، ملح  
مخلوط بالرمل .

فلم اصدقها . الملح انما يشترى في الدكاكين ، واي  
احق سيعثر على الارض بضاعة تسوى مالا ؟ لا شك في  
انه ثلج ، ولكنه صيفي وليس شتويا ، ولكم اتمنى ان اراد  
يسقط من السماء !

كانت عربتنا لا تكاد تتحرك ، وسمعنا صيحات السائق  
المبحرة والياسة وصرير النيور وسميس الرمس . ظلت  
العربة تارجم من جهة الى اخرى ، ولكن الصنوبرية العواء  
التي قلوع منذ ازمان بعيد قرب عربتنا لم تكن تتزحزح قيد  
الملة . وكسان الرجال وفي ايديهم الرقوش قد هرعوا  
يخلصون العربات الفارقة في الرمل . كانوا يقطعون الاقصان  
ويقفون تحت المجلات . . . ولكن ميهات ! كانت العربات  
تغوص في الرمل اكثر فاكث . وكان الثلج الغداع ، مثل  
مستنقع رغو ، يبدو كأنه يمتص مخيمنا ، وتوقفتنا في مكاننا  
لا نتزحزح . .

العز يولد الغضب . في هذه اللحظة الصعبة تذكرت  
زوجة عمي ، سلفه امي ، ان امي وزوجها وانا دخلنا على  
المخيم . ومن صياحها وزعيقها امكن ان نفهم اننا نعتبر  
مصدر الشر كله ، فخنن الذين اخترعنا هذه الرمال المهلكة ،  
ولولانا بلع المخيم الارض الموعودة منذ ازمان بعيد .

كانت سلفه امي امرأة صبية ، تلبس على الطريقة  
الغجرية ، ثيابا ذات الوان فاقصة ؛ ثغرة حمراء ، وسترة

- شر ! .. شر ! ..

والما اوشكنا ان نرحل اعطت سلفه امي ابنتها ثديها ،  
كان شيئا لم يحدث ، وهي تقدم فوقه بصوت ناغم ،  
لما وصلنا الى الطريق الكبرى عقد الراشدون مجلسا  
عائليا ، الى ابن نذهب ؟ لم يكن لدينا لا عربة ولا خيل ،  
سيرنا على الاقدام لا نستطيع المشي بعيدا ، ولما انصرف في  
القطار فيحتاج مالا . ولم تكن نملك ما يكفي لتدكرتين ،  
وهذا ما قد عليه القرار : ان ياخذ زوج امي والى القطار الى  
قرية ايفورليستسكايا حيث يقطن اهل زوج امي . ولما نحن  
الاخرون ، جدتي والخال بيتيا وانا ، فلعينا ان نذهب سيرا  
الى العم سيدور الذي يعيش على بعد مئة وثلاثين كيلومترا  
من هنا على الاكثر . وما ان يستقر بأبوي المقام حتى ياتيا  
ليأخذانا .

ورحلا ، فجعلنا نشيعهما بأنظارنا طويلا ، بادي الامر  
انمحي زول امي . كأنما تبعد في الفضاء ثم غيب الاق جسد  
زوج امي الضخم . ولكنني ظلمت ، وقتنا طويلا ، ارى طيفها  
البقيعة اللامعة لصرة الثياب الضخمة ، التي يحملها زوج امي  
على ظهره ، يخفق على الطريق ثم غاب هو ايضا .  
كان طريقنا يمر عبر بلاد غنية . وكان الناس الاغنياء  
ياكلون خبزا ابيض والبطاطا والحلوى دون ان يخطر لهم  
في بال ان يخشسوا كسرة من الخبز الابيض ليومهم  
الاسود . كانوا يطعمون بقاتهم الخنازير فظفروا نجس  
ايضا بنصبيتنا .

وبقيوا . بن السعد فكت اروي قصة مؤسسية اخترعتها لي  
جدي امديا اتي يتيم الابوين . كانت هذه الكذبة مكرومة ،  
لا لان امقت الكذب بعامه ، لا ولكنني لان الكلام على موت  
ابوي كان يندوني فلا سيما ، ولكن الجوع كان . . . كنت  
اميانا اجمع من كسر الخبز وقطع البطاطا والبطاطا ما يملأ  
كفي كلبسه ، ولكنني غالبا ما اعسود خالي الكم والمعدة ،  
فتغضب جدتي وتقول ابي عجزي ردي ما دمت اجهل كيف  
اكسب ود الناس . وكان هذا يعزني لكني لم اعرف سبب

زرقاء ذات حواش من فرو الكلب ، وشريط ملون فسي  
العنق ، ومندبل رأس حريوي . لقد بقيت ، اثناء المسير ،  
غريبة عن كل ما يحيطها ، لا تعنى الا بابنها ، ذلك الكائن  
الصغير العاري . كانت ترضعه وهي تضغط اصبعها على  
الثدي حتى يسيل الحليب قويا ، وفي هذه الاثناء تكن على  
شفتيها الرقيقة تسمين ويرتسم على وجهها تعبير العذاب  
والهيمان . كانت تلف ابنتها في خرق ثم لا تلبث ان تفكه  
كي تقبل مؤخرته النعرا المتفضة ، وتقذله في الهواء عاليا  
مشقة ذلك بصرخات رعب وفرح ، وتطعمه من ثديها عصيدة  
ما كما يطعم الحمام صغاره .

الآن ، نسيت للمرة الاولى طفلها . كان مضطجعا على  
ظهره عاريا وبطنه المكشكش باد وهو يحرك في آن اصابع  
يديه ورجليه ، وبدا كأنما يسعى فسي دهمسة موحدة الى  
صيحات امه .

وقالت جدتي مرودة :

- اسكتي اسكتي يا بنتي .

- ولكن المرأة لم تهدأ .

ولبثت امي جالسة من غير ان تفوه بكلمة ، وقد ضعفت  
يديها يمين ركبتيها اليمينتين وكأنها لا تسمع لعنات  
سلفتها . ثم نهضت ، وبفس الضمت قذفت الصرة التسي  
تحوي اسمائنا الى الارض ، فاقترب زوج امي ، والعرق  
المصترج بالقطران يغليه . لقد سمع كيف شتمتنا امرأة عمي  
فلم يسأل عن شيء . ومد لي ذراعيه وانزلني من العربة . ثم  
نزلت في اثرنا جدتي وهي تشهد بصوت خافت . ثم قفز من  
بعدها الخال بيتيا تاركا قبضته الحديد الموقدة ذات الحوافي  
الواسعة تسقط معه .

لم يستبقنا احد ، ان الفجر نادوا ما يغفرون الاعانة التي  
تمس القرابة . لقد كانت زوجة عمي تستخدم حقها ولكننا  
ايضا ما كنا قادرين على ان نتصرف تصرفا آخر .

الا اميلكا ، القصير الثقيل ، الاشبه بالدب ، فقد قرع  
بلسانه وود هرتين :



فخسل المطرد . كنت أختار دوماً أكثر المنازل غنى . وأشيد  
الناس اكتنازاً وغيرهم غداً . فلانا إن من كان رزقه رغداً  
إنما يعطى الفقراء مختاراً . فإذا طردوني خيـل إليّ أننى  
الخطأت فطردت باب فقير عوضاً عن غنى .

وقع لى هذا الحادث فى اليوم الرابع أو الخامس مـمن  
مسيرنا . كانت الأمسية هادئة حتى ليخيل إليّ أنى اسمع  
اهتزاز ذيل أبى فصادة الذى يخط عـسلى الطريق . حيث  
السماء الزرقاء النقية ونفى الغرب وحده أشعلتها حمرة  
المغيب الحادة . كان قرص الشمس يلمع خلف غيمـة  
بنفسجية ، مثل قطعة من المعدن فى البحر . وتذكرت أنون  
ميغابلو وكل حياتنا المرحـة آنذاك . فبدأ لى الطريق خاويـا  
لحد الرعب ، موحشاً . وركضت الحق جدتى واتصبت  
بنشورتها . قالت :

— تعبت يا كوليا !

قالت بفضب لانها لم تكن قادرة على مساعدتى .  
واضاحاً :

— جدتك عجوز ومع ذلك ليست تعبـة ، كلا ولا خالك  
بيتيا .

— اتبنا كبيران واما انا فصغير !

— فى الثامنة لا يكون الانسان صغيراً . لقد سـد غرف  
جـدك ، فى الثامنة من عمره ، كيف يسرق حسنا .

لذت بالصمت ، يستعقنى عجزى . وانعطفت الطريق بشنا  
فجأة الى شعب مغطى بالغبيراء . واكتشفت لنا وحدة عريضة  
فى شق واسع بين الاذغال يقطعها شريط طريق طينية احمر  
تصعد سداً ترائيباً فوق اخدود طينية . ولا تلبث بعد ذلك ان  
تصب فى شارع قريصة كبيرة . عند قدمى الجرف ، تحتنا  
تماماً كانت ترقص غيام مختلفة الالوان ، وغربات عصيها  
مزفوعة الى السماء ، والخيول المقيدة ترعى : كان ذلك مخيم  
عجبر .

كانت اشعة الشمس الغاربة التى تفتقر الذغل تنعكس  
انعكاساتها الاخيرة على البع ما فى المخيم : على الغيام الملونة ،

على قصب المروج المكونة قرب الغيام ، عسلى الشمال  
والعقد والاقراط التى تحملها النسوة اللواتى يسمعن قرب  
نيران المضرب .

كانت جدتنا ذكية ماهرة . لقد قادتنا دون ان يبدو  
عليها شئ ، مباشرة الى مخيم . اخذت اخفك واصفـق  
بيدى ، واقتلع الغال بيتنا من راسه فبعته الممزقة ، التى  
تشبه عشب غراب ، والقى بها فى الفضاء .

ولكن الجدة لم تقاسمنا فرحنا . كانت تنظر الى المخيم  
عند قدميها وتهنئ راسها ثم امسكتنا ، خالى وانا ، من يدينا  
قائلة :

— فلنرحل . هنا ليس حسناً !

ولكننا قبل ان نخطو خطوة برزت من وراء الذغل قامة  
عجربى مسن باسفة تسد علينا الطريق . كان رشيقاً ، متين  
البنيان يلبس بنطلونا فضفاضاً ، اسود ، وحذاء لدنا من  
جلد الماعز وصدرية مخطئة اثيقة ، تتلوى من تحتها سلسلة  
ساعة فضية . وكانت خصالات بيضاء جعداء جدلاً ، توطى وحيـا  
بارز العظام ذا انف صفرى . لقد رشق خلف اذنه غصنا من  
الغبيراء تذكر اشمارها البرتقالية بللالي . وكان فى يده ورق  
لعب وسخ .

وحيثما الفجربى فى ادب وسالنا من نكون ؟ من اين نحن  
قادمون ؟ لماذا لم نلتدئ ، حيثما راينا المخيم من النار ؟  
لهذا يلوح علينا الخوف من ابنا جدتنا ؟

لغة الفجر لا حد لغناها بالنبيرات الساخرة : الشريرة  
والطيبة ، والضحكة والمدهوشة ، المادسة والمهددة ،  
السترجمة والامرة . وليس التبرة وحدها ولكن ترتيب  
الكلمات والضخ على المخرج والطقطة الخفيفة من  
اللسان . كل هذا قادر على ان يعطى ايسر الكلمات معانى  
مختلفة دقيقة . وحتى نحن ، الاطفال ، كنا نملك فسن هذا  
النوع من الحوار . وليس عجباً اننى انا ابن الثامنة تمينت  
فى اقوال الفجربى المسن الخفية سخرية مضبوغة بالتهديد .  
وسألت جدتى وصدرها المشدود بالشمال يرتفع :

— هذا مخيم بارو شيرو ، اليس كذلك ؟

فاجاب العجري وهو يعبث بسلسلة ساعته :

— وحتى لو كان ، فماذا ؟ هل اغترض بارو شيرو سيبيلك ؟ ان بارو شيرو انسان بسيط يجب ان يكون لديه ضيوف وهو سعيد باستقبالهم . اذهبى الى مخيمنا يا عزيزتى تحلوا راحيا وسعة !

وعلى النقيض من كلماته الودية العجرية وضعت سخوية مشرومة من عينيه القزيميتين من انفه .

للعجى قواعد جامدة يشكل خرقها جرما . مثال ذلك انك لا تملك رفضا لدعوة لطيفة الى الجلوس قرب النار . ومع ذلك فقد احسست ، من الطريقة التى شمت جدتى بها على يدى ، اننا بسبيل اليروب حالا .

وسمعنا وراءنا هسيس اغصان تزاح ، وخرج عجريان آخران من الدغل يطمطيان وقد قطعنا علينا خط الرجعة . كانا ، على الاغلب ، يلعبان القمار هناك . . .

وارخت جدتى اصابعها وتركت يدى . واقت راسها على صدرها من غير ان تنطق بكلمة وكانها تعترف بما لؤلؤا ، الناس عليها من سلطة .

فى مخيم بارو شيرو استقبلنا فى حفاوة . قدم الينا برغل مطبوخ بالحليب ، ووظفونا ، الخال بيتيا وانا ، كسل بتفاحة كبيرة ، ولم تمد جدتى يدها الى الطعام . كانت تجلس على الارض تلف ذراعها حول ركبتها ، وهن راسها ذون انقطاع فتصدم اقرطها المعدنية المستديرة خديها . ثم قدم علينا عجى من الثمان ، وبين الضحك والمزاح اخذوا الخال بيتيا معهم . فى هذه اللحظة رايت جدتى ترفع يدها الى راسها الذى يتأرجح واقتبلت فى بطة خضلة من شعرها الابيض والقتها فى العشب وعلى وجهها تعبير غزلة مستغرقة .

ولكن على ان اقطع سباق قصتى لكى ابين ما هو مخيم بارو شيرو .

للعجى "برقهم اللاسلكى" الخاص فاذا التقى عجري آخر

على الطريق سرعان ما يروحان يتبادلان الاسئلة : من اى مخيم انت ، من اين تاتى والى اين تذهب ، من صادفك فى طريقك ، اتعلم ايسن يضرب المخيم «الازرق» ، والمخيم «الاسود» ، او فى اية منطقة يتجول اميلكا ؟ . . . وسواء كنت تعرف الانسان الذى تصادف او لا ، سواء كان صديقك او عدوك ، فعليك ان تجيب بكل امانة عن كل الاسئلة . واكثر ما يهيم العجى هو الطرق التى تتبعها مختلف المخيمات . وهنا يجب عليك ان تحيط ببائلك علما لا بسا تعلم انت نفسك فحسب وانما بمعلوماتك من المصادر الثالثة والرابعة ايضا .

يفترض هذا «البرق اللاسلكى» كانت جدتى تعرف انشا لا نستطيع فى هذه الاضواء ان نثر على مخيم الا هذا المخيم الذى لا يدرى احد له وجهة ، والذى ياتى لا احد يندى من اين والذى يذهب لا احد يعلم الى اين ، وباختصار : مخيم الاشقياء المخيف ، مخيم بارو شيرو : الراس الكبير .

فى ذلك العهد كان يتسكع فى الاسواق والقرى عدد عديد من العجى المنفردين الذين هجروا ، لهذا السبب او ذاك ، مخيمهم الذى ولدوا فيه . هذا لانه كان ضحية حب تميس وذاك لانه اساء التصرف نحو مخيمه فطرد منه ، والآخر خرج من السجن ، بعد قضاء مبددة عقوبته بما سرق من خيول ، ولما يستطلع العثور على جماعته . . . لقد جرت العادة فى الماضى ان يسمى الناس العجى متشردين . ولما كانوا خلال قرون مديدة ، يطردون ويضطهدون ، محرومين من قطعة الارض الصغيرة قتلهم والنسف المكين يظلمهم فقد اصبحوا متشردين رغم انهم . ونحن انفسنا لم تكن نحب هذه الكلمة ، ولا نطلقها الا على العجى المنفردين ، الذين انقطعت اسمائهم بذويهم . كان بارو شيرو يجتذب هؤلاء المتشردين الى مخيمه المؤلف من عدة اسر فصل بيئها صلات القربى ومن زوجاته العديدات . فاذا اجتذب بارو شيرو خمسة او ستة من هؤلاء زجهم فى «عمل» — هكذا كانت تسمى سرقة الخيول — وكان هو نفسه ، تصعبه حاشية ،



يقصد سكان القرية الأترياء ، ويقول لهم : «نحن نجر ولسنا  
تصوصا ، ليس كل العجر لصوصا . ونود ان تعرفوا ذلك .  
غدا سيأتيكم عجر ازال لكى يسرقوا خيولكم غافضوا عليهم  
وعاقبهم كما ينبغي» . وكان الفلاحون القزاقى ، وهم اتاسى  
حذرون ، يجيبون عادة : «أتريدون ان تقيضوا حلوانا ؟  
انزعوا هذا من ذعنكم . كل العجر من طينة واحدة» . -  
«نحن لا نطلب منكم شيئا ما لم تمسكوا هؤلاء اللصوص .  
ولكن اذا امسكتهم كافأناكم ، اقم ثلاثة بيت ، اذن .  
ثلاثة مرة نصف روبل من الغنمة وهذا ما يكفل لمخيمنا  
العيش شهرا» .

ويذهبون . حتى اذا ما اذف اليوم والساعة المحددة  
بعثوا ، لاجل «العمل» بالثمان الذين يعملون كل شئ  
ويذهب هؤلاء فلا يجودون . لقد كان سكان القرى القزاقية  
وحشيين فى انتقامهم . يقتلون اللصوص بالفؤوس والمقار  
والهراوات . ويدفونهم فى حفرة واحدة . ويجمع بارو شيرى  
الجزية . ولم يكن الفلاحون ليظهروا شجأ . فكانوا ، فضلا  
عن المبلغ المتفق عليه يعطون كمية مسن اللحم والبيش  
والخبز وكذلك بعض الالبسة . فاذا جاء الليل يرسل مخيم  
الاشقياء ، وغالبا ما يسوق امامه قطع الخيل الذى كلف  
الثمان المساكين الذين ارسلهم بارو شيرى حياتهم .

وكان اتباع بارو شيرى يعرفون كيف يخلصون السر .  
وطبيعة الحال كان سكان القرى هم ايضا يلزمون الصمت .  
وهكذا فان العجر ، ومع على علم بان جرائم ترتكب فسى  
المخيم وبان عددا عديدا من الثمان الذين جاءوا من خارج  
المخيم قد لاقوا حتفهم ، ما كانوا قادرين على ان يفهموا  
على وجه اليقين من اين يعيش بارو شيرى .  
لقد عرفت هذا كله بعد ذلك بزمان طويل . . .

لا شك فى انى كنت ارى قلقى جدتى وحزنها ، ولكن  
مخيم بارو شيرى ابهىنى . اذكر الليلة الاولى . كانت السماء  
تتلاها بالنجوم . وانا متمدد على فراش دافئ ، لئن لم يتسن  
لى ابدء ان انام على مثل هذا الفراش الوحيد . مرتبة سمكية

من الريش وغطاء ليس ممزقا تقريبا ، وتحت رأسى مخدة من  
التيث . وانقر على بطنى الحشو بعصيدة . بالحليب ، انه قاس  
كالكرة . وتراودنى رغبة فى الضحك ، ولكن جدتى جالسة  
فربى ، لا تنام ، وانز النار التى تغد يستط على وجهها  
الذى يلعب فيه شئ . واحذر انها دهوع فاشعر بالنفور من  
النظر الى جدتى . واحول عيني وانظر الى اعل . السماء  
مرصعة بالنجوم الالامعة ، التى تتسلسل وتغاهن هى ايضا فى  
مرح . واقول فى نفسى انه سيكون عندنا منذ الآن عصيدة

بالحليب وسرير دافئ كل يوم . وانام على هذه الافكار  
لم تحب آمالى . كنا نعلم العصيدة . بالحليب والخبز  
الابيض وما من أحد يبيع فى للمحادة فسى القرى حيث  
الكتاب شرسة والناس اشد شراسة من كلاهم . كنا ، العجر  
الفشار وانا . نقوم بالغاب مسلية .

كنا نجتمع فى حلية امام النار ونلعب لعبة بيع الخويل  
الوهيبة . تضرب يدا يده كما يفعل تجار الخيل ، نبل  
اصابعنا ونعيد طويلا عد اوراق الملابس ، التى تمثل الاوراق  
القدية ، ونشاجر . ونطالب بزيادة ونشرب «حلاوة الصقعة»  
من علبه صندنة للمحفوظات ثم نروح تترنح مثل السكارى .  
ونعود الى خيامنا ، وكل يتخيل انه ربح فى الصقعة على حين  
ان الآخرين خسروا . وقصارى القول انها كانت لعبة عجيبة  
حقيقية . ولم يكن الكبار ينهروننا او يشتموننا مدين انا  
تسكع بلا عمل . واحيانا كان العجوى الشيخ الايقى - يد  
الرئيس البهنى - يأتى لزيارة سوق خيلنا ويشجعنا تشجيعا  
اجريا . شئ واحد بدا لي غريبا : لم يكن النهار الغارب يودع  
هنا بالغناء والرقص على عادة العجر . فى مخيم بارو شيرى  
لا يسمح للانسان الموسيقى . فاشعر بالملل . ذات يوم جاء  
لم تكن ترى النال بيتنا الا من بعيد . ذات يوم جاء  
قبيل العشاء فى بلدة عجيبة سوداء وصدرية من المخمل  
المطرز ، ماثقا غريبا ، تكاد لا تعرف فيه بيتنا القديم .  
لقد تحقق الحلم الذى كان يداعب خياله منذ زمان بعيد :  
سلسلة ساعة تمتد عبر بطنه من جيب الى آخر . صحيح ان

في نهاية السلسلة كانت تبدل ساعة فارغلة (كان العجز يسمون هذا «ساعة دون إحشاء» ، ولكن هذا الامر لا اهمية له : لم يكن العجز في حاجة للساعة كي يعرفوا الوقت ، كان بيتيا ينتعل حذاء ايقا ، ضيق الطرف ، مثل منقار الاوز ، لامع الرقبة . عكسنا قدم بيتيا نفسه لنا . واحسست فجأة انه من السهل على الآن ان اناديه «خال» . ولكن منظر بيتيا لم يبهج جدتي . اخذتها رجفة وركعت على ركبتيا :

— لتزحل من هنا ، لترحلي يا صغرى الصغير ، ، ، سيهلكوك !

لم يعجب بيتيا بشيء . سحب من جيب بنطلونه خفنة من القطع النقدية وراح يختبئ بها تحت انفي . رجرت ان يغلياني قطعة صغيرة ولكنني شرحت لي ان اتفاق المال مشوش ، ان بارو شيرو هو نفسه ينظر كل مساء ما اذا كانت القطع كلها موجودة .

لما سمعت جدتي اسم بارو شيرو اخذت تبصق وتنزع شعرها وتلففني ، خلاصا ، على الارض . وطافت على شفتي بيتيا ابتسامة راضية رائقة ، ابتسامة انسان نشوان من السعادة ، وسحب ساعتها «التي لا احشاء لها» ، ونظرت في لوحته من الورق المثوى وابعدت وهو يتخطى .

كانت حوالينا نسوة كثيرات ولكنهن مضمين يشتغلن في امورهن كان شيئا لم يحدث . ولم تهدأ جدتي فاخجلني ذلك جدا . توسلت اليها : «كفى يا ستي» — ورحلت اجمع حزم شعرها حتى لا تبعثرها الريح في شتى ارجاء المخيم . في هذه اللحظة برزت امامنا قامة انسان لا مثيل لهما عجيبة لا ترى مثلا الا في الاحلام . كان جذعه القوي وكثفاه العريضتان . لا تكساده تثبت على ساقيه القصيرتين المتوترتين . ولكن ذراعيه الطويلتين الشعر اوين اللتين تسان الارض كانتا بمثابة عكازتين له .

واكثر ما يحدل على الدمشنة فسي هذا القزم الجبار هو رأسه . ضخم كالقرد مكسو بشعر قاس اجعد ، ذو فكين

شاسيعين . بارزين وانف امسح مكسور ، كان يشيل انه غائص في الصدر والكثفين . . . وعيناه الصغيرتان الفاتحتان اللون تيزقان في وقيبهما العميقين . وكانت احدى اذنيه اكبر من الاخرى ، حادة ، طويلة ، يشدها الى الاسفل قرط ثقيل . وبغريزة الطفل التي لا تغطي حزرت حالا انه هو بارو شيرو . كان يشد على غليون بين اسنانه ، غليون في مثل اسطوريته يمثل رأسه نفسه ، منحوت من الرخفة في براعة فائقة .

ونثت بارو شيرو سحابة دخان وسحب غليونه من فمه وقال يضع كلمات مبتسرة لجدتي في صوت ابسح خافت . وبدا وكان الكلمات تخرج من انفه الامسح المنسحق . ألقت جدتي نظرة على بارو شيرو وارتمت امامه دافئة وجهيا فسي الغضب ، وابتعد الآخر ظالما على ساقيه القصيرتين . في ذلك اليوم ، عرف الناس ان فتياننا سيذهبون فسي «اعمل» .

في المساء اخذت الريح تعصف . واشرعة الغيام تضئق في شجعة ، والعربيات نصر كأنما تنهيا لرحلة طويلة ، ولهبب الكيران لا يرتفع ، بل تنسحب السننته على الارض وتلجس الغضب . كان فتياننا قد ذهبوا ، وصمت المخيم في ترقب . وللمرة الاولى احسست هذا اني منزوع قلق ، وتوسلت الى جدتي :

— لنرحل ، لنرحل من هنا يا ستي !

فاجابت جدتي وهي لا تكف عن البكاء :

— كيف تريد ان تهجر بيتيانا ؟

شعرت على شفتي بدموعها الباردة الصالحة .

ولمت في مكاني قرب النار ، وتملكتني الخوف في منامي ايضا . فاخذت اناذي جدتي ولكنها لا تجيب . ربما كنت ادهمها في الحلم فقط .

ومزق الصمت الليلي صراخ مخيف . واستيقظت . كان انسان مدمى ، ممزق ، يتلوى قرب النار ، صائحا : «قتلونا قتلونا» . الفلاحون قتلونا . . . وعلى خده ترتعش خثارة



مستندرة من الدم ، جلاتينية ، هى عينه التى سألت من صاحبها .

ثم دوت صرخة اخرى ، حادة ، ملتاعة ، صرخة حيوان جريح جرحا فائلا . كانت جدتى هى التى تصرخ . اندفعت نحو الجريح وامسكت به من قميصه .

وجهم الآخر منتحبا :

— قتلوا ابنك !

واحاط به الغجر الشيخ ومضوا به .

ودبت الحركة فى المقيم كله . كانوا يلغون الخيام ، ويفكون الخيول من عقاليها ويقذفون بالاطفال النائمون الى العربات ، والخيول المزعوبة تنخر وتحجم فتقطر بالقوة الى العربات ، والشتايم المفعنة تدوى فى سعار ، والسيور والحياسبات تشد .

فى هذه اللحظة ظهر بارو شبيرو امام النار ، وقسف مبادئ ساقيه القصيرتين ، يشعل غليونه ، فى هدوء ، بفحمة اخذهما من المجرة .

ولست ادري كيف ظهر خنجر يحدتي فى يد جدتى . كانت تمسك الخنجر بيدها المدلاة والمشدودة حتى لا ترامش . وما هى الا خطورتان انزلتنيهما حتى دنت من بارو شبيرو ورفعت ذراعها فوق كتفه اليسرى ووثبت وثبة اشترك فيها جسدها اشتراكا انقل وقع الضربة وضربت المجرم فى وسط وجهه الشنيع . فى آخر لحظة حمى بارو شبيرو نفسه بيده ، فشق الخنجر حاجبه ومزق قميصه . وسقط غليون الرئيس فى العشب . ولما هو فقد ضرب بعظام اصابعه الجريفة جدتى فى صدرها . كانت الضربة رهيبية ولكن جدتى حتى لم ترتفع . مناجت قاتل ابنيها من جديد ، فخرج غجريان شديدا ان يصداها ، ونجحا فى نزع سلاحها ولكنها عجزا عن الامساك بها .

لم يسبق لى ان رايت جدتى على مثل هذه الفطاعة والجمال . كان شعرها الابيض قد تناثر حول وجهها الاسمر الذى عاد اليه صباه وغدا قاسما ، وعيناهما تشعلان

ضراوة . وفى حركة وحسن مرنة ، اتزعت نفسها من ايدي الغجريين وانشبت اطرافها فى عيني بارو شبيرو . وصرع الغجري المسن ، الذى استدرجنا الى هذا المقيم ، يمد يده المون لزعيمة . ذلق ذراعه تحت ذقن جدتى ودفع ركبته فى ظهرها وانزعها من بارو شبيرو . وصاح بالغجر الآخرين : — كففوها !

وقذف جدتى على الارض ، ثم اخذ بارو شبيرو من تحت ابطيه وجره فى جهده .

وما هى لحظة حتى اقرر كل شىء . قبل يضع دقاتي كان الناس هنا ، فى غدو وروح ، والخيول تضهل وتشب فى سيورها ، ومعركة ضارية بين ثلاثة رجال وامرأة سلبتسيما النجعة رشدها ، وفجأة يجل الغواء ، كان مقيم الانشياء ذاب فى الليل ذوبانا . ومن الاعلى ، كانما من شيمة قاتمة اشبه بدخان راكد ، تناضى وقع حوافي جياذ وصيرير عجلات وقرقعة سيابل . ثم انصمت هذه الاصوات هى ايضا ، ولم يبق الا الليل والرياح وبقايا النار وجدتي الملقاة على الارض شبه ميتة .

وهبت الريح طوال ما بقى من الليل فى جنوب . كانت تعصف باثواب جدتى وقميصي ولكنها لا تدع للمنا ان تخمد بما تقذفه اليها من الزاد : قطع من الورق والقش والعشب الجاف . كنت اتوسل الى جدتى ان تفتح عينيها . ولكنها لم تستجب لى ، لم تكن تصنع الا ان تختلج . ثم هدأت الريح وهبت بزودة قارسة قبيل الفجر ، فتبينت العشب الهوروس والخرق الملونة ، وحلة مثقوبة ، وعلبية المحفوظات الصدنة التى كنا نشرب «حلاوة الصفقة» منها ونحن نلعب لعبة تجار الغيل . وعلى بعد يسير ، ابصرت غليونون بارو شبيرو الذى سقط منه حينما ضربته جدتى بالخنجر . والتقطت الغليونون وبصقت على وجه المجرم الحقير . بصقت مثني وثلاث وانبا اقول : «لاجل بيتنا ، لاجل جدتى ، لاجل» . وشتمته بكل الكلمات البذيئة التى كنت اعرفها ، ولكننى لم اسحق الغليونون تحت قدمي ، لا ولم اقفزه الى النار . ساعدتى

احساس لاشعوري بالجمال كان يحيا في روحى الصبى ان  
الفصل الاصل عن المثال . . .

— ماء . . .

كان هذا صوت جدتى ،

دنست الغليون فى عبي واخذت علبه المحفوظات ثم  
عدوت الى اقرب بركة ولكن ، لما اردت ان اسقى جدتى  
همت بجسمها على نحو اخرق وسقطت الى الخلف من جديد .  
وطوال ذلك الوقت كانت ذراعها لا تزالان مكتوفتين .  
وحملت العدة القوية فى جهد جهيد وتدفعت الزنار الصوفى  
فى النار . وسرعان ما اشتعل واحترق ، خيل الى اننى احترقت  
اساس مصائبنا كلها ثم ادبنت من جديد علبه المحفوظات  
من شفتى جدتى .

— يا حميدى ، يا ولدى ، هذا الماء لا يشرب . تسميح  
فيه حشرات سيئة .

ومع ذلك شربت هذا الماء السيئ وشربت من بعد مرات  
كثيرة خلال النهار لانه لم يكن ماء آخر قريب بينما كان  
الظمأ يعذبها . ويظهر ان هذا الماء هو الذى اضرها .

لم يكن لدينا ما نأكله . وفيما حولنا تبعثت حزم من  
القش وحب الشوفان المنتثر بين المخالى وقشور بطاطس .  
اضربت ناراً وحاولت ان اشوى هذه القشور بعد ضمها فى  
عود طرى ، ولكنها سرعان ما تفحمت .

وقالت جدتى :

— اذهب الى القرية . فلا بد ان فيها ناسا طيبين . . .  
وضعت ، كانت القرية قريبة منا . تجاوزت تلة التراب  
فوجدتنى امام الدار الاولى . وخرجت ربة الدار على قرع  
الباب . فطلبت اليها كسرة من العجن فى صوت تند عئسه  
شكاة دفعت الدموع الى عينيها . قالت :

— يا ربه ما اصغره . . . ادخل ، ادخل . اين اهلك  
يا صغيرى المسكين ؟

لم اكن انتظر مثل هذا السؤال ، ولم اعرف ماذا اختلق  
فقلت اسمى .

فرددت المرأة اسمى وهى تعطينى ملمعة وتنبها لكسى  
تضع الى بصخة من حساء الكرتب يتصاعد منها البخار :

— آ ، انت ابن ناروجنى ، ولكن اى ناروجنى ؟ باناس  
او غزىشكو ؟

كان جليا ان اناسا يكون بنفس كيتى يقتلون فى  
الضواحي المجاورة . لو كنت اكبر سنا وخبرة لقدرت على  
الافادة من هذا التوافق . ولكنى لذت بالصمت . وتابعت  
المرأة دون ان تدع الصفحة من يديها اسفلتها :

— كيف حال اختك يا ولدى الصغير ؟

اجبت :

— انا ما لى اخت .

— اذن فانت ابن باناس ، كيف حال جسدك ؟ الا يزال

حيا هذا الشيخ الطيب ؟

— انا ما لى جد .

— مهلا اذن انت لست من اسرة ناروجنى .

رغضيت المرأة ، وانتزعت الملمعة من بين يدي  
وطردتنى الى الخارج .

مشيت طويلا فى الزقاق المقفر من غير ان اجز على قرع  
الابواب . كانت قرية يقطنها كولاك اغنياء ، ولكن كان لها  
فقرائها ايضا ، وما لبثت ان وصلت الى الطرف الاخر مسن  
القرية حيث اخسذت المنازل ، شيئا فشيئا ، تغدو اشد  
انغاضا والاسيجة اقل علوا والدخان المنطلق من المداخن  
عريلا شفافا . وكان مسن عادة العجر الا يعدوا اليد الى  
الفراء ابدا . فعلى الرغم من كونهم ميالين الى ابتزاز المال  
لينسوا بالشحاذين بل بامة ، مهما تكن البضاعة : خيول او  
جلل او اغنياء او قراءة اللطالع والقراء شارون سيفون ،  
ولذا كان العجر يولون وجوههم شمل المنازل الغنية . وانا ،  
العجبرى الصغير ، لما شحمت رائحة البؤس همت بالتكوص  
على عقبى حينما نادتنى امرأة .

كانت تنوزتها البالية من تسميح خشن ، لا تكاد تستقر  
على وزكيتها الامسحين . وكان فى قفها ثقوب اسود ، اذ



تقصصها عدة أسنان ، وانطلقت أقوال غير مفهومة من هذا الثقب فغلب اليّ أنها شتالسم . وددت ان اضي في سبيل ولكن المرأة صرخت في قوة حملتني على الوقوف . كانت عند قدميها سلة خضرة ، خرجت منها كرنبة صغيرة وبسملتها في . كنت اخشى الاقتراب . فبهذه المرأة ذات الثياب الرثة لا توحى اليّ بالثقة . حينئذ دفعت بالكرنبة دفععا هينسا فتدسجت نحوي ، « تريد ان تستدرجني ، من كل يد . . . » على اني اظنرت اني اشدد حيلة منها ، فاختلطت الكرنبة في سرعة واطلقت ساقاي للريح .

سخرت الكرنبة على النار طويلا ورحت اقربها . ولم نأكل جدتي . كانت تطلب الى الماء فاحمله اليها . وفي يوم عسلى هذه الحال ، وليلة ، ثم يوم وليلة آخران .

لم تلهض جدتي ، بل ولا تكسار تتحرك . كان جسمها الملى الكبير قد تغضن ، وانتشرت زرقعة غريبة في وجهها البرونزي وسودت شفقتها الملبقتين الممزولتين . وظلت عيناهما مفتوحتين دوما ولكن بدا كانهما لا ترى ، او انها تبصر غير ما كنت ابصره انما ، ونادت بيتيا عدة مرات : لعلها كانت ترى اينها . . .

مرة واحدة فقط رفعت رأسها الصغير الملبد الشعر وقرطاهما لاصقان بخديها وشمخت بصوت لابلالة فيه ، كما لو كانت تردد شيئا محفوظا من غير ان تسمع كلماتها ذاتها :

— اذهب اطلب صدقة . لا بد ان في الدنيا انسانا طيبين . . .

ولم اجز على عصيانها ، فذهبت . لم اتعلم من لقائي بالمرأة العجاء التي اعلمتني الكرنبة شيئا . فترجعت الى الاغنياء من جديد . ودخلت منزلا كان يجلس فيه الى المائدة وجلس سمين ، بقميص نوم حمالناه قفيبان في الشمع المكتنز .

وبدأت الاسئلة كالعادة : من انا ومن اين انا آت . ولكن هذه المرة لم ادع احدا ياخذني على غرة ، اجبتسه

بالجدونة التي اطعمتنا طوال الطريق . واصغى اليّ الرجل حتى النهاية ثم قال ضاحكا :

— تكذب بيراعة . مات ابوك من مرض في البطن ؟ يا لك من خبيث ! ولكنك لا تحسن الكذب . انت ابن سارق تبول ، ابن لص . لقد دفنوكم جميعا في مقطع الطين .

واسكني من اخي وقرصني قرصة مؤلمة . ثم دعا اولاده كي يريهم كيف يقتص ايومهم من عجري قدر صغير . ولكنه سرعان ما تعب وسلمني الاولاد .

— اعطوه علفا لا ينسأها .

وسحبني الاولاد وهم يجودون علي ركلا ورفسا . ولما وصلوا الى فناء المنزل اطلقوا الكلاب . عدوت الى الخارج ولكن الكلاب ما اسرع ان لقيت بي . تذكرت حينئذ ان ليس لاني الا مخرج واحد : ان استلقى على الارض ولا آتي بحركة . وتمددت على الارض . كنت اري من خلال اجفاني المواربة كلابا ضخمة ذات السنة وردية مبللة . وقلت في نفسي : اذا اخذت تمزقني قدمت لها حنجرتي حتى لا اتألم طويلا . ولكن الكلاب دارت حولي ، شممتني ثم ابتعدت في لابلالة مشرعة اذنايها . واستنتجت ان الكلاب هنا خير من الناس .

لم اعد اضي لاستجداء الغبن . ولم يبق لي الا شيء واحد : ان اصون النار ان تنطفئ . ما اظن ان تضمد النار ان ظلمات كيفة تلتفك بين طياتها من كل جانب ويخيل اليك انك نصف ميت . ولكن قيسا مهما يكن ضئيلا ، يتمشي على الفحم ، قادر على ان ينق عتك الاحساس بأنك مهجور باس .

قبل المساء ، حينما يعود الناس بالحيوانات من العظيرة المكشوفة الزاخرة على بعد نصف كيلو متر ، كنت اجمع جلة البقر التي اذا جفت اثناء النهار اشتعلت بصورة لا بأس بها . ولكنني كنت عاجزا عن ان احمل مقدارا كبيرا في آن فترتب علي ان اقوم بحوالي عشرة مشاوير اذا اردت ان ادخر مؤونة وقود ليلة كاملة . وخطي في بالي ان اسرق السياج الخشبي

الذي يحيط بالعظيرة . كان متبرئا وواتاده لا تكاد تفرز في الارض . ولما هبط الليل ذهبت الى هناك .

يبدو انني بالغت في تقدير قوتي . كان وقد الزاوية النخر والعلى يثن ويتذبذب ولكنه لا يسقط . فاستندت ظهري اليه وجعلت اهزه كما تهز شجرة تفاح في بستان ، واركله دون جدوى . . .

في داخل العظيرة كانت جلة جافة تبدو مثل بقع بيضاء . قلت في نفسي : «ليذهب هذا السحاب الى جهنم . الاحسن ان اجمع جلة ملء قبضي . قد يكفى هذا نصف ليلة . . .» ومع ذلك مضيت في من الوتد في عناد .

كان الصمت مغنيا ، ولكنه لم يكن مثل صمت السهوب المطلق ، بل كان يتولد من اصوات زربية صماء .

وكانت ورائي ادغال البرقوق الشائك المشبعة بالسواد ، وخشخشت اوراقه الخفيفة التي دب فيها الجفاف مثل صفائح معدنية ، وصرت الالفصان الناشئة وهي تحلك بعضها ببعض ، وكان شخصا لا يرى يشعل مبعلا صمدا .

كانت رعشة تخرق فخاري لكل صوت يصدر عن هذا المسن غير المنظور . كنت اشد عنقي حتى الايام كي لا انظر صوب الادغال ، ولكن ، لما هوى الوتد على حين غرة ، وانهار في انين اصم لم اعد اطيع صبرا وادرت راسي ،

فوق كتلة الاوراق التي زادت بها الظلمات كثافة برزت اغصان جافة ، بعضها حاد مثل الخناجر والاخر مزدوج يشبه المذاري . فبدت لي كاسلحة فلاحين قد نصبوا كمينا . وتشمل ذهني المجزوة الوحشية التي راح شباينا ضحيتها تملأ صاعقا ، فاطلقت صيحة واسلمت سباتي للرعب .

كانت الريح تصصف في اذني وتغفق في ثنيات قبضي ، فغفل الي اني اسمع دوي مطاردة ، ولهاث جماعة تريد ان تقتص مني ولن تلبث ان تدركني .

اندفعت بادي الامر الى الحقل ، ثم انعطفت بعدة وعدوت نحو نارنا . وما ان مس الوهج الاحمر المنبعث من النار قدمي حتى تبخر الخوف غير نارك في نفسي اثرا . كنت في بيتي ،

فليس يسكن الانسان سقفا واربعة جدران ، ولكنه المكان الذي لا يحس فيه نفسه وحيدا في مواجهة العالم كله . فوجدت كائي حبيب ، وضوء نار ودفعها جعل من مزقة سهب مكتشفة مسكنا لي .

في تلك اللحظة تذكرت اني رجعت دونما وقود . ووجبت العردة ، ولكن ، اتراني اجد الشجاعة لذلك ! لو ان جدتي شجعتني على الاقل ، لو انها وبختني ! اقربت منها وركعت قريبا واخذت يداه .

- اسمعي يا ستي . . .

احسست ان بردا غريبا يتسرب من يديا ويسر في يدي ، لمست وجهها وعنقها ، هزتها من كتفها ، في لطف بادي الامر ، في حذر ثم في ضراوة فظة .

- اخفي ، يا ستي . . .

ولم ترد جدتي علي .

احسست احساسا غامضا ان هذه الدمية المتجلدة ، الغرساء ، المشيبيسة التي تشبه جدتي ، ليست اياها ابدا ، وان جدتي الحقيقية بطيبتها وعنايتها ودعائها وضعفها وغضبها انما هجرتني ، واختلت . . . فوجدتني غريسة لوعة قاتلة ، اصرخ :

- يا ستي يا ستي ، اين انت ؟

وركفت نحو القرية . لماذا ؟ لست ادري . قد اكون انما انصعت الى الغريزة التي تدفع الانسان ، في الفواجع ، الى ان يجتمع بالناس ولكن ، لما وجدتي بين المنازل الغافية ، التي تستحم في ضوء القمر ، فتبدو نوافذها وكأنها كسائها الجليد ، فهنت فجأة ان احدا منا لا يهيم موت شجرية عجوز في السنب القريب .

شعرت فجأة بانني منهوك ، فترافيت عند قدمي سباح ونبت . وايقظني البرد الواخز . كان الفجر قد طلع ، ومعها هبط ضباب كثيف على الارض مثل بخار يتصاعد من قدر حليب يغلي ، وبين طبائنه الكثيفة اختفى العالم البعيد كله ، الا الكنيسة ، يقبائها ونافوسها ، فكانت معلقة فوق الضباب .

لم تكن هذه الكتلة الحليمية جامدة . كانت تتلوى وتتململ ، ويقع ضاربة الى الخصرة تظهر ثم تذهب . وسمعت ضجة غريبة ، مثل وقع خطي جمهور غفير . وفجأة انقلبت مسحابة من الضباب الى رأس مقلح لتور ذي قرنين امودين ، لامعين ، املسين ، حادين مثل سكينتين ، ثم بدا عنق كنيف له لند سمين : تور عملاق من من قريب ، وهو ينفخ في وحيي انفاه الباردة . لكنني حتى لم اتحرك . كنت اعرف آنذا ان عجريا صغيرا على هذه الارض الشريرة قد تترامى له اشياء من الغرابة بحيث يحسن به الا يصدق حتى عينيه . وراحت البقع الحمراء في الضباب تتسع وتكبر وتفسح المجال لبقرات حمراء من ابقار خولموغوري ذات الوبر الرطب والقرون المتباعدة ، وسمعت اصوات نساء ولقح سوط راع وقرقرته . لم اعد امين بين الحقيقة والسراب الذي تبدهه مخيلتي واوهامي ، ومع ذلك فقد كان ما اراه قطعيا يسوقه الراعي . والتصقت بظهري الى السياج ، لان الحيوانات كادت تطؤني . . .

وعدت الى الخلل في اثر القطيع . وكيد الضباب سريعا مترسبا في اعماق الحفر والاتحادية .

وتقدمت في رجل نحو المكان الذي كانت جدتي مسجدة فيه . كانت عيناها مفتوحتين ، ونظرتها كأنما تقول : كيف تركتني وحيدة وسط الليل ؟ فخنقني الخجل ، وتقدمت ، منكس الرأس ، في خطوات وثيدة ، واخذت جدتي من يدها . كانت متجمدة ثقيلة . وبدا لي ان جدتي قد ماتت مرة اخرى بالنسبة لي . فانكفات على الارض وانخرطت في البكاء . واهرقت كل ما في عيني ، عيني الطفل الذي كنته من دموع قرب جثمان جدتي .

في هذه الاثناء بدأ يشتت صباح صحو . وعلى الطريق كانت تمر ، كل لحظة ، عربات موسوقة بالبطيخ واللوزة وعباد الشمس . فاذنا تونقت ودنا السائق فغمرنا ظله ، ويبقى متباعدة صامتا ثم يسأل :

ب من هذه ؟

— جدتي .

وتتبع الجواب «آ—» مديدة . ثم يسوط الرجل رجله بعرق صفاف يستخدمه في الهش على حصانه ، ويعود الى عربته . ثم «آ» كسلانة وصرير لا يقل كسلان يبعث من العربة التي تبدأ التحرك ثم يعمد اثنين العجلات رويدا رويدا . احنقتمى لامبالاة هؤلاء الناس . فعددت منذ ذلك الحين ، اذا سألني احد «من هذه ؟» اجبت «لا احد» . ويخيم صمت ، تشبه لحظة تفكير ثم صوت غليظ : «جرو ذئب» . ويمضي الرجل في حال سبيله . قد اكون انما اشبه حقا وصدقا ، جرو ذئب يكشر عن انيابه . ولكن المؤسف انني لم اكن قادرا الا على الهزم وما بي قدرة على العن .

في منتصف النهار حملت عربة رجلا بدينين ذري احمية ، جزرت اثم السلطات المحلية . وليثوا هنيئة ينظرون الينا من غير ان يسألوني شيئا . ثم قال احدهم :

— يجب ان يقرها غلوشكا في مقطع الطين .

وسأل آخر :

— والولد ؟ الى أين ؟

— الولد ؟ الى السلجا .

يا هذه البصيبة ايضا ؟ لم اكن اعلم ما معنى ملجا ، ولكنني ما كنت انتظر خيرا من ناس هذه الناحية .

وذميرا فبقيت وسدى من جديد . وتعود عجلات العربات الى الصرير . ربين حين وآخر كان يغرنا ظل رجل قاسم السوال المل مل عليه فضول كسول : «من هذه ؟» والزم الصمت فيستخبط الظل راضيا عن صمتي رضا الآخرين عن جوابي .

وبدأت الشمس دافئة ثم اخذت تلتهم مذهبة يدي جدتي ووجهها . ثم يردت ، واخيرا امست ككرة بلون الثوث وغاصت هناك في آخر الدنيا . وجاء المساء ومعه الخوف .

حاولت ان ابكي ولكن دموعي كانت قد نضبت . وكان الالم كأنه خيس في صدري ، ووردت ان اجعل له مغرجا . فطلقت اصرخ .

— سيد ذلك ! — قالها فجأة صوت غليظ كأنما ينبعث



من يرميل ، وسكت لوى . وإذا انسان مثل الصيبار منتصب فوقى . كان من الهزال الى درجة أنه لا يعكس ظلا ، فكانت اشعة الشمس الغاربة تنزل في حول قامته العجفاء . كان معجراه الغائران يصنعان بقعتين سوداوين على وجهه الاسمر الطويل . قال :

— تفلطسون ، وأنا على دفتكم !

كانت تفوح منه رائحة الفودكا . يظهر انه هو غالوشكا الذى ذكرته السلطات .

قرب الطريق كانت تقف عربة ، تشبه تابوتا دون غطاء مما يستعمل فى نقل الروث . وانحنى غالوشكا فرقع جسده جدتى ورماه فى العربة ، وادار نحوى وجهه الذى يشبه وجود العميان وقذفنى بكلمة موجزة :

— اصعد !

وذهبنا فى اتجاه مقلع الطين . كان رأس جدتى يصطدم بصندوق العربة فزلقت يدي على الجانب لكي اخفف من الصدمات .

— ش — ش — ش ، يا ابليس .

ووقفت العربة على شفا جرف طيني . كيف ننقل جثمان جدتى الى اسفل ؟ امرنى غالوشكا بالنزول . واعتمد بكتفه على العربة فامالها فوق الجرف ، فسقطت جثة جدتى فى الهوة . اصطدمت بالتواءات البارزة وتوانبت ثم انزلت على الطين الرخو . وأخيرا سمعت صوتا اشبهه بالطرطشة . وقذف غالوشكا رفشه فى الهوة وامرنى ان اتبعه .

لما بلغت قاع الهوة كان قد حفر حفرة قليلة العمق . فى القاع كانت الفلمية اقل كثافة مما توقعت . كان نور مشرك آت لست ادرى من اين يرتعش هناك . وقد اتاح لى ان اميز جثة جدتى التى كانت مسجاة ووجهها الى الارض ، وقامة غالوشكا الباسقة وكان أئنذ يشد يديه على الرقش . فى الاعلى ، على حافة الجرف ، لاح الحصان وحجبه لا يعدو حجم كلب صغير . وقال غالوشكا وهو يحفر الارض كارها :

— اسمع ، هل سأسأل بدلا منك ؟

كان التراب رخوا . جعلت آئنذه حفنات واغطى جدتى فى ترفق وحذر . واما غالوشكا الذى اوشنه الكحول فقد كان يحفر فى رخاوة . كان الصدمت مخيما ، وفجأة سمعنا من قلب الصدمت صرير العربة . لم يعد شبح الحصان الصغير يبدو عند قمة الجرف . وعزى غالوشكا :

— ش — ش — ش !

واطلق سببا وعد لى الرقش .

— حينما تنتهى من دفتها احمل الرقش حالا الى منزل تسليو لى ، البيت الثانى من مدخل القرية . وراح يتسلق فى سرعة ولما بلغ منتصف الطريق التفت الى صانعا :

— اذا ضيعت الرقش اقتلعت لك رأسك !

وزحف جسده الطويل على سفح الجرف ثم غاب وراء فتوة . ورنحت اردم قبر جدتى . ها هى ذى آخر ضربة رقش . ولكن طرف تنورتها يظهر من تحت كتل التربة الخصبة . فاستره برقش ثم بكأ . ويخيل لى ان هذا كل ما فى الامر . لا : كانت قدم جدتى التى تنتعل حذاء باليا تبرز من الارض . انا اعرف المد حتى ثمانية . واقتف ثمانية رفوش نحو هذه الناحية . ويختفى العذاء ، ولكن عند قدمي تماما كان يتحدد منديل زاس من الصوف لا يغطى التراب الا بعضه . واقتف رفوشا ، اقتف واقتف ، وكلما جهدت جات النتيجة سيئة ، كانما تخرج جدتى من تحت الارض . ها هى ذى يدها ذات الاصابع المبقوسة . وها هى ذى خصلتها البيضاء تخرج .

لم يكن فى ذلك شئ خارق ، كل ما فى الامر انى لم اكن قويا بما يكفى لردم العفنة كما يجب . وقد تبلد عقل من التعب والجوع والوحشة فما كنت اصنع الا ان انقل التراب من ملارج الى آخر . فى ذلك الوقت لم افهم ذلك ، كنت اظن ان جدتى لا تريد ان العذاء ، فتركت الرقش وصعدت . كانت الطلعة مخيما . فى الغرب فقط كانت السماء غارقة فى حمرة قانية كانما صب عليها هناك دلو من الدم .

الى اين اذهب ؟ الى القرية حيث ينتظرنى الضرب

وتمزقتى الكلاب ؟ لا . ابدا . ثم ، انى تركت الرفش فى قاع الهوة ، ولم يكن لى حيل لكى انزل من جديد وآخذه . وقد قال غالوشكا انه مقتلح راسى . . . قصدت السهب . . . مشيت طويلا واذ انسا امام بيدر فش . افقت مع الصباح على شى . يغزى فى جسدى كله ، كان الفش والسنا بل الفارغة قد وخزنتى من راسى الى قدمى . نرعت قميصى ونظمت جسمى ونظمت ثيابى ، حينئذ رايت غليون بارو شيرو الذى سقط عند قدمى . . . لقد بقى طوال الوقت على صدرى ومع ذلك نسيت تماما . اثار وجه بارو شيرو الكرية فى نفسى استمر اذا جعلنى اضرب الغليون بدمى ضربة رمته بعيدا منى . ومع ذلك فما كنت قادرا على التخلي عن هذه التحفة . اخذته من جديد ومستحت بطرف قميصى وتذكرت فى تلك اللحظة كلمات زوج امى . كان يقول ان التبغ يسبكت الجوع . وحشوت الغليون ببتن التمع ورحمت «ادخلى» . كنت انقش الغليون فى هجارة فيسناير منه الشين كانه سجايت الدخان . ولكن هذا التدخين احدث فى عكس ما كنت اتوقع ، ذلك لان رائحة الخبز الخفيفة التى تند عن التبن ايقظت فى جوعا وحشيا . ودسست الغليون فى عبي وجرت نفسى الى قرية اخرى تقع على بعد خمسة كيلومترات من موضعى ذلك . كانت اغنام النواويس المحيية تنتشر فى الفضاء . كان اليوم يوم الاحد . والناس يتقاطرون خيوطا دقيقة نحو مدخل كنيسة صغيرة بيضاء ، برج فاقوسها ازرق سماوى ، كنتصب على رابية الى وسط القرية .

سلكت شاربعا مقفرا تروح فيه روائح الطعام اللذيذة . لم يكن السكان كلهم فى الكنيسة قربات البيوت يعملن فى شؤونهن : كن يخرن الفطائر والشراب والرقاق و«سد الحنك» من اجل مائدة الاحد . لا ، ما كان على ان اسلك هذا الشارب وانما على مثل ذلك الجوع . كنت حينما اشم العبق الكثيف المنبعث من فطير الحنطة السوداء ، الثقيل ، المسم ، القادر على ان يعشر المعدة جيدا ، وحينما آخر كان مغراى بلثمان رائحة فطائر الجبن ذات الموضضة الخفيفة . هذه

الفطائر ، يجب قذفها من يد الى يد ثم دفعها بعد ذلك فى القم . . . ثم ان يغار الفطائر العقلية بالزبدة لاحقنى زمنا طويلا . وتخلصت منه حينما تعلقنت فى عالم آخر ، عالم الفطير التى تنبعث من فطير الكرنب ، هذه الفطائر الصغيرة البضعية التى تجعلها خفتها الفاتحة تذوب تحت اللسان ذوبانا . ولم اعد اطبق هذا المذاب ، فدوت من نوافس منزلى تضوخ منه الرائحة الغرية الى حد لا يطلق المتبعثة من الفطائر العقلية . كانت ربة البيت مشمرة عن تنويرها منهكة امام الفرن المشتعل وذراعها العاربتان فى غدو ورواح تحركان الشوك الكبيرة والمقابض . فجأة لمحت على كرسي عال ، قريبا جدا من النافذة ، صفحة ملأى بالفطائر الغاربة من الفرن وقد رس عليها الطحين .

الخبيزات خلف النافذة . ايكلف الاغنياء كثيرا ان يعطوا ولدا صغيرا جانعا فطيرة صغيرة ؟ ولكننى لم اجزئ على الشحادة : قد غضب او ، انكى من هذا ، قد تطلق كلابيا . لما حالت ربة البيت الى القرن بكل جدها لتخرج منه قادرا ، اخذت فطيرة ودسستها فى صدرى ، ولكنى اهرقتى فوضعتها تحت ابطى .

ايفتقر هؤلاء الناس الاغنياء اذا اخذ غجرى صغير منهم فطيرة اخرى ؟ فعلت عن كل مقتشيات اللعذر ، فخرجت من خلف النافذة واخذت فطيرة ثانية ، ثم ثالثة . . . ولما مدت ذراعى كي اخذ الرابعة التلقت ربة البيت بفنة وضربتنى ببهاج الازرة الذى يستعمل للتكنيس امام الفرن . كانت فيه عظمة ثقيلة جعلتنى الضربة التمسر فى مكانى . وخرجت ربة البيت بغفوة واحدة ، محمرا ، متوهجة تشبه فى ذاتها الفطائر التى كانت تقليبها ، وقبضت على قبشى ومحبنتى .

فى هذه الاثناء امتلات الشوارع بالناس . كان القداس قد انتهى ، وعاد القرويون الذين تذوقوا النعمة الالهية الى بيوتهم لكى يتلذذوا بالآكل الارضية . لم يصرفهم شى عن الاهتمام بشخصى المسكين ، لا الصلوات التى رفعوها الى السماء ، ولا الاحساس المسبق بلذة المأكولات الوفيرة التى

تنتظرهم . كانوا يصغون ، منتبهين ، الى شروح ربة البيت الصارخة ، ثم يصمتون في سبيلهم ، وقد ازدادوا ايمانا بعدالة الغالب الذي خصهم باطياب المأكول والمشروب وخصني بتحمل العقاب .

وزاد فضول القرويين الحفي المرأة الصياحة غضبا ، وبلغ جرمي مبلغا فظيحا . فانا ما تهبتها وكنت احوها الى شحاذة نجس بل كنت احاول ان اضرم النار في المنزل واسرق الخيل . . . ولم يمن احد بما اذا كان ولد في الثامنة من عمره قادرا على ان يحقق بطولات من هذا النوع .

واخيرا دخلنا منزلا مترقا ، الاسرة فيه متعلقة حول مائدة مثقلة بالاطعمة الفاخرة . ودعشتني المرأة الى الامام اخذت تشرح لهم جرمي في صوت عال . واضافت ان من البيت ضرب الخبز ضربا مبرحا ، يجب قتلهم عن بكرة ابيهم . . .

خيل الي اني اعرف رب البيت الذي تغاضبه المرأة . رايت هذا الوجه السمين من قبل ، هذين الشاربين كانهما معلنان بتسحم الخنزير ، هاتين العينين الزيتيتين . ليس هو الذي بعث بغالوشكا ؟ ولكن هذه قرية اخرى . كان واضحا ان كل هذه الانشداق الشبيهة متشابهة .

وسحب المعلقة من فمه وقرىها من عينيته ثم لحسها واراحها على المائدة . قال للمرأة :

- عودي الى قريتك يا غوربينا ، سترسل الولد الى الملجا . ودعيت المرأة غير راضية على ما خيل الي . كانت تأمل دون ريب ان تنزل بي عقوبة اشد قسوة . واستنتجت ان الملجا ليس اظلم ما يقدر هؤلاء اناس السريعون الى العقاب على اختراعه .

ومضت الاسرة تحشو نفوسها بالغذاء . تذكرت القطائر التي عرفت كيف احفظ عليها ، فسحبتها من قميصي وحممت بالاكل ، واذا رب البيت ينهض عن المائدة دون ان ينطق بكلمة وينثر القطائر من يده ويتفقد بها في وعاء القمامة . ومسح يديه ببنتلونه وعاد الى المائدة .

لما فرغت الاسرة اخيرا من الغداء صرّح لي بانهم سيأخذونني الى الحبس .

واحتججت بخلافان بائي وددت لو اخذوني الى الملجا . فلم يرد علي احد . اخذني السيد من كفتي وقتلني ثم ضربني بركبته في اسفل ظهري والقي بي خارج الغرفة . واستخدم الطريقة ذاتها لكي يقودني الى الغداء . ووصلنا الى ميني فصمت يشبه العنبر . تحت سقفته كانت نافذتان صغيرتان عليهما قضبان .

وقفت السيد في جيب سرواله الضفافا واخرج حزمة مفاتيح فتح بأحدها الزنزانة . وبعد ان دفعتني الى داخلها اقفل الباب بالمفتاح وذهب على مهل . وخف وقع اقdamه ثم غاب تماما .

كان اسم المكان الذي احتجزوني فيه سي يجعلني اخاف احرأ عضوفا . وجددتني في محفل عادي ولكنسه فارغ . وعلى الارض كانت حزم من القش متناثرة . وفي اشعة الشمس التي تنسبل من النافذتين الصغيرتين يدوم الغبار .

ولم تمض لحظة حتى اكتشفت اني لست النزيل الوحيد في هذا السجن . في احدي الزوايا كان ينام فتى طويل يبدو انه في حوالى السابعة عشرة من عمره ، وقد اندس في القش . كان ممددا وذراعاه على وجهه . لم اكن ارى الا شففيه اللتين تزحف عليهما ذبابة ، وذقنه المغلي بالمش . كانت الذبابة تدغدغه فيركب شففيه في فوهة على نحو مضحك . ونفخت على الذبابة . فانتفخت مثل فتورة سيدة غنية تعصف بهسا الريح ، ولكنها لم تغادر موقعها . عندئذ حركت يدي فوق وجهه ، ولكن الذبابة بقيت على عنادها ، فاخذتني الحماسة فصامت يدي وجه الفتى في قسوة . واذا هو يستيقظ حالا ويجلس القرفصاء ناظرا الي بعينين محمليتين .

تراجعت . كان شعر الفتى احمر نارا ، الى حد لا يتصور ، ووجهه مزروع بالمش المتعدد الاشكال والالوان بصورة لم ار لها في حياتي متيلا . فعل ارضية مذهبة من البقع الصغيرة التي تكون حقا متجانسا كانت يفسح اخرى صغيرة ايضا ، اكثر



قائمة ، كما لو انك وشيئت قطارنا من خلال منخل ناعم جدا . كانت هذه الزركمة تمنعك من ان تمسك سماته . ولم اكتشف الا فيما بعد ، حينما ألقت منظره ، ان له اثنا مستقيما فيسه اتجناه نخيف ، وجبهة عالية ذات نتوئين ، وعيتمين خضراوين ضاربين الى الحمرة بسبب رموشه الحمراء والككة جدا .

ولكننى لم ار كل هذا الا فيما بعد . فى اللحظة الاولى ليث مبهورا كاني حدثت فى الشمس . فى الايام الاخيرة قبض لى ان ارى من حين لآخر اناسا ذوى منظر مدهش ؛ بارو شيرو ، غالوشكا . . . هذا ايضا كان شيئا فريدا فى نوعه . وكانت نفس متوكة امام هذا النوع من الاتصالات القوية . وإذا هي توهنها هذه العجيبة الجديدة من عجائب الطبيعة .

— إى ، قل ، أعجبك فيزيائى ؟

مكذبا سألتى الفتى وهو يتعطى مبهتسا .

لم اكن اعلم ما معنى كلمة «فيزياء» ولكننى تكلمت بما يسألتى ، فأومت اليه بنعم من رأسى . فقال بغرور :

— وكيف لا ؟ لا يرى الانسان هذا كل يوم يا صاحبنى . وأومت بنعم أخرى .

— من انت ؟ بلبلجى ؟

وددت لو وافقت من جديد ولكننى خشيت ان اتورط فى خطأ فقلت فى غير كبير ثقة :

— ( - ) لا .

واستدار ثم اخذ كسرة من الخبز الاسود وعاءا فيه لبن . وبعد ان نفع الدبابات والخيار التى سقطت فيه جعل الوعاء الى شفتيه . فى هذه اللحظة وقع بصره مضادة علي ، ويبدو انه لاحظ فى عيني بريق اللوح . فزاح الوعاء عن فيه ويعد ان يبحث عند رأسه مسح من القش طاسة كبيرة من المعدن الابيض وامال عليها الوعاء وافرغ نصفه ثم نظر الى شسائلا ، وافرغ نصف ما بقى ، وضمت لحظة لفرغ بعدها الوعاء كله ونقى على قعره . وقال وهو يشير الى الطاسة والخبز :

— كل يا فتى ، كل .

فلما رأى لا اسرع الى الانصياع اضاف :

— انا لست جائعا . هنا لا يبخلون بالماكل .

لم يقل الحقيقة . تحققت من ذلك حينما احضروا لنا العشاء : وعاء من الحليب وكسرة من الخبز لكل . لم يكن هذا كافيا حتى لطفل فكيف بفتى ضخم مثل جاري .

ولكننى فى تلك اللحظة صدقت كلامه ، فاكلت كل الخبز وشربت كل اللبن . كان يصنعك فرحا ، مل ، حنجرته . وهو يرى اللبن العائض ينقل على ذقنى ويسيل على قميصى . ثم فجأة توقف عن الضحك وقال فى رثاء :

— كم انت جائع .

وفتح قلبى لهذا الانسان المجهول . اول انسان بدا لي طيبا نحوي عن صدق . ولم يعد منظره الخارجى يرهقنى . على العكس ، كان يسلينى ان انظر فى وجهه المزركش وخصالته التحاسية اللون .

رويت له قصتى كلها ، فجعل يصغى وحاجباه المرسومان رسما جيدا يقبلان قرب الله . ولما انهيت قصتى قال :

— فى هذا العمر الغض ورايت كل هذا ! احكذا يعامل طفل ؟

واطبق قبضته مهددا شخصا غير منظور وغيرهم :

— آه ، الاوغاد ، الاوغاد . . .

وبعد ان فكرت قليلا فهمت ان هدفه الاخيرة كانت موجهة الى كل اولئك الذين كانوا اشراوا نحوي وشجعنى ذلك فسألته نيم وجوده فى الزنزانة . فاجاب صديقى الجديد فى هدوء :

— قتلت وعدا من الاوغاد .

— ق- قتلت ؟ !

— اترى يا فتى ، كنت اشتغل فى هذه النواحي صمى مزرعة ، عند كولوك ، افعى لا اراك الله ! ذات يوم دخلت المغزن لآخذ مسجاة . فى هذه اللحظة بالضبط كان المعلم يحاسب غايوتسكا ، صبية المزرعة ، وهى طفلة فى حوالى الثالثة عشرة من عمرها . كانت هى التى تقوم بشغل المنزل كله : تقسم الارض ، تكسر الحطب ، ترعى الاوز ، تجلسب الماء . . . وهو يندعها . كانت تنكبى ، المسكينة . وتوصل

اليه ان يدفع اليها ما لها بذمته . واما هو . . . هو . . . هذا  
الحيوان الغثث فقد اراد ايضا ان يلوثها . قال لها «ادفع لك  
اذا انت . . .» عموما انت اصغر من ان تظلم هذه القذارات .  
ولكني انا ، الفجري الصغير ، فهمت جيدا ما لم يفصح  
عنه صديقي .

— كانت الطفلة هناك ، ترتعش مثل ورقة تعصف بها ريح  
الغريف ، تستر وجهها بإحاطتها الصغيرتين . قلت وانا اصر  
بأسناني : «اذهب يا فيدور فاسيليفيتش ، اذهب اذا كنت  
تريد السلامة» . وهو ايضا كان مسعورا من الغضب ، فهجم  
علي . اخذت وزنة من الحديد يستعملها في وزن القمح  
وناولته على يافوخه . . .

— قتلتها ؟  
— لا ، كان قويا . لم يفلس ولكنسه بقي مسمورا في  
السري .

— واثت ؟ وضعوك في الحبس ؟  
— لا ، لم تحزر ، لم يسمح بذلك . كان شيطاننا شرما  
شحيبا . اتهم ؟ كان يمسك الريح اكثر من اى شيء آخر .  
فاجبرني على العمل بلقيش . وشقيت كثيرا قبل ان يفلس .  
فلما فلس زوجتي هنا . ولما يلثوا ان ينقلوني الى سجن  
حقيشي .

انهى جملته الاخيرة في شبه افتخار .

— اليس خائفا ؟  
— وم خائف ؟ سامه رب .  
— والى اين تهرب ؟

— الحكاية بسيطة جدا . حينما يسوقونني الى الحبس  
امرب وانضم الى الفرسان الحمر . وادع معهم فنقطع بالسيرف  
رؤوس الكولاك كلهم والاغنياء .

— ولكن من يسمح لك بهذا ؟

— من يسمح لي به ؟ انا لى اطلب الاذن من احد . سأخذ  
سييفا مسنونا وانظ فوق حصان سريع وهات يا ضرب !

ووثب على قديمه ، وعيناه تشعان وهما وطلق يضرب  
الهواء بسيفه المتخيل ، مطلقا صيحات ما . وسالت :

— ومن هم هؤلاء الفرسان الحمر ؟  
فانقطع نفاة عن الحركة وحلق في كانما افلتت منى كلمة  
فاضحة البلاءة : وما هي الا دقائق حتى تيسر له ان يسير  
قاع جهل .

ان ما كان يعلمه اى ولد في مثل سنى لم يبرح منزله ،  
سواء على شاطئ بحيرة بايكال او في ابعد قرية على الفلغا ،  
كنت اجهله انسا ، الفجري الصغير الذى قطعت آلاف  
الكيلومترات . وللمرة الاولى علمت منه ما هي ثورة اكتوبر  
والعرب الاهلية والجيش الاحمر .

هذا بينما كنت قد رايت آثار المعارك القوية ، وشملت  
رائحة القرى التى شبت فيها الحرائق . . . رائحة الحرب  
الحادة ، واخيرا فقد سبق لي ان سمعت عدة مرات كلمة  
«حرب» . كل هذا صحيح . ولكنني كنت اتوهم ان «الحرب»  
حادث من نوع العاصفة او الاعصار .

وافهمتي احاديث صديقي الجديد ، الحاة ، المشوشة  
والعاجسية المتفجعة ، افهمتي على شكل جديد ما سبق لي ان  
رايته وعشتة .

فهمت ان الناس لا ينقسمون الى فخر وهم الابرار ، وكل  
الاخرين وهم الاشعار . اولم ار في مقيم بارو شيرو فجرا  
اشقيا ساقوا بآبناء جلدتهم ذاتهم الى الموت ؟ لقد رايت ناسا  
طيبين بين الاوكرانيين والروس ، منهم عمال المناجم الذين  
لم ييغلوا علينا قط بالصدقة حينما كنا نمر بارضهم التى  
سوكها الفم ، والسرعة التى اوشكت ان تعجزني على اخذ  
الكرنية . واخيرا هذا الفتي الاحمر الذى تنازل لي عن غذائه  
راخذ بيدي مشجعا في حنان . كل هؤلاء الناس الاجواد الذين  
لم يسألوني لقاء ما قدمت ايديهم من خير عوضا — لا ضرب  
متدل ، ولا غناء ، ولا رواية اكاذيب تثير الرثاء — كلهم فقراء .  
اذن فالعالم لا ينقسم الى شجر ولا غجر ، وانما الى اغنياء  
وفقراء . ولاول مرة في حياتي وعيت اخوة الفقراء . وكذلك

فهمت ان الفقراء قاروا على الاغنياء . ولكن هؤلاء لا يريدون ان يتزحزحوا عن سبلتهم فنهضوا لمحاربة الفقراء . ومهما يصنع الاغنياء فانهم لا محالة هالكون .

وبعد ذلك حينما اويت للنوم رحمت ان تصور المستقبل الرائع الذي سيكون للعجز اذا قبض للفقراء ان ينتصروا . رايتني اسرق فطيرة صغيرة فلا يضربني احد على يدي ، وربة البيت تبسم لي حنونا وتهددني باصبعها . لا احد يطرد العجز ، وايضا يحلوا يروا العفارة ، تقدم اليهم الاعطيات السخية ، وحتى اذا حدث وساق مخيم معه خيل الآخرين ، لم يلق الا مرحبة وطيبة وغفرا .

ولكن صديقي الاحمر الذي رويت له احلامي صباح اليوم التالي انفجر ضاحكا :

- يا لك من جاهل ، ان يسرق احد حينئذ احدا ، ستكون نحن السادة على الارض . فهل يسرق الانسان نفسه ؟ هذا الكلام كان غير واضح لي ، ولكن لم يتح لي ان استمع الى ايضاحات لان الباب فتح على مصراعيه . ظننت انهم حملوا اليها غذاءنا . لا ، لقد اقبلوا في طلب صديقي .

بُهِت . لم استشعر عمري مثل هذا الاقتباس الغريب في القلب . حينما فقدت جدتي كان الخوف على نفسي هو الذي يسد علي السبل . واما الآن . . . الان كنت اتعذب من اجل رفيقي . ولاول مرة عرفت ان حينا لحياة انسان آخر قد يكون اقوى من حينا لحياتنا نحن .

ووضع يديه الكبيرتين القويتين على كتفي :

- وهكذا يا اخي ، انا ذاهب ابحت عن حقيقتي . وانت اياك ان تستسلم ، قاوم ، عني على اسنانك وقاوم . ان حقيقتك انت آتية ايضا ، من كل يد . هيا وداعا . وانحنى واسند خده الى خدي .

لنت بالصلمت ، عاجزا ان اعبر عن العاطفة التي تملكنتني بهذه القوة غير المفهومة .

وكان قد اصبح قرب الباب حينما تذكرت الكثر الوحيد الذي اسلك - غليون بارو شيرو . هرغت اليه .

- هاك ، خذ 1

فصاح متعجبا وهو يتأمل الغليون مشغوقا :

- اوه ، اوه ، يا لها من سحنة !

- هذا بارو شيرو . . .

- آ . اذن فهو هكذا ، هذا الجيوب ! هذه تحفة قيمة تستطيع ان تبعيها اذا اصابك عسر . ستظفر حتما بتمن ممتاز .

- لا ، هذا لك . . . انا ، لك . . .

هكذا كنت اتنم وقد نصبت فجأة كل الكلمات الروسية التي اعرفها .

- لا ، ماذا تقول ! . . .

وصبغت وجهه الحمرة حتى غدا له لون شعره ، وقال :

- انا لا ادخن ، يا صغيري .

ثم اضاف هامسا :

- حسن ، شكرا يا اخي . . .

وفتش نفسه ، جس جيوبه املا عينا ان يقدم اليه هدية هو ايضا . وتهدد ثم اتسم ودس الغليون في جيبيه .

وصاح صوت كسول :

- ماذا ، سننتظر طويلا ؟

- وداعا يا اخي . . .

ورأيت لآخر مرة شعلة شعره الحمراء ، وصفق الباب وخيل الي ان ضوا انطلق في الجس .

تمددت على القش حيث لا يزال الاثر الغافر الذي صنعه جسده فيه دافئا ، واستسلمت لحزن جديد ، لم اعرف له مثيلا من قبل . . .

وغشت في القرية قرابة شهر اعمل ميأوما عند الرجل الذي وضعني في الجس . ولكنني لم انجح في ان اتسقط شيئا من اخبار صديقي . ثم ان امي عثرت علي قدصبت صحتي . . .

سأروى ، ذات يوم ، كيف وجدت الحقيقة التي كلدهني عليها القى الاحمر . لم اجدها انا وحدي بل قبيلتي المشردة كلها ، لم تسلك من اجل هذه الحقيقة مبيلا مستقيمة واحدة



بل مسالك المخيمات المتشابهة المختلطة، وغالبا ما كنا نتخطى في اثرتنا ذاته، هذا الأمر الذي لا يفضي الى شيء كما نعلم . كانت النيران الشاحبة المشعشة في السهب تضيء سبيلنا التي تمر بغايات وتقطع انهارا ، عبر آكام ووديان ، متحاشية المدن والقرى ، والضواحي ، وقد يظهر شجر فرادي في المدن والقرى ، ولكن المخيم كان يتحاشاها جميعا . ومع ذلك ، فان النور العظيم الذي اضاء البلاد السوفيتية كلها لم يدعنا نتحاشى حقيقةنا .

وجدناها في قلب مقاطعة سمولنسك ، في اول مزرعة تعاونية غجرية . وساقص عليكم كيف ولد عند العجر حس الوطن ، حس المكان والادراك بأن الارض التي وطئناها طوال سنين عديدة باقدامنا وخذناها بعجلات عرباتنا دون ان نبالي بها ، انما هي المنطقة الساقية ، ينوع الحياة والسعادة .

في ذلك الحين لم تكن حياتي تختلف في شيء عن حياة اي فتى قروري . انهيت دراستي في المدرسة الابتدائية ، وقد اوفدتني المزرعة ، وما اظهرته من استعداد للتمثيل . الى مدرسة درامية ، كما كانت توجد الرفاق الذين هم في سنن لي لي يصبحوا مهندسين زراعيين واطباء وخبراء في الحيوانات واطباء بيطريين .

وعشية الحرب كنت قد اصبحت ممثلا في احد مسارح العاصمة وفي نيسان ١٩٤٢ ، العهد الذي اعود الى سرد قصتي ابتداء منه ، كنت في وقبة وقيب اول في طاقم رشاشات .

كانت وحدتنا تشغل خطا دفاعيا على ضفة نهر كبير في الضبال ، وكانت ورائنا مدينة الثورة العظمى \* وامامنا جزيرة صغيرة يحتلها العدو .

واطلقنا على هذه القطعة من اليابسة التي تبدو وكأنها لحمت بالجليد لحمدا ، اسم «جزيرة الشميطان» وسماها

\* المقصود هنا نهر نيقا ومدينة لينينجراد - المحارب .

خمسنا «المعلونة» ، وكانت هذه الجزيرة تضايقتا جدا ، لان نارها لم تكن تنال خطنا الامامي وحده بل الغطوط الخلفية القريبة ايضا ، وكانت سببا في انقطاع مطرد يصيب مؤننا وذخائرنا بين حين وآخر ، وفشلت محاولتان قمتا بهما لرحلة الهلريين عنها . وعرفنا ، فيما بعد ، سبب هذا الصمود . كانت القيادة الالمانية تعطى الجنود ، الذين يشغلون البقاء على هذه الجزيرة خمسة عشر يوما على التوالي ، اجازة اضافية يقضونها في الوطن . وكان الاقلون هم الذين يظفرون بهذه الاجازة ، غير ان الامل يقوى من قلوب الجنود . . .

كنا ننتظر امرا جديدا لانتزاع الجزيرة . ولم تكن القيادة على عجل من امرها اذ فسدت تكليس الفخار . واخيرا اؤف الموعد . خلال ساعتين كاملتين كنت ترى نافورات الثلج والتراب وقطع القرميد المكسر ، وحطام الخشب والبعدن تتطاير فوق الجزيرة . ولكن ، ما ان وضعنا اقدامنا على الجليد حتى استقبلنا العدو بنار من نيران الجحيم . وعلى الرغم من هذا ، فقد انتزعنا ، هذه المرة ، «جزيرة التسيطان» ، مهاجمين .

ومنح كثير من الجنود والضباط الذين اشتركوا في هذه المعارك اوسمة وميداليات .

وقد جرت حفلة توزيع الاوسمة في قبة نكفة قديمة اتخذها اركان فرقنا مقرا ، هناك رايت ، للمرة الاولى عن قرب بعض قادتنا الكبار ومن بينهم قائد مدفعية الجبهة ، الجنرال المبيد (ي) الذي اعرب لنا عن عرفانه فادركنا ان ما فعلناه كان مهما لا من اجل وحدتنا وحدها ، وكتيبتنا وفرقتنا بل من اجل الجبهة كلها ، من اجل المدينة العظيمة . لما انهى الجنرال (ي) خطابه انتحى جانبا واخرج من جيبه غليوننا وخشاه ، وهو يجهد التبعج بايهامه على مهل ثم اشعله في تلذذ وثقت في القضاء سخابة صغيرة زرقاء ومع ارتفاع هذه السحابة انطلقت نكسة حالمة .

كانت طلوتني الرعبية ، المهانة البائسة ، الغالية مع

ذلك ، تنظر اليه بعيني بارو شيرو الاسطوريين ، كان الجنرال (ي) يمسك غليون بارو شيرو ، غليونى الذى كنت اهديته للفتى الاحمر . كنت على يقين من انه لا يوجد فى العالم كله غليون آخر ، ضيقه بهذا . كان طرفه فريدة صنعتها يد فنان ، بناء على طلب من رئيس مخيم اللاجئين الذى اراد تخليد وجهه الغريب الغربى .

ولكن كيف وقع هذا الغليون بين يدي الجنرال ؟ كنت احقق فيه تحديقا ملحا . كانت عمرة الجنرال . تسبع رؤية فوديه الفضيين ، اما صورته الجانبية التى تبدو كأنها نقشت على ميدالية ، فلا تشبه الفتى الذى صادفته فى طفولتي ولا سيما ان بشرة وجهه التى لوحتها شمس الشتاء وريجه كانت نظيفة تماما . وقد يكون الزمان قادرا على تبديل الملامح واحالة لون الشعر ، ولكنه اعجز من ان يطفى الى هذا الحد الوان هذا الوجه الفريد فى نوعه ! قيمت بطلان فرضياتي جميعا : اى صلة بين هذا الجنرال المشهور وذلك العامل الزراعى الذى اعطاني فى سجن الفرية كسرة من الخبز ووعاء من اللبن الحامض ؟ ولكن هذا كله لم يخفف من رغبتي فى معرفة السبيل التى سلكها الغليون حتى وقع فى يد الجنرال . واخسست ، فى قوة جديدة ، الى اى حد يعجز علي هذا الصديق البعيد الذى كان اول من كنت فى عن طيبة العالم الاوسع واضاء رومي الطفولية بحلم عن الحقيقة الإنسانية الكبيرة . هذا الغليون قد يتيح لى ان اعلم ما جرى له ؟ ولكن هل كنت امسطيع ، انا الرقيب الاول ، ان اسأل جنرالا : « يا هذا الرفيق الجنرال ، من اين لك هذا الغليون ؟ » .

لما عدت الى وحدتي لاحظت رفاقي علي امارات الفكر ، وكما يحدث فى مثل هذه الاسواق ، طفقوا يتكهنون شتى انواع التكهنات حولي . وسألنى الملامم غريستنسكو ، قائد فصيلتنا ، متطلعا :

— قيم انت حزين يا ريفي ، لماذا انت كئيب ؟

سبق لى ، ذات ليلة من ليالى لينينغراد البيضاء ، ان

رويت لرفاقي قصة طفولتي المتشردة ، وهكذا لم يكلفنى شرح حالى لقائى كثيرا من الكلام . قال غريستنسكو :

— المسألة جدية . يجب ان ترى الجنرال ، لا تهز رأسك . ساهيى لك ذلك بنفسى .

لسم يواننى الحظ ، فقد ترك الجنرال (ي) ، فى نفس الليلة ، الفرقة . ثم دارت رحى معارك قاسية وظننت انى لن اعلم شيئا عن مصير الغليون ابدا . ولكن ذات يوم ، وقد كفت عن الانتظار ، هرع غريستنسكو الى مخبئي وقال لى :

— استعد يا ناروجنى . سنذهب لمقابلة الرفيق الجنرال . لقد دبر لنا مرافقه ذلك . . .

— كيف هذا ، جالا ؟

هكذا سألته مرثعا . لم اكن اتصور ان اتقدم من الجنرال فى هذا الهدام . كنا قد خرجنا لتوتا من معركة وكنت اهد الناس عن الاناقة . . .

ونظر غريستنسكو فى ساعته :

— سيكون اللقاء فى الساعة السابعة عشرة تماما ، معك ساعة تقريبا .

وساعدنى رفاقي فى اصلاح شائى . احضرنا ثلجا نفلنا به بنطلون وسترة واحد منا كانا اقل رثانة ، وتركناهما بطان على النار بينما رحت احلق ذقنى واصبغ جزمى . ثم وضعت بطانة ياقة نظيفة ولبست ثيابى وهى لا تزال رطبة . وثبت غريستنسكو بنفسه وسام « النجمة الحمراء » على صدرى . كان الجنرال (ي) يجلس على مقعد امام منضدة ريفية غاصة بالخراثل والاوراق ، وقرا فى كتاب . كنت ادى الفراق الدقيق الذى يفصل بين الجانب شمعه الابيض المسحوق وفى يده اليسرى كان الغليون معلقا ، وبدا كأن عيني بارو شيرو الصغيرتين تحاولان ان تفك رموز الاشارات المصطاحفة فى الخريطة العسكرية التى تستريح عليها يد الجنرال .

بدا لى اننى ارتكبت اثما بتعكير هدوء هذا الانسان

ورمائي الجنرال بنظرة جديدة . سددها الي<sup>٢</sup> كما يسدد  
قناص على الهدف .

- منذ زمان بعيد ، قدم الي<sup>٣</sup> عجرى صغير مسكين هذا  
الغليون حديثة . . .

- قرب تشوباروقسكايا . . . في حيس القرية . . .  
أصابني مما يشبه الدوار . وقمت بخطوة الى الاعمام  
بصورة غريزية .

وان<sup>٤</sup> المعضد - ونهض الجنرال بعدة وراء منضدته .  
غاض الدم من وجهه فكانما أخذ معه طبقة السمرة البنية ،  
لفظيرت على بشرته الشاحبة يتسح المنمش الصغيرة الحمراء  
واضحة بيضاء .

وهتف الجنرال :

- يا اخي . . .

السادر ، وفي صوت خافت تغير واثق جعلت انطلق بالمباراة  
العسكرية التقليدية . وانطلق الجنرال كتابه ووضع جانبا :  
قال وهو يمدس يده في جيبه ، في حركة معتادة ، ليخرج  
كيس التبغ :

- ابسط امرك ايها الرفيق الرقيب الاول .

كنت ارقب حركاته مأثوذا . لاحظت ان طرف الغليون  
كان جديدا . لا بد ان هذا الغليون عانى الكثير ولكنسه  
بعامة ، معتنى به ، كان في حال حسنة جدا وحوافيه ناعمة  
لم يقرضها التبغ . ونفخ الجنرال الغليون ونفضه قبل ان  
يشعله . ثم قدح قداحته وغب البخان عميقا .

- هيا ، ما بالك . . . ماذا تنتظر ؟

تخلل صوته اللامبالى نوع من نقاد الصبر .

كنت اقتبس عن الكلمات حتى احبب سؤالى شكلا وقيما  
مهذبا ، ولكننى لم اجد شيئا فقلت في لوجبة ادهشتنى انا  
نفسى :

- ايها الرفيق الجنرال ، من اين اتاك هذا الغليون ؟  
ورفع رموحه البيضاء ذات النهايات الضاربة الى الصفرة  
واشرج الغليون من فمه . كنت احس ، من الطريقة التى  
ينظر الي<sup>٥</sup> بها ، انه يفتش عنى في ذاكرته لكي يكشف عن  
السبب في سؤالى الغريب . ولكن يبدو ان جهوده كانت  
عبثا . واطفا غليونه بايهامة الخشنة وقال لى في لهجة لا  
تخلو من جفاف :

- ولكن لماذا تريد ان تعرف ذلك ؟

لذت بالصلمت اذ اصبحت عاجزا فجأة امام اللغز الذى  
طرحته علي<sup>٦</sup> الحياة . ولما لم يسمح مئى جوابا ، وحتى دون  
ان يلاحظ ذلك ، مضى يتأمل الغليون بهذه النظرة التى ينظر  
بها الانسان الى اشياؤه الاليفة التى تنفى في طياتها حدة  
الذكريات البعيدة وقال ، مفكرا ، كأنه يتحدث الى نفسه :

- لهذا الغليون قصة طويلة . . .

ورددت انا مثل الصدى :

- اجل . . . اجل . . . قصة طويلة . . .





## البوطة الشتوية

طمس الثلج الذي سقط ليلاً معالم الدرب الضيق المؤدى من «أوفاروفكا» إلى المدرسة ، فلم يعد من الممكن تخمين اتجاهه إلا بالظل الضعيف المتقطع على الغطاء الثلجي الباهر . وسارت المدرسة تنقل بحذر قدميها ذات الحذاء الصغير المحلى بالفراء وهي على استعداد لسحبها على التو إذا ما خدعها الثلج .

كانت المسافة إلى المدرسة لا تزيد على نصف كيلومتر ، فاكثفت المدرسة بالقاء معطفها الفرو القصير على كتفيها ، وغطت رأسها بمندبل صوفى خفيف . وكان الصقيع شديداً ، وعلاوة على ذلك هبت الريح وراحت تنزع الثلج الطازج من فوق الأرض وتهيله عليها من رأسها إلى قدميها . بيد أن هذا كله كان يعجب المدرسة ذات الأربع والعشرين عاماً . كان يعجبها أن الصقيع يقرص أنفها وخديها ، وأن الريح تنفذ إلى ما تحت معطفها فتلسع جسدها ببرودتها .

وحينها كانت تدبر وجهها لتتقى الريح ترى خلفها الأنار الكثيرة لعدائها المديب ، التي تشبه آثار حيوان ما ، فكان هذا أيضاً يعجبها .

كان هذا اليوم المنعش العام بالضوء من أيام يناير يرتبط فيها الأفكار البهيجة عن الحياة وعن النفس . لقد جاءت إلى هنا منذ عامين فقط بعد التخرج مباشرة ، وعلى الفور اكتسبت شهرة المدرس الماهر الخبير للغة الروسية ، وأصبحت معروفة وتحظى بالتقدير في كل مكان . . . في أوفاروفكا وفي كوزمينكي وفي تشورني يار وفي بلدة عمال استخراج الفحم النباتي وفي مزرعة الغيول ، وكانوا يخاطبونها احتراماً باسمها واسم أبيها : آنا فاسيليفنا .

من الاتجاه المقابل سار نحوها شخص عبر الحقل . . . وتكرت آنا فاسيليفنا برهة مرحة : «ماذا لو لم يشأ أن يسبح لي الطريق ؟ الدرب لا يتسنع لائنين ، ولو خطوت جانباً فسأغوص في الثلج فوراً . ولكنها كانت تعرف بينها وبين نفسها أنه لا يوجد في الناحية كلها شخص يمكنه ألا يسبح الطريق لمدرسة أوفاروفكا .

وتعاضداً ، كان ذلك فرولوف ، المراقب بمزرعة الغيول . ورفق فرولوف عبرته فوق رأس قوى قصير الشعر رجياً :

- صباح الخير يا آنا فاسيليفنا !

- دعك من هذا ، البس عذركك حالا ، الصقيع شديد ! وربما كان فرولوف نفسه يريد أن يدفن رأسه في عبرته بسرعة ، لكنني تباطأ الآن عداً ، وربة منه في أن يظهر لها أنه لا يابه بالصقيع . وكان معطفه القصير من فرو الغراف مشدوداً جيداً على جسده الممشوق الخفيف ، وفي يده سوط رقيق أشبه بضعبان ، كان يضرب به على خذائفة اللباد الأبيض ، المثنى تحت الركبتين .

وسألها فرولوف باحترام :

- كيف ابني ليوشا . . . ألا يتساقى ؟

فأجابت آنا فاسيليفنا برعى منها : لغيرتها التزويوة :

— طبعاً يتشاقى . جميع الاولاد الطبيعيين يتشاقون .  
المهم الا يتجاوز ذلك الحدود .

وضحك فرولوف ضحكة قصيرة :

— ليوشا ابني ودع ، مثل ابيه تماماً !

وتنحى عن الطريق ، فخاص فى الثلج حتى ركبتيه ،  
وأصبحت قامته بطول قامته تلميذ فى الصف الخامس ،  
وأومات له آنا فاسيليفنا بتسامح ، وعضبت فى طريقها . . .  
كان مبنى المدرسة ذو الطابقين والنوافذ العريضة التى  
زخرف الجليد زجاجها يقع قرب طريق الميادان ، خلف  
سور منخفض . وكان الثلج من المبنى حتى الطريق متورداً  
يفعل انعكاسات الجدران الحمراء . وقد شيدت المدرسة على  
الطريق بعيداً قليلاً عن أوفاروفكا لأن التلاميذ كانوا يأتونها  
من الناحية كلها : من القرى المجاورة . ومن بلدة مزرعة  
الخيول ، ومن مصنع عمال النقط ، ومن بلدة عمال استخراج  
الفحم النباتى البعيدة . والآن تتقاطر نحو بوابة المدرسة من  
كلا جانبي الطريق جداول صغيرة من القلنسوات ومناديل  
الرأس والمعرات والطواقى والبرانس .

— مرحباً يا آنا فاسيليفنا .

كانت هذه التحية تتردد كل فانية ، قارة رقاعة واضحة ،  
وتارة مكتومة لا تكاد تسمع من تحت التلابع والمناديل  
المملوغة حتى الامين .

وكان الدرس الاول اليوم لآنا فاسيليفنا فى الصف  
الخامس الاول . وقبيل ان يسكت الجرس القاقب الرزين  
معلناً بداية الدروس دخلت آنا فاسيليفنا الصف . ونهض  
التلاميذ معاً وحيوها ، ثم جلسوا فى أماكنهم . ولم يستتب  
السنكون على الفور ، إذ صلفت ادراج المقاعد وصرت  
الأرائك ، وزفر أحدهم بصوت عال ، وهو يودع ، فيما  
يبدو ، مزاج الصياح الضايق .

— اليوم سنواصل شرح أقسام الكلام . . .

سكن الصف حتى يات مسموعاً صوت ساحة ثقيلة  
ترحف على الطريق وعجلاتها تدور على الفاض ،

وتذكرت آنا فاسيليفنا كيف تملكها الاضطراب قبل  
الدرس الاول فى العام الماضى مثل تلميذة قبيل الامتحان ،  
وراحت تردد فى مزمارها : « الاسم هو ذلك القسم من اقسام  
الكلام . . . الاسم هو ذلك القسم من اقسام الكلام . . . »  
كما تذكرت ذلك الخوف المضحك الذى عذبها : وماذا لو  
انهم لم يفهموا مع ذلك ؟ . . .

استبست آنا فاسيليفنا لتذكراتها ، وسمرت الدبوس فى  
حزمة شعرها القصيلة ، وبدأت تقول بصوت هادئ منتظم ،  
وهى تشعر بهدوئها وكأنه الدف ينساب فى جسدها كله :  
— الاسم هو ذلك القسم من اقسام الكلام الذى يدل  
على ذات . والذات فى النحوى ما يمكن السؤال عنه : ما  
هذا او من هذا . مثلاً : « من هذا ؟ » — « تلميذة » او « ما  
هذا ؟ » — « كتاب » . . .

— ممكن ادخل ؟

فى الباب الموارب وقف صبي صغير ، فى خدام لباد  
قديم لعت عليه حبات الجليد الذائبة . كان وجهه المستدير  
الذى اليه الصقيع يشتعل بالحمرة ، كأنما طلي بالبنجر ،  
بينما بدا حاجباه اشبيين تحت النظرات المتعجدة البيضاء .

— مرة ثانية تتأخر يا سافوشكين ؟

كانت آنا فاسيليفنا ، كمعظم المدرسات الشابات ،  
تفضل أن تبدو صاروخية ، لكن سرها تردد الآن كشكاية  
تقريباً . . .

اعتبر سافوشكين سؤال المدرسة اذياً بدخول الصف  
فاسرع يرق الى مكانه . وراحت آنا فاسيليفنا الضيق وهو  
يدس كيسه المصنوع فى الدرج ويسأل جارة عن شئ ما دون  
ان يحول وجهه نحوه ، لا يدانه يسأل : ماذا تشرح المدرسة ؟  
استأنت آنا فاسيليفنا من تأخر سافوشكين كحدث  
مزعج أفسد عليها النهار الذى بدأ بدايةً هوفقة . وكانت  
مدرسة الجغرافيا ، تلك العجوز الصغيرة الجافة الشبيهة  
بغراشة ليلية ، قد اشتكت اليهسا من تأخر سافوشكين .  
وعموماً فقد كانت كثيرة الشكوى ، قارة من الضغب فى

الصف ، وتارة من عدم انتباه التلاميذ . وقالت العجوز متنبهة : «ما أصعب دروس الصباح الأولى !» فقالت آنا فاسيليفنا آنذاك في سرها بقية في النفس : «نعم ، صعبة على من لا يعرف كيف يسيطر على التلاميذ ويجعل الدرس شيئا ، واقترحت عليها أن تتبألا مواعيد الدروس . وهامى الآن تشعر بنفسها مذبذبة في حق العجوز التي كانت نافذة البصيرة بما يكفي لكي لا ترى في عرض آنا فاسيليفنا المذهب تحديا أو تأنيبا .

وقالت آنا فاسيليفنا مخاطبة التلاميذ :

« كل شيء مفهوم ؟ »

فاجاب الاطفال في صوت واحد :

« مفهوم . . . مفهوم . . . »

« حسنا ، إذن هاتوا امثلة . »

ساد سكوت مطبق لبضع ثوان ، ثم قال احدهم بشيرة غير واثقة :

« قطة . »

« صح . »

قالت آنا فاسيليفنا وتذكرت على الفور انه في العام الماضي ايضا كانت «القطة» اول مثال يذكر . وهنا تدفقوا كالطوفان :

« نافذة ! طاولة ! منزل ! طريق ! »

وراحت آنا فاسيليفنا تردد : صح ، صح . . .

كان الصف يعوز بالفرح . وادهمت آنا فاسيليفنا تلك الفرحة التي كان الاطفال يذكرون بها اسماء الاشياء المعروفة لديهم . وكانها يتعرفون عليها في دلالتها الجديدة غير العادية . وراحت دائرة الامثلة تتسع ، لكن الاولاد ظلوا في الدقائق الاولى لا يخرجون عن نطاق الاشياء الاكثر قربا وملاءمة : عجلة . . جرار . . بشر . . عش . . .

ومن المقعد الخلفي ، حيث يجلس فاسياتكا البدين تردد صوت رقيق لحوح :

« مسمار . . مسمار . . مسمار . . »

وهو هو احدهم يقرل بصوت متردد :

« مدينة . »

فأمنت آنا فاسيليفنا مستحسنة :

« مدينة . . هذا حسن ! »

وعلى الفور تدافعت سيجات :

« شارع . . مترو . . ترام . . فيلم . . . »

فقالت آنا فاسيليفنا :

« كفى ، ارى انكم فهمتم . »

سكنت الأصوات عن غير رغبة ، ما عدا فاسياتكا البدين ، فقد ظل يدمدم «مسماره» الذي لم يحط بالقبول . وفجأة غص سافوشكين من مقعده ، وكانما يستيقظ من النوم ، وصاح بصوت رنان :

« بلوطة شتوية ! »

وضحك الاطفال .

فدقت آنا فاسيليفنا براحتها على الطاولة قائلة :

« صمتا ! »

« بلوطة شتوية ! »

ردد سافوشكين وهو لا يلاحظ ضحك رفاقه او صيحة المدرسة . قال ذلك بلهجة مختلفة عن لهجة الاولاد الآخرين . انطلقت الكلمات من قلبه كاعتراف ، كسر بهيج لم يكن قلبه المتربع قادرا على كتمانها .

وقالت آنا فاسيليفنا بانزعاج لم تقو على اخفائه وهي لا تدرك سبب انفعاله الغريب :

« ولماذا شتوية ؟ بلوطة وكفى . »

« بلوطة وكفى - لا شيء ! البلوطة الشتوية - هذا هو الاسم ! »

« اجلس يا سافوشكين ، هذه نتيجة التأخير . «البلوطة» اسم ، اما «الشتوية» فهذا ما لم ندرسه بعد . تفضل بالمصروف علي في غرفة المدرسين انشاء الفسحة الكبيرة . »

وضحك احدهم في المقعد الخلفي ضحكة خافتة وقال :



- تلك هي البلوطة الثبوتية !

وجلس سافوشكين وهو يتسهم لأفكار ما طالت بذهنه دون أن تؤثر فيه أبدا كلمات المدرسة المتوعدة ، وفكرت أننا فاسيلييفنا في نفسها : «صبي صعب» .

واستمر الدرس .

- اجلس . . - قالت آنا فاسيلييفنا لسافوشكين

عندما دخل غرفة المدرسين .

وجلس الصبي باستمتاع في المقعد اللين واهتم عدة مرات على زنبير كاته .

- هلا أوضحت لي لماذا تتأخر دائما ؟

- أنا نفسي لا أعرف يا آنا فاسيلييفنا - وباعد بين يديه كما يفضل الكبار - انني اخرج قبل الدرس بساعة كاملة .

ما أصعب الوصول الى الحقيقة في اتفه الأمور ! كثير من الاولاد يسكنون أبعد كثيرا من سافوشكين ، ومع ذلك لا يتفق أي منهم أكثر من ساعة في الطريق .

- هل تسكن في كوزميتسكي ؟

- لا ، بجوار المصحف .

- ثم لا تجعل من أن تقول أنك تخرج قبل الموعد بساعة ؟ من المصحف الى طريق السيارات حوالي خمس عشرة دقيقة ، ومن الطريق الى المدرسة نصف ساعة لا أكثر .

قال سافوشكين بليهة من أدهشته هذه المسألة :

- أنا لا أسير عبر طريق السيارات . أنا اتبع طريقا

مختصرا ، عبر الغابة طرألي .

فصيحته آنا فاسيلييفنا بحكم العادة :

- «على طول» وليس «طوال» .

شعرت بالاضطراب والأسى كما هي الحال دائما عندما تواجه يكذب الأطفال . ولزمت الصمت مؤملة أن يقول سافوشكين : «سامحيني يا آنا فاسيلييفنا ، استغفرت في اللعب بكرات الثلج مع الأولاد» أو شيئا من هذا القبيل ، بسيطا ، لا مكر فيه . لكنه ظل يتطلع اليها بعينين رماديتين

واسعيتين ، وكأنها نظرتة تقول : «ها قد استوضحنا الأمور ، لماذا تريدان بعد مني ؟»

- هذا مؤسف يا سافوشكين ، مؤسف جدا ! سيكون علي أن اتحدث مع والدك .

فقال سافوشكين مبتسما :

- ليس عندي سوى أمي يا آنا فاسيلييفنا .

احمر وجه آنا فاسيلييفنا قليلا : وتذكرت أم سافوشكين ، «منظفة الحمامات» كما كان يدعوها ابنها . كانت تعمل في مستوصف المياه المعدنية التابع للمصحف ، امرأة نحيلة ، مرهقة ، بيدين يضاووين وروخوتين من أثر المياه الساخنة وكانهما من قماش ، كانت وحدها ، بدون زوجها الذي استشهد في الحرب الوطنية ، تربى وتقول ثلاثة أطفال غير كوليا \* .

الواضح أن لدى أم سافوشكين ما يكفي من اليوم .

- سيكون علي أن اذهب الى والدك .

- تعالي يا آنا فاسيلييفنا ، ستكون أمي مسرورة جدا !

- للأسف ليس لدي ما يسرها . هل أمك تعمل صباحا ؟

- كلا ، تعمل في الوردية الثانية ، من الساعة الثالثة .

- عظيم . أنا أفرغ في الثانية ، بعد الدروس تصحبني

اليها . . .

كان الدرب الذي قاد سافوشكين المدرسة عبره يبدأ بعد فناء المدرسة الخلف مباشرة . وما أن دلفا الى الغابة والثامات أغصان الشوح الثقيلة المحملة بالثلج خلف ظهريهما ، حتى انتقلا على الفور الى عالم آخر مسحور تلهف السكينة والعميمت . كانت طيسور المتقن والغريان وهي تقليم من شجرة الى شجرة تهز الغصون وتطيح بالاكواز ، وأحيانا تنس باجنحتها الغصون الجافة الهشة فتكسرها . ولكن شيئا لم يكن يلد الأصوات هنا .

\* كوليا «تدليل من الاسم الكامل : نيكولاي ، وهو اسم الصبي ، أما سافوشكين فهو لقبه ، والعرب .

كان اليباض يكسو كل شيء . وفى الأعلى فحسب يحيط  
السواد بقمم البتولا الباكية الشاهقة التى تلغىها الريح ،  
وتبدو انفسهم الدقيقة وكأنها مرسومة بالجبر الضمى على  
صفحة السماء الزرقاء .

كان الدرب يسير بعيداً غدير ، تارة موازياً له ، ومتابعا  
فى انصياع جميع تعرجات المجرى ، وتارة أخرى يصعد عالياً  
ويمضى ملتوياً فوق الجرف الحاد .

وكانت الأشجار تنفجر أحيانا ، كاشفة عن فسحات  
مشجسة موحدة تملؤها آثار الأرائب التى تشبه سلسلة  
ساعة . وظهرت آثار كبيرة ، على صورة ثلاث وريقات ،  
لحيوان ما كبير الحجم . وكانت الآثار تتجه الى قلب الغابة ،  
إلى الدقل الكثيف .

- أبو القرون من من هنا . . . - قال سافوشكين  
وكانما يتحدث عن صديق طيب عندما رأى آثا فاسيليفنا  
تهتم بهذه الآثار . وأضاف رداً على نظرة المدرسة نحو  
أعماق الغابة - لا تخافى ، الأيل حيوان وديع .

وسأله آثا فاسيليفنا بعصاة :

- وهل رأيته ؟

- الأيل نفسه ؟ حيا ؟ - وتهد سافوشكين - لا ، لم  
تسنع فرصة . لكنى رأيت جوزه .

- ماذا ؟

- بعزه . . . - قال سافوشكين على استحياء .

ومرقت الدرب من تحت قوس صنفاعة موشية ، وانحدر  
من جديد نحو الغدير . وفى بعض الأماكن كان الغدير مغطى  
بلحاف تلجى سميك ، وفى أماكن أخرى متمشعا بدرج جلدية  
ثقيلة ، وأحيانا وسط الجليد والتلج كانت تحدد المياه الحية  
بعين قائمة شريفة .

وسألت آثا فاسيليفنا :

- ولماذا لم يتجدد كله ؟

- لأن فيه يتابع دافئة . انظرى ، اثرتين هذه الثناورة ؟  
انحنى آثا فاسيليفنا فوق الحفرة فرأت حيطا دقيقا

بتصاعد ممتدا من القاع ، وقيل ان يصل إلى سطح المياه  
يتغير قطاعات صغيرة . وكانت هذه الساق الدقيقة ذات  
القطاعات أشبه برجزة سوسن الوادي .

وقال سافوشكين بتحمس :

- ما أكثر هذه النباتات هنا ! الغدير حتى تحت  
التلج .

وأزاح الثلج فظهرت من تحته مياه سوداء كالكطران  
ولكنها صافية شفافة .

ولاحظت آثا فاسيليفنا ان الثلج اذ يسقط فى الماء  
لا يذوب ، بل يتكاثف بسرعة ، ويتعلق فى الماء خيوطا  
خضراء رخوة كالأعشاب المائية . وأعجبها ذلك لدرجة انها  
راحت تهيل الثلج فى الماء بطرف جذائها وتقرح عندما تتشكل  
من كتلة تلج كبيرة أشكال غريبة التكوين . واستوترتها  
اللعبة فلم تلاحظ على الفور ان سافوشكين سبقها مبتعدا ،  
وجلس ينتظرهما فوق غصن متفرع عال مدلى فوق الغدير .  
ولحقت آثا فاسيليفنا بسافوشكين . فى هذا المكان تلاشى  
تأثير النباتات الدافئة ، فكان الغدير مغطى كله بغشا جلدي  
رقيق وعلى سطحه الممرى تراقصت ظلال خفيفة سريعة .  
- انظر ، ما أرق الجليد هنا ، حتى ان التيار يظهر .  
- ماذا تقولين يا آثا فاسيليفنا ! أنا الذى حركت

الغصن فتراقصت الظلال .

ولم تحر آثا فاسيليفنا جوابا . يبدو أنه من الأفضل  
لها هنا ، فى الغابة ، ان تلزم الصمت .

وعاد سافوشكين يسير أمام المدرسة متحميا قليلا وهو  
ينفخ المكان حوله بانتباه .

وراحت الغابة تتقدمها أبعد ناعدا عبر طرقها المعقدة  
الملتوية . وبدا انه ان تكون هناك نهاية لهذه الاستجار  
وعده الاكوام الثلجية ، وهذا السكون ، وهذا العسق الذى  
تتخلله أضعة الشمس .

وعلى غير انتظار ضوت عن بعد فرجة زرقاء دخانية .  
وحلت غابة خفيفة محل الغيضة ، واصبح المكان رجا ومنعشا .

فضحك سافوشكين قائلا :

- تتظاهر بأنها ميتة . ولكن ما أن تدفنها الشمس حتى تهب فائزة !

وهضى بجول بآنا فاسيليفنا في عالمه الصغير . وكانت قاعدة البلوطة مأوى لكثير من السكان الآخرين : الخنافس والأبراص والهوام . كان بعضها يستخبئ تحت الجذور ، والبعض الآخر ينشمر في شقوق اللحاء . وكانت تغالب الشتاء في سبات عميق وقد هزلت حتى بدت وكأنها خاوية من الداخل . كانت هذه الشجرة القوية المتوترة بالحياة تجمع حولها كل هذا النقص الحي . حتى أن الدواب المسكينة ما كانت لتجد لنفسها مسكنا أفضل . وكانت آنا فاسيليفنا تجيل النظر باهتمام فرح في الحياة الخفية للغابة ، المجهولة لها حينما سمعت هتاف سافوشكين المنفعل :

- أوه ، تأخرنا ولن نجد ماما في البيت !

واسرعت آنا فاسيليفنا بالنظر في ساعتها . . . كانت الساعة الثالثة والرابع . وحاست وكأنها وقعت في فقع . وسالت في سرها البلوطة أن تغفر لها لجهوها إلى تغابت انساني صغير وقالت :

- هكذا يا سافوشكين ، إن هذا لا يعنسى سوى أن الطريق للتصير ليس يعد هو أسلم الطرق ، سيكون عليك أن تسير عبر طريق السيارات .

ولم يرد سافوشكين بشيء بل اطرق رأسه قتل . «يا إلهي - فكرت آنا فاسيليفنا بعد ذلك بالأم - أهناك اعتراف بالمعجز أوضح من ذلك ؟» . وتذكرت درس اليوم وجميع دروسها الأخرى . . كم كانت تتحدث بفقر وجفاف ویرودة عن الكلمة ، عن اللغة ، عن ذلك الذي يدونه يصبح الإنسان أحرس أمام العالم وعاجزا عن الاحساس - عن لغة الوطن ، الطازجة ، الجميلة ، الغنية كغنى الحياة وجمالها . وكانت تعتبر نفسها مدرسة ماهرة ! ربما لم تخط خطوة واحدة على ذلك الدرب الذي لا تكفيه حياة انسان كاملة . ثم أين هو هذا الدرب ؟ ليس العثور عليه سهلا ولا بسيطا

وها هي الفرجة تصبح في الأمام فتحة عريضة غارقة في ضوء الشمس ، ولتح هناك شيء ما وبرق ناشرا نجوما جليدية : دار الدرب ملتفا حول خييلة يتدق ، ويعدما على القوار ترجعت اشجار الغابة في جميع الاتجاه . وفي وسط الشمس انتصبت بلوطة ضخمة وهيئة كالعبد ، في ثياب بيضاء يراثة . وبدا كأن الاشجار ترجعت في احترام ، لكي تمكن شقيقتها الكبرى من الانطلاق بكل قواها . وامتدت عضونها السفلية فوق الشمس كالخيمة . وامتلات تجاعيد لعانها العميقة بالثلج ، فبدا جذعها الغليظ الذي يبلغ محيطه ثلاثة ابراع ، وكأنها قد غيظ بخيوط فضية . ولم تكن اوراقها التي جثت في الخريف قد تساقطت تقريبا ، فتغطت البلوطة حتى قممها بأوراق مغلقة بالثلج .

- إذن فما هي ذي البلوطة الشتوية !

تقدمت آنا فاسيليفنا بوجل نحو البلوطة ، فهو حارس الغابة الجبار السمح احد قصوره هزأ خفيفا مرحبا بها . لم يكن سافوشكين يدرى بما يجيش في نفس المدرسة وهو يسعى هناك أسفل البلوطة ، ويتعامل دون كلفة مع صديقه القديم .

- انظري يا آنا فاسيليفنا !

ونزع بجهد كتلة لحيية ملتصقة من أسفلها بالطين وببقايا عشب متحلل . وهناك في الحفرة استقرت كرة مغطاة بأوراق شجر عطنة ، رقيقة كخيوط العنكبوت ، وأطلت من بين الأوراق أطراف إبر حادة ، فادركت آنا فاسيليفنا أن ذلك قنفذ .

- انظر كيف تغطي !

وغطى سافوشكين القنفذ بلحافه البسيط بعناية . ثم حفر الثلج عند جذر آخر ، فظهرت مفاراة صغيرة للغاية تتدلى من سقفها خيوط جليدية كالهداب . وهناك استقرت ضفدعة بنية اللون ، كأنها صنعت من الكرتون ، وبدا جلدها المشدود بقسوة على هيكلها وكأنه مطلي بالثلك . ولمس سافوشكين الضفدعة فلم تحرك ساكنا .



كالعثور على مفتاح الصندوق المسخور . ولكنهما في تلك الفرحة غير المفهومة لها ، والتي كان الأزلاد يصيحون بها كلمات «جرار» ، «بئر» ، «عش» لمحت بصورة مبهمة أول بارقة .

- طيب يا سافوشكين ، شكرا لك على هذه النزهة . بالطبع تستلطيح السير من هذا الطريق أيضا .  
- الشكر لك يا آنا فاسيليفنا !  
وتضح سافوشكين . . . فقد أراد ان يقول للمدرسة انه لن يتأخر بعد اليوم أبداً ، لكنه خشي الا يبر بوعده . ورفع ياقة سترته ، واعمد رأسه اعلى في الطاقية ، وقال :  
- ساوصلك . . .

- لا داعي يا سافوشكين ، ساعدو وحدي .  
نظر الى المدرسة في شك ، ثم التقط من الأرض عوداً وكسر طرفه الأعوج ، وناله لاتا فاسيليفنا .  
- اذا اعترضك أوبر القرون اضربيه على ظهره وسنهرب فوراً . ولكن الأفضل ان تلوحى مهددة ، فهذا يكفيه ! والا فقد يغضب ويهجر الغابة نهائياً .  
- حسناً يا سافوشكين ، لن اضربه .

بعد ان ابتعدت آنا فاسيليفنا قليلا ، التفتت لتلقى نظرة اخيرة على البلوطة ، البيضاء المتوردة في حجرة التسقق . فرأت عند قاعدتها شجعا صغيرا اسود : لم يكن سافوشكين قد اضصرف ، وظل من بعيد يحرس مدرسته ، وفجأة أدركت آنا فاسيليفنا ان اروع ما في هذه الغابة ليس البلوطة الشتوية ، بل ذلك الانسان الصغير ، في جذاته اللباد البالي وثيابه الفقيرة المرتقة ، ابن الجندي الشهيد في سبيل الوطن و«مظلة الحمامات» ، ذلك المواطن المدهش والملغز للغد الآتي .

ولمحت له بيدها ، وهضت يده على الدرب المتعرج



## العريس

من العجوز التي نقلته بالقرب من نهر «برا» عرف فورونوف أن العثور على صياد مرشد في «بودسفياتي» مسألة صعبة . كانت عجوزا طويلة ، مشبقة ، ذات ساقين قويتين في هذا مشمع برقية قصيرة ، وسترة سمكة بلون الكاكي تلبس باحكام كتفيتها العريشتين المستديرتين ، ورغم ان الوقت صيف فقد كان رأسها مغطى بطاقيّة شتوية عسكرية تخبئ شعرها الأشيب . وعندما كانت تحول وجهها الصغير المجعد عن فورونوف وهي تدفع القارب بالعود ، كان يتملأها بسرور . لقد راف الزمن بقوامها ، بيد انه شوّه يديها ، فاصبحت اصابعها ملتوية كالغلاطيك ، مشبعة ، اما وجهها المليء بالتجاعيد فقد حافظ الزمن فيه على عينيّ سوداوين لامعتين ببياض مائل الى الزرق . وهضت العجوز تقول باقبال على الكلام ، بينما تتلاعب عيناها الحيثان اللتان لم ينطفيئ نورهما :

— تأخرت قليلا . قبل موسم الصيد بيومين لن تجد هذا صيادا مرشدا ، فما بالك ونحن في عز الموسم ! صحيح ، كانت الأمور في الماضي أسهل ، أما الآن فالبعض قد هجر هذا الأمر تماما ، لأن العمل في الكلبوز أجدى . خذ عندك مثلا ابني الأصغر فاسكا . . وهناك من التحق بوظيفة في الحكومة . أفضل الصيادين المرشدين يعملون الآن في حماية البحيرة . خذ عندك مثلا أناقولى إيفانوفتش ، ابني الأكبر . . . لكنكم هناك في موسكو لم تسمعوا بذلك في الغالب . . . — لم تكن نيرة الاحتقار الخفيف التي ترددت في عبارتها الأخيرة ، موجهة إلى شجرة ابنها المخدودة التي لم تصل إلى موسكو ، بل إلى جيل فورونوف .

وقال فورونوف معارضا :

— كيف لم تسمع ، أنا سمعت أكثر من مرة عن أناقولى إيفانوفتش كاحسن صياد يعتمد عليه في هذا المجال .  
فأقلت العجوز بلهجة ادانة :

— ما أقل ما تعرفون في موسكو عن ميسورا !  
أظنون أنه ليس لدى أناقولى إيفانوفتش ما يفعله سوى مراقبة الضيوف القادمين من العاصمة ؟ أنه يعنى نأحيثنا !  
وسألها فورونوف :

— لماذا تنصحيني إذن ؟

كان فورونوف يمشق الصيد ، وكان يتميز بالصبر والبصر الحاد والذراع الراسخة ، لكنه لم يكن صيادا حقيقيا ، وعلاوة على ذلك كانت هذه أول مرة يأتي فيها إلى ميسورا .

فأجابت العجوز وهي توجه القارب الخفيف بمهارة في شغل مائل ضد الموج :

— ليس عندي ما أقصحك به . كل ما أستطيع أن أقول : حاول أن تفتح أحدا من الشيوخ ، فهم على البعاش ،

ثم انهم يحيون هذا العمل . وإن كنت لا أظن أنك ستجد أحدا منهم .

احتك القارب الخفيف بقعر النهر وتوقف بحدّة قبل الشباطى بثلاثة أو أربعة أمتار ، فلملمت العجوز ذيل ثوبها من أمام وألقت بأحدى ساقها من فوق حافة القارب ، ثم بالساق الأخرى ، ونابت بصدرها على مؤخرة القارب ودفعته إلى الشاطئ .

ترنح فورونوف من ضلالية الشاطئ الراسخة . وأخرج من جيبه ورقة بعشرة روبلات ومدّها للعجوز .

— خذ الباقي — قالت العجوز وإضافت رداً على حركة احتجاج صدرت عنه — النظام عندنا هكذا . العبور — ورقة بشمسة ، المبيت — ورقة بثلاثة ، الصيد الدليل — ورقة بخمسة وعشرين في اليوم . . . اسمع ، جرب أن تدق باب ذلك البيت . اسأل عن النجد ، ربما استطعت اقتناعه . . . شكرها فورونوف ومضى على الشاطئ الكتباني نحو المنزل المذكور .

فتحت له الباب عجوز تشبه تلك التي نقلته عبر النهر إلى حد غريب : قوام شاب ووجهه صغير مبعّد بخزرتي عيتين سوداوين حيتين . وكانت ملابستها مثل ملابس تلك العجوز أيضا : سترة ثقيلة بلون الكاكي ، وحذاء مشمع بريقة قصيرة ، وطاقيّة شتوية عسكرية عليها أثر النجمة المنزوعة منها . وقال فورونوف لنفسه مبسما : « يبدو أن المعائن منا يتخفن حريا خاصة بهن » .

قالت العجوز :

— كلا يا بني ، الجد لن يذهب ، أنه مريض . بالأمس جاء من البحيرة الكبرى يجر ساقه جرا .

ومع ذلك سمعت لفورونوف يدخل البيت ، حيث كان رب اندار المريض ممددا على وسائد عالية ومغطى بكوم من

\* بعد الإصلاح النقدي في عام ١٩٦١ أصبح الروبل القديسم يساوي ١٠ كوبيكات والبقرة روبلات تساوي روبلا . الخ . المحرّب .

\* منطقة سهلية في وسط روسيا تشتهر ببجارتها والهاوا وغاباتها الجميلة وبأماكن الصيد والمحميات الطبيعية . المحرّب .

معاطف جلود الخراف . كان الجد نفسه مختفيا ولم يظهر منه  
الا طرف لحية مدبجة يميل الى الصفرة من أثر التدخين .  
وقال فورونوف :

- واذا دفعت أجراً حسناً ؟  
- اتسمعن يا أم ؟ هه ؟ - تردد صوت ضعيف من  
اعناق الفراس ، بينما ارتعش طرف اللحية الأتنيب .  
فصاحت الزوجة :

- اسكت ! البخار طالع من فمه ويريد أن يذهب ! -  
وقالت لفورونوف بصراحة - ما أنت ترى أننا لن نفيذك  
أيها الرفيق العزيز .

نسألها فورونوف بالعاج :  
- وأين إذن وجد صبيانا دليلاً ؟  
فخالت العجوز بغضب :

- أين تجد إذا لم يكن هناك أحد . لا يوجد وانتهينا !  
لو أن هذا الحديث دار منذ عدة سنوات لانتهت عند  
هذا الجد رحلة صيد فورونوف في ميشورا قبل أن تبدأ ،  
كان يميل في السابق الى التحويل من شأن القوى المضادة  
في الحياة ، وكانت كل عقبة ، ولو كافية ، تبدو له مستحيلة  
التذليل . ولكن مع الزمن تولدت لديه ثقة سعيدة بأنه لا  
توجد في الحياة مشاكل تستعصي على الحل ، وأن الإلحاح  
الهادئ والراعي قادر على اجتياح أى عقبة . وسألها بصوت  
يكاد يكون مرعاً :

- وأين إذن وجد صبيانا دليلاً مع ذلك ؟  
رسمت العجوز بوموشها القليلة في ذعر .  
- وأين يا بني تجده ؟ - قالت هذه المرة لا بغضب ،  
بل بارتباك .

فقال فورونوف :  
- ها أنذا أسألك .

طافت العجوز بنظراتها يئسة ويمرسة . كأنما كان من  
الممكن أن يوجد هذا الصبياد بالفعل في مكان ما قريب .  
الأس الذي يعرفه عن يقين هذا الرجل القادم من موسكو .

- لا أدري ماذا أقول لك . وربما استطعت اقتناع  
العريس ؟

فتناهى من تحت كوم المعاطف :  
- صيحت أن يذهب العريس !  
فاجاب فورونوف بدلا من العجوز :  
- سيدهم . وأين يسكن ؟  
فاوضحت العجوز :

- آخر بيت الى اليسار من بيتنا . اذهب اليه يا بني ،  
فربما استطعت اقتناعه . ولكنه ترك عنه الصديد عند أن  
تزوج .

ومن جديد تناهى من تحت المعاطف :  
- لن يذهب . لن يترك زوجته !  
وسأل فورونوف :

- وما اسمه ، هذا العريس ؟  
فاجابت العجوز :  
- اسمه فاسكا \* . وهل له اسم آخر ؟

- لن يذهب . - تناهى الى سمع فورونوف وهو في  
المدخل ، فاعتبر ان صمود العريس امام اقراء الكسب السهل  
من الصيد هو من بين معالم ميشورا التي يعتز بها السكان  
المحليون .

نسى فورونوف ان يسأل على اى من جانبي الشوارع تقع  
دار فاسكا . فاختار من بين البيتين الأخيرين ذلك البيت  
الذي بدا أنظف ، واستقر فوق سطحه ديك حديدي ، ووضعت  
على نوافذه مصاريع من الخشب المحفور ، عظمية حديثا بلون  
أبيض . ففي بيت لطيف كهذا البيت الذي يطمح أن يبدو  
أنيقاً ينبغي للعمرسات أن يعيشوا . دفع فورونوف الباب  
فدخل الى مدخل كبير معتم ، تفوح منه رائحة عجل وفراش  
فش عطن وزيل دجاج . واختلطت بروائح المداخل المعتادة  
هذه رائحة لأذعة قليلا وعشيرة اللحم يط برى تسلس اليه

\* تشير دارج من الاسم الكامل : فاسيلي . المحسوب .



بعض العفن . وفي وسط المدخل تدل من لغة خيال عنقود  
محترم من البرك والحدائق \* بنجم حشائش مشهورة في  
مخزاتها . فقال فورونوف لنفسه : «إذا فهو لم يهجر الصيد  
تماما» . ونهض شاب مشوج الفضلات ، عريض المنكبين .  
في سروال ركوب وتخصيب . يبتسّم مشمس الكمين - وكان  
جائيا يهجر بالفأس جذعا ما - وسأل فورونوف عن يريد .  
فأجاب فورونوف :

— أريدك أنت .

أغمد الشاب الفأس في الجذع ودلف الى الدار في  
المقدمة ، وتبعه فورونوف . وتحن فورونوف عند الباب  
مفسحا الطريق لامرأة صغيرة الجسم تعمل في يديها قدرا  
ممتلئة .

كانت دار العريس من الداخل بيضاء مثلها من الخارج .  
فمن مطلي حديثا بالجير ، وجدران مكسوة بورق مؤرّكس ،  
وإفازين النوافذ غاصة بأصص الزهور ، وكثرة من الصور  
المنزوعة من مجلة «أوجونيك» \* تغطي الجدران . وفي  
الركن يرفه بمفرش من الدانتلا وعليه كوب من زجاج  
ملون رخيص ، ومحارتان بحريتان كبيرتان ثقيلتان من  
النوع الذي «يسمى فيه صخب البحر» ، وإطار مكتبي به  
صور ، في وسطها ، كما هي العادة ، صورة العروسين .

على الدكة المجاورة للباب جلست عجوز في سترة ثقيلة  
وحذاء مشمع برفية قصيرة ، فقرر فورونوف أنها من ضروريات  
بيوت ميشورا على ما يبدو . ولكنه سرعان ما تعرف في  
العجوز على تلك المرأة التي تقتله بالقرب عبر النهر ،  
فحن أنها أم العريس فاسكا . وعلى الدكة الأخرى المجاورة  
لنوافذ جلست شابة في عنديل رأس مشدمل على  
كتفها . وشده صدرها الكبير الممتلئ تحت ثقله قماش  
البلوze الخفيف .

\* أنواع من البط البري . الهعرب .

\* «أوجونيك (القبس) - مجلة أسبوعية مصورة واسعة  
الانتشار . الهعرب .

وتوجه فورونوف نحوها بالحديث :

— في الحقيقة انني أتعجبك أنت . . . أتعجبك من

لسيذك بالذهاب معي ؟

أقلت المرأة على فورونوف نظرة مندحشة ، وغضبت  
طرفها . كانت عيناها جيلتين جاحظتين زرقاوي البياض .  
فقال فاسكا بسخوية رقيقة :

— ليس لديها سيد بعد ! أنها أختي .

عصر فورونوف على شفته استياء من نفسه ، فقد كان  
يشفي ان يحزن أنها ليست ربة الدار . لقد كانت جالسة  
في تكلف كما يجلس الضيوف القرويون ، وعلاوة على ذلك  
كانت تشبه أخاها شيها مذهلا : الشعر الكستنائي الممتوج  
ذاته ، والسمررة المتوردة في الوجه ، ونفس العينين  
الساخبتين الزرقاوي البياض . وسأل فورونوف مخاطبا فاسكا :

— وأنت ، ماذا تقول في اقتراحى ؟

— لا داعي للهابه ! . . كله لعب عيال ! - صدر هذا عن  
تلك المرأة الصغيرة التي التقى بها فورونوف عند الباب .  
كانت واقفة على العتبة ، تنصّر رأسها عن عارضة الباب  
المنخفض بمسافة كبيرة ، وقد ضمنت القدر الخاوية إلى  
فخذها . ولاحظ فورونوف بينه وبين نفسه بخيبة أمل ان  
زوجة فاسكا الجميل الشابة هذه تخلو من الجمال . فهي  
تسيرة القامة ، بوجه صغير لا ملاحه فيه ، غاص بالنمش ،  
وعينين بلون زجاجات الشراب . وعلاوة على ذلك لم تكن  
العروس شابة كالعراس ، إذ كانت في الغالب قد تجاوزت  
الغاسية والعشرين . كانت ترتدى فستانا عتيقا ، ضيقا  
وقصيرا ، وتضع في قدمها مداسا باليا بلا كموب . لكنها  
بدت قوية الشخصية ، فلم يدهش فورونوف عندما ابتسم  
فاسكا فقط . وواعد بين يديه ردا على ملاحظة زوجته العادة ،  
واستدار فورونوف نحو العجوز قائلا :

— هلا ساندتني أنت يا جدتي بحق سابق المعرفة !

فأجابته أم فاسكا :

— أنا لست السيدة هنا .

لم يكن في كلماتها احساس بالاهانة او التعدي ، بل مجرد اذراء بحقيقة معروفة وعادلة .  
الآن ادرك فورونوف ما ينبغي ان يفعله ، فقال مخاطبا زوجة فاسكا :

- هل تسمعين بكلماتي ؟

وخرجا الى المدخل . وأوضح فورونوف للمرأة الصغيرة على مهل وباستفاضة انه سيأخذ زوجها الثلاثة او اربعة ايام على الاكثر ، وانه يعرف النظم المعمول بها في ميشورا ، وسيضع اجرا مجزيا لانه رجل مشغول ولا يسمح لنفسه بالصيد الا نادرا ومن ثم قلن ببخل . واخيرا فهو ، خلافا عن الصيادين الآخرين من موسكو ، لن يمنع فاسكا من الصيد لنفسه . . .

اصغت اليه المرأة الصغيرة وهي تحرك شفيتها . يبدو انها كانت تعجب في سرها المبلغ الذي سيحصل عليه زوجها . وقد ارضتها الحسابات ، اذ ابتسمت ولعلت عينها الزاجيتان . وصدت يلما الى فورونوف بحركة حاسية لا تغلو من رشاقة قاتلة :

- اتفقنا !

في كنها المنفتح لاح معصمها المستدير ، الحسن التكوين ، ورفيقها المدور ، فقال فورونوف في نفسه ، وقد جعله التوفيق متسامحا : ان فيها ثمة شيئا .

وصاحت هي بصوت حازم :

- فاسيل استعد ! ستذهب مع الرفيق الى الصيد .

- ينبغي ان استأذن المديرة . . .

- سأخبرها انا ، هي بنفسها قالت لي من فترة : ما يال جميع الرجال يستأذنون ، معا عدا زوجك الذي يبدو كالمربوط . . كما اني اريد تنظيف البيت وغسل الأرضية ، فانت وستخه !

تطلع فاسكا الى زوجته وتلهذ ، ويبدو انه غالب شيئا ما في نفسه ، ثم راح يستعد .

لم يستغرق في الاستعداد طويلا . وضع قليلا من القش

في حذاءه المطاطي الطويل ، ولف قدميه بأشرطة سمكة من قماش الكنتور ، ثم شد الحذاء باحكام على ساقيه القويتين ، وعبا شريط الطلقات بخراطيش قديمة مسودة وتمتلك به . وبعد ذلك شبك في كيس الظهر هياكل طيور مطاطية وخشبية . وتابع فورونوف يسرور حركاته العريضة المتسمة بالاهمال والدقيقة جدا في الوقت نفسه . واثنا ذلك كان فاسكا يصغر لثنا ما من بين اسنانه الطبقة وهو لا يشعر ابدا ، فثنا يبدو ، بجمال تكوينه الاخاذ .

وقالت زوجته التي كانت تفعل وراء الثرى بلهجة غيرة :

- سعيد بفكاكك من البيت !

فاجاب فاسكا باستعداد :

- اذا شئت لن اذهب !

- لن يذهب ! انظروا الى هذا الثرى !

وافرغ فورونوف كيسه ولم يترك فيه سوى الضروريات التي لا غنى عنها : النخز والزيد والمعلبات ، وترموس الشاي الثقيل ، والجورب الاضافي والبطانية . وجاء فاسيل من الفناء بسلية مجدولة كانت فيها بطة طعم \* تصيح .

وهضت زوجة فاسيل معيها لتودعها . ارتدت سترته من القلطة مشدودة على الخصر وحذاء عالي من المطاط فعدت صبية على الفور .

- عاتها . . . - قالت لزوجها واخذت منه البندقية -

هل ستذهبان الى البحيرة الكبرى ؟

فاجاب فاسكا :

- الى الصغرى .

فوست حاجبها دهشة ، فخيل لفورونوف ان ثمة شيئا غير سليم في المسألة . لقد سمع وهو بعد في موسكو انه ينبغي الصيد في البحيرة الكبرى ، فزوده الآن شك بان فاسكا لا يرغب في الابتعاد كثيرا عن البيت .

فقال فورونوف :

\* بطة تربط من ساقها وتوضع في الماء لجذب البيل البري اليها أثناء الصيد . **المصرب** .

— ربما من الأحسن الذهاب الى الكبرى ؟  
فاجاب فاسكا وهو لا يفتل الى فورونوف بل الى زوجته :  
— الناس في الكبرى لا عد لهم .

وتطلع فورونوف هو الآخر الى زوجة فاسكا مؤملا . ان  
تزيد . لكنها اكتفت بمن كفتها النجسين وتلصقت بسرعة  
نحو القارب الذي لاح خلف الاعشاب . الواضح ان زعامتها  
في البيت لا تتناول على دراية زوجها بشؤون الصيد .  
ولكن فاسميلي فورونوف بكوعه في رفق وابتمم مؤتمنا  
الى زوجته : كانت مؤخرة الهندية «التولية» = الطويلة  
تصطدم بعقبها .

وقال بشيء من الاعتزاز :

— انا وأخي اناؤولى فقط اللذان تودعهما زوجاهما الى  
الصيد — ثم استلرد بتفكير — في الحقيقة هو لا يستطيع  
تدبير الامر وحده بسبب عجزه . . .

عندما وصلا الى القناة كانت زوجة فاسكا قد فكت رباط  
القارب وفرشته بدريس طازج رطب قليلا ، جمعه من على  
الشاطئ مباشرة . ووضع فاسميلي الكيس والسلة والبنديتين  
في الزورق وغطاهما بسترته المشمع بعناية ، واخرج من  
تحت الدريس مجذافا يشبه المجرفة .

— اركب ايها الرفيق الصنياد ، فاننا لا اعرف اسمك  
واسم ابيك \* \* .

— اسمي سرجي ايفانوفتش .

واستقر فورونوف في قاع الزورق بصورة خرقاء . ومن  
خلف حافة الزورق المدورة لمعت مياه المستنقعات سودا  
مثل القطران .

وقال فاسكا لزوجته :

— خلّيتك بمافية !

وبعكة قصيرة سريعة شدته من كمه ، وهي نظري

\* نسبة الى مدينة وتولا المشهورة بصناعة السلاح . المحرب .

\* \* تقتضى تقاليد المعاطبة الروسية ان يدعى الشخص باسمه

واسم ابيه احتراماً ، المحرب .

الى فورونوف في هيوس ، والتفتت به بعينها للحظة .  
وضحكت ضحكة قصيرة في خجل ثم دفعته عنها ، ومضت نحو  
البيت وهي تسير بين العشب العالي الذي يتجاوز وسطها  
دون ان تلتفت .

وركّز فاسكا المجذوف فسي الشاطئ وضغط عليه ،  
فاندفع القارب عبر الطريقة المائية الضيقة وهو يصطدم في  
رقق بشتوات الأرض ويشتق بعنف جانف الاعشاب الحادة ،  
التسقية الأوراق ، المطبقة على القناة .

فك فورونوف ياقة قميصه . لقد خلف وراء ظهره جميع  
اليوم والاضطرابات ، وما هو يندفع كالسهم نحو الهدف .  
كم حدثوه في موسكو عن مصاعب ميسورا ، وعن تفرد طياع  
اهلها ، الذين ينبغي على المرء ان يفهمهم حتى يظهروا له  
جانب اللين والسلاسة ، والا فقد يدبرون له جانب العناد  
المتصلب والبقاء القاسي . وما أسهل ما وجد طريقه هنا  
رقيق كل ما كان ينبغي !

تابع يسرور حركات فاسكا القوية والماهرة بالمجذاف ،  
يبصر ان يجسد هذا الشاب القوى ، الذي دب اليه بعض  
الكسل ، يحس الآن بالفرحة من هذا الشناط . وكان باديا  
ان عضلاته المقتولة تتلاعب تحت قميصه ، وانه يتمنّس ينسر  
وراحة .

وسرعان ما أخذت القناة تتعرج . وإذا كان فورونوف ما  
يزال يحتفظ بقبيل من الارتياح في ان فاسكا قد اختار  
البحيرة الضيقة من اجل سهولة الطريق ، فقد تبهر هذا  
الارتياح الآن تماما . لم يكن الزورق الطويل قادرا على  
الدوران عند المنعطفات الحادة ، فكان فاسكا قبل كل منعطف  
يدفع الزورق بكل قوته بالمجذاف الذي حل بالنسبة له محل  
العود ، فيطلق القارب لينغرز في لسان الشاطئ . ويقفز  
فاسكا الى الماء ، فيرفع مؤخرة القارب الثقيلة ويدبرها نحو  
ثنية المنعطف الأخرى ، وبعد ذلك يدفع مقدمة القارب الى  
الماء . كان القارب ثقيل جدا ، وعندما أراد فورونوف ان  
يساعد فاسكا ، لم يسمح له .



ومع ذلك ، وقبل ان يلجسنا نهر "برا" ، حيث فاضت القناة الضيقة على الشاطئ المغطى بالمستنقعات واتسعت وضلعت ، استقر القارب على القاع لا يتزحزح ، فكان على فورونوف ان يهيل منه ليساعد في اتشاله .

فقال فاسكا بغيرة صراحة :

- لو رأت زوجتي ذلك لئالئي عنها الكثير !

- ولم ؟

- لأنها لا تطيق ان ترائي اعجز عن انجاز عمل .

وضحك فاسكا ، اما فورونوف فسأله :

- اتحبها ؟

فقال فاسكا بفرح ودهشة :

- وكيف لا احبها ؟ لقد رايت بنفسك اى امرأة هي ! . . . ومن اكون انا بالنسبة لها ؟ . . . - وباعد بين يديه .

كان غائضا في الماء الى ركبتيه ، في فائلة بحجارة مشمرة الاكمام . . . وعرق الشباب الساخن يتصبب على وجهه الاسمر وعلى رقبته الملوحه المائلة الى السواد وعلى ذراعيه المفتولتين . وبدا وكان جلده مطلى بطلاء لامع . كان فاسكا حسن الصورة ، وبريثا وساذجا في مشاعره الى درجة جعلت فورونوف يقول في نفسه : "آه يا فتى ، انت نفسك تساوى اكثر منها بكثير !" ولكنه بالطبع لم يفصح له عن ذلك ، وهضبا قدما بعناء شاطئ "برا" المغطى بالغابات .

لم يكن "برا" في هذا الموضع يشبه النهر ابدا . فقد فاض فاصبح بحيرة عريضة للغاية ، بجوز خضراء مستوية ، وبخيلجان تكتنفها اعواد القصب ، لاحت بينها قوارب صيادي الاسماك اللقائية . وكانت طيور النورس تمرق فوق حافة المياه ، وعاليا في السماء يتهاذى البط اسرابا ووجدانا . واندفع صقر كان يعوم قرب السمعاب منتفضا بسرعة ونعومة على الماء ، فمسه بمخالبه الخطافية ، وارتفع حاملا سبكة روش صغيرة بين اظفاره . وفي نفس اللحظة انطلق من قمة صنوبر غراب يطارده . وسرعان ما أدرك الصقر واتنم

منه الفريسة . وعاد الغراب الى نقطة حراسته فالتهم الروشة بسرعة ، وراح ينتظر ان يصطاد له الصقر الكادح سبكة اخرى .

وانعلقا من جديد الى قناة اخرى ، بعكس الأولى ، مستقيمة كالسهم . وكانت الطريقة المائية تتسع احيانا مشكلة دوائر ، اذ كانت القناة تضل ما بين بحيرة واخرى وبنت المستنقعات . وكانت الشواطئ هنا ايضا منخفضة ، ولكن الاغصان النضرة العالية بما يتجاوز قامة الانسان كانت تقرب من الماء مباشرة مختلطة بالخمال ، لتجثف القناة بتفتع معتم ذاك الغضرة . وبدا ان الغسق هبط دفعة واحدة ، فاعتور القلق فورونوف من ان يتأخروا فتفوتهم فترة الغروب .

ولكن فاسكا قال بثقة :

- سنصل في الوقت المناسب .

واحيانا كانت طيور اليكاسين ودجاج الارض تمرق فوق راسهما تماما دون وجل ، ومن تحت ورقة سوداء مسطحة لثيقة ماء قفز فرخ بط صغير وانطلق هاربا منهم بكل قواه . لم يكن هذا الصغير التيمس يدري انه ، وقد خرج متأخرا جدا من البيضة ، ان يقدر له ان يصبح بطلة كبيرة ، فضى يجاول بكل قواه انقاذ عمره القصير . اخذ يخفق على الماء بعنايت باسنة لجناحين لم يكتملا ، وهو يثر في القناة مطلقا صراخا رقيقا ، ومقدمة القارب تدركه بين العين والعين ، حتى انزوي اخيرا في احد خليجان الشاطئ . وما كاد يغتنى حتى رفرق من وراء الحشائش شيء ما متيسرا سخبا ، وفي اللحظة المضنية بين الخمال ظهر للحظة خاطفة شبح اسود يتناثر لمركمة وفي نفس اللحظة لفع وجهه فورونوف زهج وردى لعيار ناري . وقبل ان يتلاشى صدى الطلقة موت البطلة في الخمال بعد ان رسمت في سقوطها نوسا مانا .

لم يهيل فورونوف من مباغلة العيار الذي درى فوق اذنه تماما ، بتدرا ما أهلهت تلك السرعة قبر البشرية وتلك

به عادة أي صيد ، ولكن صوت فاسكا الخافت الهادي تردد على الفور تقريباً :

- الحذقة إلى يمينك يا سرجي إيفانوفتش .  
انتفض فورونوف وطفاف بغظه على الماء بسرعة . ولكنه لم ير سوى هياكل الطيور وبينها بطة الطعم ، ضئيلة للغاية ، تبدو غير طبيعية .

وبنفس الهدوء أوشده فاسكا :

- عند الهيكل الأخير ، إلى اليمين .

وأطلق فورونوف النار وهو يشعر انه يطلقها على هيكل البطة . وكس الرش سطح المياه ، وإذا بأحدى الحذقتين ، اللتين كانتا ساكنتين في صورة متماثلتين ، تهتز فقط ، بديرة جانبها الغضبي المنبسج في بدء ، أما الأخرى فقد استلقت على الماء مادة غشها ، فكشفت بموتها عن حياة كانت تعيش فيها .

وعندما سبحسا نحوها بالزورق ليلتقطها ، ارتفعت بركة إلى أعلى بعد أن كانت توشك على النزول . وأطلق فورونوف النار فوهت البطة إلى الماء كالبحر . وبعد أن غاصت فيه ظهرت مرة أخرى على بعد حوالي ثلاثين متراً منها ، وعلى الفور أجهر عليها فورونوف بعد أن تمكن من تلقين بندقيته . فقال فاسكا مستحسناً :

- مضبوط .

ولكن ذلك لم يكن سوى البداية . ونادراً ما كان الحقل يمس فورونوف صيداً موفقاً كهذا . فبطلة واحدة أردى ثلاث حذقات ، ثم أصاب على التوالي بطتين عتيقتين وثلاثة كبيرة . كذلك لم يبق فاسكا بلا عمل . فقد أصاب على الدمار ثلاث بركات ، ولكن واحدة منها جرت وهربت . بينما اختلت الثانية بين أعواد القصب فلم يتمكن من العثور عليها في عمق البحيرة .

كانت البحيرة صغيرة ، وقد أزعج إطلاق النار الكثير البطة لتفرق ، ولكن حتى في لحظة الهدوء التي حلت لم يفارق فورونوف ذلك التوتر السعيد المشعوان للأحاسيس ، والذي

المهارة التي أبداهها فاسكا . فقد استطاع أن يرمى المجداف ، ويلتقط البندقية ، ويصوبها بتلك الدقة الخارقة . والسبب ما خيل لفورونوف أن فاسكا إنما أبدى هذه المهارة الآن أيضاً من أجل زوجته ، فأحس بالضيق من هذا الشخص الممتشي المتهلل . فيمثل هذه الحاسة الروحية سيردى جميع البطة ، وأن يبقى لفورونوف شيء يصطاده إذن . . .

- اسمع يا قاسيل ، دعنا نتفق على الأهداف الطائرة كلانا يطلق النار ، وعلى الأهداف الأرضية أطلق أنا وحدي .

- تمام يا سيرجي إيفانوفتش - قال فاسكا وهو يرمي القارب إلى الشاطئ . وخطا من القارب مباشرة في الأعشاب العالية . وانضمت الأعشاب خلفه ، وعندما انفرجت ثانية ، ظهر ممسكاً في يده علجوماً كبيراً برقية زمردية - استنقجتنا يا سرجي إيفانوفتش !

فأمس فورونوف ببرود :

- نعم .

انكشفت البحيرة الصغرى أمامهم بغتة . وفي مرآة المياه المستديرة سبغت سحب وردتها حمرة الشفق . وعند العافة كانت المياه معشمة مكفهرة ، إذ انعكست فيها صفوف أشجار الشوح الرمبوسة المحيطة بالبحيرة . ولم يفحص فاسكا البحيرة بنظره ليختار مكاناً أفضل ، بل ساق القارب مباشرة نحو جزيرة صغيرة شبه مغمورة بالمياه عند الشاطئ الأيسر للبحيرة المثل على الغروب . وهنا وزع هياكل الطيور ، ووضع على الماء بطة الطعم المرفوفة ، وبعد ذلك غاص بالقارب في الضمائل .

ومساءل :

- هل ترى المكان جيداً يا سرجي إيفانوفتش ؟

فاجاب فورونوف متذمراً :

- أنا أراه جيداً ، ولكننا نرى جيداً من أعلى .

فطمأنه فاسكا :

- لا بأس .

استعد فورونوف لفترة انتظار طويلة ، وهو ما يبدأ

بسببه كان يهوى الصيد الى هذا الحد . ولم يعد الى وعيه الا عندما برزت اول نجمة في السماء . وانعكست في مياه البحيرة المعتمة صغيرة تقيئة براقعة .

- حسنا يا فاسيلي ، كفانا اليوم يا اخي ! . . .

واتجهيا الى القناة لبيتنا هناك . وعلى الفور وجدا مكانا للمبيت : قُرب الماء مباشرة ، غير بعيد عن المصب ، قام كوم غريش مرصوص من الدريس السميك الريان . واخرج فاسكا مقدمة الزورق من الماء وارسلها على الشاطئ ، وافرغها من الاكياس ، وراح يعد الفراش ، وهو يسوى بجهد اعداد الدريس المنتفضة التي فاحت منها رائحة المستنقعات العادة .

ثم تناولوا العشاء وشربا الشاي من الترموس . وحل الظلام تماما . وامتلأت السماء بالنجوم ، وفوق سور اشجار الشوح البعيدة ظهر جنب القمر الاصفر المتورم . وكان الجو ما يزال دافئا ، ولكن احيانا كانت تهب برودة صاعدة من القناة التي بدأت تبرد . وتذكر فورونوف ، وهو يلتهم سمك الكراكي بالصلصلة ويبلعه بالشاي الحلو ، تفاصيل صيد اليوم . وكان فاسكا يجيب اجابات مقتضبة ، وفي الأغلب يضحك ضحكات قصيرة ، فاعتبر فورونوف ذلك خصلة من خصال الصياد المحترف : الا يتحدث عن الصيد الماضي عشية الصيد القادم . وبالتدريج فتر فيه هو نفسه الاحساس بالافاقة ، ولم يعد الحظ الموفق يهزه ، اذ صار في عداد الاحداث التي مرت واستنفدت غرضها ، ولم يعد يوسعها التأثير على المستقبل .

سرى التعب اللذيذ متعضعا اطرافه ، واحس بالراحة والطمانينة تعمران روحه .

وتناهى صوت فاسكا :

- سرجي ايفانوفتش ، هل أنت متزوج ؟

- طبعاً متزوج . . - اجاب فورونوف وانتبه على الفور

الى نبذة ضيق شابت جوابه .

وسال فاسكا بحذر :

- وهل زوجتك في موسكو ؟

- كلا ، سافرت الى المصيف .

- وحدها أم مع الأولاد ؟

- ليس لدينا أولاد .

نهض فاسيلي قليلا موتركا على كوعيه ، وحلق في فورونوف بعض الوقت ، ثم قال بجذبة شديدة :

- وكيف لا تتشى . . من تركها تسافر وحدها ؟

فقه فورونوف . لم ير في هذا الاستغراب اى اهانة له بالعكس ، احس بشعور لثيد بالصناعة ، اذ كان واثقا من زوجته كل الثقة ، وفوق ذلك لم يكن في سلوكها ما يقلقه على الاطلاق .

وقال باحساس بالتفوق :

- آه يا عزيزي ، وهل يمكن ان تجنى نفسك من ذلك ؟ اكفهر فاسيلي ، ورغم ان فورونوف لم ير وجهه في الظلام ، فقد احس انه استغرق في تفكير قلق عابس .

استلقى فورونوف على الدريس القويح بعد ان شرب الشاي . ووافق فاسكا من تفكيره فاقترب منه . وقال بتروء :

- سرجي ايفانوفتش ، ألا تتشى المبيت هنا وحده ؟

فرد فورونوف وهو يكتف السخريّة :

- كلا ، ومم اخاف ؟

كان يدرك ان ما تحرك في نفس فاسكا لم يكن الغيرة ، بل الشوق النجاد المبالغ الى الجيب ، ذلك الشوق الذي قد يطبق على القلب حتى ولو في اقصر فراق . ومع ذلك بدا له فاسكا في هذه اللحظة مضحكا الى حد ما ومثيرا للاشفاق .

- سأطلب على البيت طلبة سريعة . وقبل الفجر اكون هنا ، لا تشك في هذا !

- هيا ، هيا ، - قال فورونوف ، ولكي يشعر فاسكا بان الموضوع منتب ، تحول عنه ، وشد ياقة السترة فوق راسه .

سمع كيف دفع فاسكا القارب الى الماء ، اذ احتك قاعه بالحشائش اى صرير ، واز الرمل الدقيق على لسان الشاطئ



بصوت حاد جاف ، ثم ترددت طرطشة مدوية فتسللت تحت السترة ببرودة رطبة . وبقبى الماء أمام مقدمة الزورق بصوت متقطع . . . لقد رحل فاسكا بالقرب الى زوجته . وتخليل فوروونوف الطريق الذي كان على فاسكا أن يقطعه عبر قناتين ونهر ، وتذكر كل المتعطفات التي ينشئ عليه أن يجتازها ، مخرجاً فيها القارب الى الشاطئ ومحولاً اياه الى التنايسا الأخرى ، ثم فوق ذلك المياه الضحلة التي لم يتقلبها عليها مما لا بعد جسد . وكل ذلك فى الظلام ، فى برد الليل الرطب . سيستغرق الطريق أربع ساعات على الأقل . أربع ساعات ذهاباً ، وأربع ساعات إياباً . ولكن يعود فاسكا قبل الفجر فلن يقضى مع زوجته حتى ساعة . فإى مبلغ من القوة تبلغ تلك العاطفة التي دفعته الى هذه الرحلة الجهنمية ؟ . . .

زفى فوروونوف وأزاح ذيل السترة . وتذكر أنه هو أيضاً ، مرت به مثل هذه الفترة ، حين كان مستعداً للاندفاع الى حيث لا يدري فى أى ساعة من الليل أو النهار . عند أول إشارة ، وحتى بدون إشارة . وكان هو أيضاً مغمصاً بذلك التعلق الصعب المشبوب ، الذى يسوق الآن وسط الليل هذا الصياد الشاب عبر الطريقة المائية . ولكنه خاف فجأة على نفسه ، وعلى هبوطه ، وعلى أشياء أخرى لا يعلمها إلا الله . وكان يعرف حتى لحظة الانفصال أن كل شئ قابل للإصلاح لو أنه فقط وثق بأحاسيسه . لكنه قال لنفسه : هكذا أفضل ، وأهدأ بالاً ، وأسهل ، ولكن يقطع على نفسه خط الرجعة تزوج من زوجته الحالية التى كان يعرفها من وقت طويل كاتسانة ذكية ، طيبة ، مخلصه . وإذا كانت حياتنا تغلو من البهجة ، فإنها تغلو كذلك من الألم ، وهذا أيضاً له قيمته . . .

وإذا باللقاء مع هذا الفتى يثير فى فوروونوف مكانة الفلق ، ويدفعه الى تذكر ما لم يكن يجب أن يتذكره . ولكن هذا سينقضى لدى فاسكا أيضاً يوماً ما ، وسوف يرى زوجته تتلما يراها هو ، فوروونوف ، على الأقل : امرأة لا تتميز

بشيء ، نمشأ ، نكدة ، متشدة ، غائصة لراسها فى العموم المنزلية . سيبدو له الصبح مشراً على الأرجح . . . «ماذا دهانى ؟ - قال فوروونوف فى نفسه عابساً - أأتص من مصيره لصبرى ؟»

كانت السماء منخفضة بشدة ، ومحموة بالنجوم الى درجة بدا فيها انها لن تقوى على الاسماك بها فتهدى متبعثرة . وكانت النجوم تنهاوى بالفعل . فهنا وهناك تساقطت النجوم على الأرض إحيانا عموديا ، بأقواس حادة قارة وعريضة تارة أخرى ، مكتسبة فى سقوطها لونا أخضر فى لقاء البلور . ومن الأرض التي سمعت أثناء النهار انبعثت موجات من البخار المائى . وكانت السماء بجميع نجومها تصبح كابية تارة وتانيا ابتعدت ، وتارة تتشبع بالبريق فتترب ، كما لو كانت تنتمس .

استيقظ فوروونوف من لضع برد الفجر القارس . وفى لحظة واحدة كثت ملاهيه ، وسترتة التي كان مغطى بها ، والبريس الكثيف المدعوك تحت جنيد ، والطائفة على رأسه ، كلت جميعاً كأنما على اتفاق ، عن الاحتفاظ بالذئب المنبعث من جسده ، واصبحت فجأة باردة ، رطبة ، ثقيلة ، غدائية غير مريحة . ونفص فوروونوف كثفيه ، ضمتته الرعشة الصغيرة المتولدة عن هذه الحركة ، شحنية صغيرة من الدفء والحيوية . وعب واقفا وهو يدرك أن الاحساس التالى الذى سيخاومه هو الاستياء من غياب فاسكى . ورأى سباء رمانية ، كما لو كانت مكفورة ، أما فى الحقيقة فكانت صافية ، ولكنها لم تتشبع بعد بالزرقه ، ورأى خيط الفجر الساطع خلف الغابة ، والأعشاب الشبيهة من اللندى ، ومقدمة الغارب الاسود السيللة ، البارزة فوق حافة الشاطئ .

وهضى فوروونوف الى القارب . كان فاسكى جالساً عند مؤخرته ينظف البطل الذى اصطاده بالأمس .

ومصاح فوروونوف :

- مرحبا يا عريس !

ورفع فاسكا نحو فورونوف وجها مائلا الى الشعوب  
تحت طينة سمرة .

- اوه ، كم وبختنى زوجتى يا سرجى ايفانوفتش على  
تركى لك ! - قال بابتسامة فرحة لا تتناسب مع كلماته -  
قلت لها انك انت الذى ارسلتنى . ارجوك لا تكشفنسى  
اذن . . .

- حسنا ، لن اكشفك .

وطلع فاسكا الى فورونوف بجدر وبظفرة جانبية وقال :  
- لا تظن اننى لا اثق بها ، غير انسى داهمتنى فجأة  
كأية شديدة . . . لا أدرى لماذا خطر لى انها كان من الممكن  
ان تختار أحداً غيرى ، وانها كان يمكن ان تكون الآن مع  
أحد آخر . وازهرتني هذه الأفكار حتى . . . - وباعد فاسكا  
بين يديه فى حركته الحائرة المألوفة . ثم من راسه المنحوج  
الخصلات فجأة ، وضحك ضحكة قصيرة خاطرة من فى ذهنه ،  
ومال قليلا واضاف - اوه ، يا لى من احبب ! . . .

فى عيني فاسكا السوداوين ، ببياضهما الازرق البارز ،  
تجمد بريق نشوة كاب بعض الشيء .

وقال فورونوف :

- ربما لم تعد قادراً على الصيد الآن ، انهض حيلك !

- ماذا تقول يا سرجى ايفانوفتش ! أنا الآن استطيع  
ان اصنع العجائب ! استطيع ان . . .

قال فاسكا ذلك باخلاص وبساطة شديدين بحيث لم يبق  
ثمة شكوك : انه يستقى من زوجته الصغيرة الميمومة . .  
القرة وبهجة الحياة .

ومن جديد تمثل الضيق من فاسكا فى نفس فورونوف ،  
فقد كانت هذه السعادة مثيرة لضججه ، كانت تسعفه وكأنها  
تذله ، وكان مستعبدا ان يقول لهذا الفتى انه سيأتى الوقت  
الذى ستضرب فيه هذه العاطفة النهمة وتذبل ، ولكنه بدلا  
من ذلك سأل بصوت مزين تقريبا :

- ما الذى يجعلك تحب كل هذا الحب ؟

فقال فاسكا بدهشة ، وكان هذه الفكرة لم تدر برأسه  
ابداً من قبل :

- .. وهل يمكن ان تشرح ذلك ؟ من كنت انا بدونها ؟  
فاسكا وخلاص ! اما الآن فانا انسان ، زوج . ويمكن القول  
رب أسرة . ولكن حتى هذا ليس هو المسألة . . .

فضحك فورونوف ضحكة قصيرة وقال :

- مولا ، مولا . ما زال ميكرا ان تسمى رب أسرة .  
فهذا الأمر مهما كان يتطلب اطفالاً .

فضحك فاسكا بفرحة :

- الاطفال موجودون ! كانتا فاسكا ، توام . وهناك  
ايضا سينكا ، ولكنه ما زال يحبو . عند جدته الآن . . .

فقال فورونوف وقد راوده احساس كره :

- لا انهم شيئا . منذ كم سنة وانتما متزوجان ؟

- عن زمان ، قريبا تمر ست سنوات !

فسأل فورونوف بغلظة :

- فأتى عريس أنت بحق الشيطان ؟

فهاجم فاسكا بين يديه من جديد :

- هكذا يدعوننى ، لست ادرى . . .

بصير ، وخلوة بعد خلوة ، انحص الرمال المتبقية والاحجار التي  
نذف بها البحر لتوه .

وتردد صوت رفيع :

- ايه ، لماذا تربعت على سروالي ؟

ورفعت عيني . وقفت فوق رأس فتاة صغيرة عازية ،  
تحمل بارزة الضلوع ، رفيعة اليدين والساقين . والتفت شعرها  
الطويل المبذل على وجهها ، ولعنت قطرات الماء على جسدها  
النحيف الذي لم تلوّحه الشمس ، وغطته حبيبات زرقاء من  
أثر البرد .

وانحنت الفتاة وسحبت من تحت سروالها مغطيا بخلوط  
صفراء وزرقاء ، وفقتته ، ثم ألقت به على الاحجار . اما هي  
فقد طرحت بجسدها على لسان الرمال الذهبية ، واخذت تجرفها  
نحو جنبها .

وغصمت أنا بسخط :

- ارتديه على الاقل . . .

فأجابتنى :

- ولماذا ؟ هكذا أفضل لحزام الشمس .

- الا تغلجلين ؟

- امي تقول ان هذا لا يطبق على الصغار . وهسي  
تتبعني من السباحة في السروال فهو يسبب الإصابة بالبرد ،  
وليس لديها وقت لتفحصه علي . . .

وفجأة لمح شيء برقة بين الاحجار القائمة الخشنة : حصاد  
دقيقة رقبة كمعكة العجين ، فخرجت من مبي غلبة السجائر ،  
ولحقت هذه الدفعة بجموعتي .

- ارني !

واراحت الفتاة شعرها المبذل خلف اذنيها كاشفة عن وجه  
نحيل يغطيه نمش داكن ، وعينين خضراوين كعيون القطط ،  
وانف اقصى ، وفم ضخم من الاذن الى الاذن ، واخذت تفحص  
الاحجار .

على طيبة رقيقة من القطن استقرت بضعة احجار : حجر  
عقيق صغير بيضاوي ، بلون وردي شفاف ، وعقيق آخر .



## الصدى

جزيرة الاحلام ، والشاطئ المتفر سباعية القبولة ،  
والفتاة المنبثقة من البحر . . . كان هذا منذ ثلاثين عاما الا  
قليلا !

كنت اجمع قطع الاحجار الصغيرة على الشاطئ خارج  
بلاج المصح ، ومنذ مدة قليلة صبت عاصفة ، فزحفت الامواج  
وهي تنور على الشاطئ حتى وصلت الى جدار المصح الابيض .  
اما الآن فقد مدا البحر وعاد الى حدوده ، كاشفا شريحة عريضة  
من الرمال بلون الشيكولاته ذات بريق ازرق ، يفصلها عن  
الشاطئ جسر صغير من العصى . كان هذا الرمل ، الرطب  
والصلب بحيث لم تكن الآثار تنطبع عليه ، مغلى بعضى يشبه  
قلع السكر ، وباحجار خضراء ضاربة الى الزرقاء ، وقطع زجاجية  
كالخزى المصروسة ، وبالجمبرى البيت ، والاعشاب البحرية  
المتعفنة التي انبعثت منها رائحة يود حادة . كنت اعرف ان  
الامواج العالية تنذف الى الشاطئ باحجار كريمة ، ولذا اخذت



أكبر ، ولكن البحر لم يصفقه ولذلك كان عديم الشكل ، أصم لا ينفذ الضوء ، ومستحجران طريقان ، أحدهما على شكل نجمة البحر ، والثاني يحمل أثر سرطان صغير : وحلقة حجرية صغيرة هي «اله الدجاج» ، ثم فطر مجموعة : حجر التوباز الدخاني ، قبضة من ضباب مذابة في زجاج قائم .

— هل هذا ما نجمعته اليوم ؟

— ماذا تقولين ! بل طوال إقامتي .

— قليل .

— جربي أنت !

— وما الداعي ؟ — وهزت كتفها النعيلة المتسلخة .

لكني أزعف طول اليوم في هذا الحر من أجل احجار نافذة ؟

— أنت حمقاء . . . حمقاء عارية !

— بل أنت الاحمق ، ربما تجمع الطوابع أيضا ؟

فاجبت بتحد :

— حسنا ، أجمعها !

— وعلب السحائر ؟

— كنت أجمعها وأنا صغير .

— وماذا تجمع أيضا ؟

— كان عندي سابقا مجموعة من الفراشات . . .

وظننت ان هذا سيجمعها ، ولست أدري لماذا أردت ان يجمعها .

— أف ، يا للثرف !

وقلبت شفتها العليا فابرزت نابين حادتين يمشاوين .

— كنت تسحق رؤوسها وتغرز في أجسادها الدبابيس ؟

— كلا بتاتا ، بل كنت اقتلها بالبنج .

— مهما يكن فهو مترف . . . اننى لا أطيق ان أرى شيئا

يقتل .

— قلت لها بعد تفكير :

— هل تعرفين ماذا كنت أجمع أيضا ؟ الدراجات . . . من

مختلف الماركات .

— هكذا !

— أقسم لك . كنت أركض في الشوارع وأسأل كل صاحب دراجة : «يا عم ، ما هي ماركة دراجتك ؟» فيجيب : «دوكس» أو «لافيلان» أو «أوبل» . وهكذا جمعت كل الباركات ، ولم ينقصني الا «اندفيلد» و«ديل رويال» . . . كنت أتكلم بسرعة خشية ان تقاطعني الفتاة بوحدة من سخرياتها ، لكنها كانت تنظر اليّ بجدية واهتمام ، بل كتبت حتى عن صب الرمل من قبضتها .

— كنت أركض كل يوم الى ساحة «لو بيانيسكايا» ، وكدت ذات مرة أقع تحت عجلات الترام ، ولكنني وجدت «اندفيلد» رويال» . أتدري ، ان ماركتها بنسججة ، وعليها حرف «و» كبير مكتوب باللاتينية .

قالت الفتاة وهي تضحك بقمها الكبير :

— لا بأس بك . . . سأقول لك سرا . . . اننى أيضا

أجمع . . .

— ماذا ؟

— الصدى . . . وقد جمعت منه الكثير . هناك صدى رنان كالزجاج ، وصدى كالنفير النحاسي ، وصدى مثلث الصوت . وهناك ما يتدحرج كحبات البازلاء ، وهناك أيضا . . .

تقاطعتها بغضب :

— كفك كذبا ! . . .

فسمرت في عيني اللفة وقالت :

— أستطيع ان أريك ، اذا أردت .

— حسنا ، أريد . . .

ولكنني سأتريك وحدك ولا أحد غيرك . هل سمع لك الملك بالمجيء ؟ علينا ان نصدق الى جبل «السرغ الكبير» .

— سيمسحون !

— اذن سنذهب غدا صباحا ، أين تسكن ؟

— في شارع بريمووسكايا ، عند البلغار .

— ونحن نسكن عند اللعبة تاراكوتينا .

— اذن فقد رأيت أمك ! اليس طوبى ! . . . وشعره

أسود ؟

- آه . ولكنى لا أرى أمى أبداً .

- ولماذا ؟

- أمى تحب الرقص - ونفخت الفتاة شعرها الذى جف وبدأ انهب اللون - هيا نستحم لأخر مرة !

وقفزت وافقة والرمل يغطى جسمها ، وركضت نحو البحر وكعبها الورديان الصغيران يلعبان .

... كان صبحا مشمساً ساكناً ولكنه غير حار ، والبحر بعد العاصفة ما زال يترن برداً لا يمكن الشمس من ان تدفئ الجو . وعندما كانت سحابة كثيفة كدخان السجائر تغلف الشمس مظللة الريق الجنوبي الساطع المنبعث من حصى الطرق والجدران البيضاء والسقوف الترميدية ، كان الافق يفكر ، كما يحدث قبل حلول جو مضطرب ، ويهب من جهة البحر ، دفعة واحدة ، تيار بارد .

فى البداية تعرج الدرب المؤدى الى «السرج الكبير» عبر تلال غير عالية ، ثم امتد بعد ذلك مستقيماً صاعداً الى اعلى خلال حرج كثيف عطر من شجر البندق . وقطعت الدرب قناة ضحلة مفرشة بالاحجار ، كانت مجرى لوحد من تلك السيول الهادرة التى تنحدر من الجبال بعد المطر ، وهى تزعج وتصلصل على مدى الناحية كلها ، ولكنها تنضب قبل ان تجف قطرات المطر على اوراق البندق .

كنا قد قطعنا شوطاً غير قليل من مسيرتنا عندما قررت ان اعرف اسم صاحبتى .

وصحت بالسروال الازرق الاصفر الذى كان يلوح بين اشجار البندق كالغراشة : - اى . . . ما اسمك ؟

وتوقفت الفتاة حتى حاذبتهما . فى هذا المكان كانت اشجار البندق اقل كثافة ، وتباعدت فظهر منظر البوغاز وقربتنا ، تلك الحفنة الضئيلة من المنازل الصغيرة . ومد البحر الضخم الرزين ميامه حتى الافق ، ثم اصبحت بعد ذلك خطوطاً ضبابية زرقاء عكرة خطت على صفحة السماء الواحد فوق الآخر . اما فى البوغاز فقد تظاهر بأنه وديع وصغير ، يلعب

فيمد يدها الشاطئ خيطاً أبيض لكى يسحبها ، ثم يعود يده . . .

واجابت الفتاة بتفكير :

- لست ادرى ماذا اقول لك . ان لى اسماً آخرق : نيكتورينا . ولكن الجميع يدعوننى فيثكا .

- يمكن ان تسمى فيثكا .

- آف ، يا للفرق ! - وأبرزت نايبها الحادثين بالصورة المألوفة .

- ولماذا ؟ ان فيثكا تعنى : البازلاء البرية .

- ويسمونها ايضا بازلاء الفتران . انا لا اطيع الفتران ! - حسناً ، فليكن فيثكا . اما انا فاسمى سريوجا . اما

زال اماننا طريق طويل ؟

- هل اقلست لاسنمر على كوخ الخطاب ، وبعدها سترى «السرج الكبير» .

ولكننا تعرجنا طويلاً عبر حرج البندق ذى الراتحة العسيلة الغائقة النفاذة . وأخيراً قادنا الدرب الى طريق صخري تلصق رماله الناعمة كمسحوق السكر ببريق أبيض ، افشى بنا الى نتر ، جبل عريض مائل . وهنا ، وسط هستان المسمى انمس كوخ الخطاب المبنى من الصلصال المعارى . وما كدنا نقترّب من هذا الكوخ المريح حتى مزق السكون بناج مسعور ، وانطلق نحونا كلبان ضخمان مشعثان لونهما أبيض مفير ، فتصلصل سلاسلهما المشدودة الى سلك طويل ، وقلّوا فى الهواء ، ولكنهما اتجرا لسانيهما الورديين ان خنقتهما الاطواق ، ونجا نيلحا أجس ، ثم اتاهارا على الارض .

وقالت فيثكا بدهوء :

- لا تخف ، لن يصلا اليّنا .

على بعد نصف خطوة قضقت انياب الكلبين ، ورايت اشراك الارقطين فى عرقفهما ، وحشرات القراد بحجم حبة الفول على قصبيتهما الانفية . الا عيونهما فقد غاصت فى الشعر . والغريب ان احدا لم يخرج من كوخ الحراسة لكى يسكت الكلبين . ولكن بالرغم من تهجمهما وشدهما السلك

لم يستطيعا ان يصلا إلينا . وعندمما تأكدت أنا من ذلك شعرت بالسرور يدغدغني . وقادتنا مسيرتنا الى كهوف وصخور تسكنها أصوات غامضة ، ولم يكن ينقص الا الحراس الجبابرة ، تلك التنانين التي تسد طريق الشيطان الى الاسرار . وما هي ذى التنانين ، هذه الكلاب المشعشعة التي لا تبدو عيونها ، يخلوؤها المفتوحة الحمراء !

وما نحن نتخرج من جديد غير حرج البندق على درب ضاق حتى أصبح كالخندق . في هذه المنطقة لم يعد حرج البندق كثيفا كما كان في السفح ، فقد ينس كثير من الأشجار بينما قرص صرصور الغضب الصغير الأسود اللامع أوراق اشجاره الأخرى ، ولم يترك منها سوى شعيرات كخيوط العنكبوت . وشعرت بالتمتع فسخطت على فيتكا ، بينما سارت هي غير عابثة بشيء ، تخطو بساقها النحيلتين المستقيمتين كعصوين ، وركبتيهما المائلتين قليلا الى الداخل . وفجأة انكشف المكان أمامنا ، فראيت متحدرا يكسوه عشب ين قصير ، وفي الامام امتدت الى أعلى صخرة رمادية .

قالت فيتكا بلا مبالاة :

- هذا أصبح الشيطان !

وكلما اقتربنا ازداد التو ، الصخري الرمادي ارتفاعا ، وبدا وكأنه يكرر بدرجة لا تتناسب واقتربنا منه . وعندمما خطونا فوق ظلة القاتم البارد أصبح ضيقنا بصورة مبهلة . لم يكن ذلك أصبح الشيطان ، بل برج الشيطان ، كتيبسا ، غامضا ، عزيز الينال . وقالت فيتكا وكأنها تقرأ افكارى :

- أتدري ، لقد حاول اناس كثيرون ان يتسلقوه ، ولكن لم ينجح أحد . بعضهم كان يسقط مهشما ، والبعض الآخر يكسر يديه أو ساقيه . ولكن أحد القرنسيين تسلقه مع ذلك . وكيف استطاع ؟

- ميكذا استطاع . . . ولكنه لم يتمكن من الهبوط ، فقد عقله هناك ، وبعد ذلك مات من الجوع . . . - وأضافت بتفكير - ولكنه جدع !

واقتربنا من أصبح الشيطان حتى كدنا نلامسه ، فقالت فيتكا وقد خفت صوتها :

- هنا . . . - وخطت بضلع خطوات الى الخلف ثم صاحت بصوت غير مرئع :

- سرىوجا !

«سرىوجا ! !» . رددها في أذني تقريبا صوت ساخر متسلل ، كأنها ولد في اعماق أصبح الشيطان !

وانتفضت ، وابعدت لاشعوريا عن الصخرة ، واذا بي اواجه صوتا كالزئعة الرنانة قادمًا من جهة البحر :

«سرىوجا . . .» .

وجهدت في مكاني ، وهناك في الاعلى نلت آهة مريرة ملتاعة :

«سرىوجا . . .»

فقلت بصوت حبيس : يا للشيطان !

«يا للشيطان» هففت فوق أذني .

«شيطان . . .» هبت من البحر !

«شيطان . . .» ترددت في الاعلى :

وكان يبدو ان لكل واحد من هؤلاء الساعرين المختلفين لمبعه الثابت والعرب بعض الشيء . فاليامس كان شخصا هادئا هائكا متسللا ، والصوت القادم من البحر كان صاحبه ههجا باردا ، أما في الاعلى فقد اخفى منتخب منافق لا عزاء له .

وقالت فيتكا :

- ما بك ؟ صبح بشيء ما .

وقاطعت صوتها «هسة في أذني : «ما بك ؟» ، ورن صوت ساخر : «صبح» . . . وصوت كأنه مسن خلال دموع : «بشيء ما» .

وتماثلت نفسي بصعوبة وصمت :

- جزيرة الاحلام !

وسبغت الرد المثلث . . .

ثم صحت وقلت وهمسست بمختلف الكلمات . وكانت



أذان الصدى مرفعة للغاية . فقد قلت بعض الكلمات بصوت خافت للدرجة اننى أنا نفسي لم أكد اسمعها ، ولكنها وجدت دائما استجابة من الجبل . ولم أعد اشعر بالعرب . وفى كل مرة همس فيها الشخص المتخفى فى اذنى كنت اشعر بالقشعريرة فى عمودى الفقرى ، وعند سماع الصوت المنتجب كان قلبى ينقبض .

وقالت فيتيكا :

- وداعا !

وابتعدت عن اصبع الشيطان .  
واندفعت خلفها ، ولكن الهمس لحق بى مرددا كلمة الوداع بتسلسل مكرر ، وحقه البحر المتراكم ، وتارة الصوت فى الاعالى :

«وداعا . . .» .  
سرنا نحو البحر ، وسرعان ما وجدنا انفسنا على تواء صغرى ممتد فوق هاوية ، والى يسارنا ويمينا انتصب انسان الجبال ، وتحنا تشابت هوة تفرق فيها النظرة . ولو ان اصبع الشيطان غاص الى اعماق الارض ترك خلفه مثل هذه الفتحة الضخمة المخيفة . وفى اعماق الهوة كانت تبدو صخور مسننة ملساء كاتياب عملاق تضربها بشدة مياه البحر القادمة بلون الحبر . وحلق طائر باسطا جناحيه الساكنين بلا حياة ، ثم راح يسقط ببطء وفى دوائر الى الهاوية .

بدأ ان شيئا ما هنا لم يكتمل ، لم تتوازن تلك القوى الرهيبة التى انتزعت من اعماق الارض هذا الاصبع الصغرى العملاق ومزقت جلود الجبل فحشرت فيه بشرا مهولة ، وحدت قاعه باسنان الصخور ، واجبرت البحر على تمزيق لسانه الرقيق عليها . كان الجلود الصغرى كله حولنا وتحنا موعزا غير صلب ، فى حالة توتر داخلى مستمر ويطلع الى بلوغ منتهاه . . . وبالطبع لم استطع حينذاك ان اسمى ذلك الاحساس المعذب بالقلق الذى سيطر على وانا على حرف «المرج الكبير» . . .

استلقت فيتيكا على بطنها عند حافة الجرف تماما ودعتنى يديها ان احبذوا جذوعها . فتمددت بجوارهما على السطح الصغرى الدافئ الصلب ، فاختفت جاذبية الهوة الساحبة والياوية للبرودة فى الاطراف ، واصبح التجديق الى اسفل فى غاية السهولة . وانحلت فيتيكا فوق الجرف وصاحت :

- او هو - هو !

لحظة صمت ، ثم دوى كالقوق صوت غليظ مزعج :

«او هو - هو - وو . . .»

ولم يكن فى هذا الصوت شئ، عرعب بالرغم من قوته وغلظته ، اذ يبدو ان ساكن الهاوية كان ماردا طيبا لا يبغي بنا شرا .

رسالته فيتيكا :

- من كانت اول حواء ؟

فاجاب المارد ضاحكا بعد تفكير قليل :

«حواء . . .»

قالت فيتيكا وهى تنظر الى اسفل :

- اتدرى ، لم يستطع احد ان يهبط من المرج الكبير الى البحر . وقد هبط اقدمهم مرة الى منتصف المسافة ثم انعصر هناك . . .

وسألها هائلا :

- ومات من الجوع ؟

- كلا ، لقد ادلوا اليه حبالا وشده . . . ولكنى اعتقد ان الهبوط ممكن .

- هيا نجرب ؟

- هيا . . . - ردت فيتيكا بحيوية وبساطة فاذركت انها جادة .

فترجعت هازحا وانا مخرج :

- فى مرة اخرى .

- اذن هيا بنا . . . - ثم صاحت فى الهاوية : عليك السلام ! وقفزت واقفة على قدميك .

«سلام . . .» زمجر المارد .

وكنيت أود أن أطيل معه الحديث ، لكن فتيكا سحبتني  
مبتعدة .

أما الصدي الجديد والذي وصفته فتيكا بأنه «رنان  
كالزجاج» فكان يعيش في شعب ضيق كأنه شق سكين .  
وكان صوت الصدى رقيقا نقادا ، وحتى الكلمة التي تلفظ  
بصوت غليظ ، كانت ترفع حتى تصبح زعقة . والأمم المنفر  
الأخر أن الصدي بعد أن يرد زده الزاقي ، لا يصمت ، بل  
يواصل طويلا في شقوقه زعيقه الذي يشبه صرير القتران .

لم نتوقف طويلا عند هذا الشق وعطينا قدما . كان  
علينا الآن أن نتسلق فوق منحدر شديد ، يغطي العشب  
البنى الصلب والاشواك تارة ، وتارة أخرى يلوح عاريا  
مصقولا أملس . وأخيرا وجدنا انفسنا فوق نتوء جبلي  
تراكمت فوقه كتل صخرية ضخمة . وكانت كل كتلة تشبه  
شيئا : سفينة أو دبابة ، أو ثورا ، أو رأس عملاق  
أسطوري ، أو محاربا مجنلا في دروعه ، أو مدفعا ساحليا  
مجدوع القوة ، أو جملا أو فم أسد يزار ، وأحيانا تشبه  
أشلاء مارد مبعثرة : أنفا معقودا ومخارة آفن ، وفكا بلحية ،  
وقيضة هائلة ما زالت على حالها مشدودة ، وقدا غارية ،  
وجبهة بخضائل شعر مجعد . . .

كانت كل هذه الأحياء المتعجرة ، وأجزاء الأحياء ،  
والعواد المتقصصة لباسا حجرياً ، تتبادل فيما بينها الكلمة  
التي تلفظ وسطها وكأنها تتبادل كزة بسرعة خاطفة واختصار  
حاد ، عاكسة الصوت على جنباتها ، وهنا بالذات كان يسكن  
الصدي «البازلاني» . . .

أما أقرب صدي فهو ذلك الذي لم تذكر في فتيكا عنه  
شيئا . ولم نذهب إليه سيرا على الأقدام ، بل زحفنا على  
مرتفع شديد الانحدار ، متشبثين بالنوتات والعشائش  
الصخرية والنباتات اليابسة . ومن تحسنت أيدينا وأرجلنا  
تخدرت الأحجار الصغيرة جاذبة خلفنا أحجارا أكبر ، وترددت  
وراءنا خشخشة متواصلة . وعندما التفت ، دهشت لألمة  
ذلك الارتفاع الذي أدار رؤوسنا حين كنا فوق الجرف .

لمن هذا المكان لم يعد البحر يبدو سطحا مصقولا ، لقد كان  
بلا نهاية ، لا يحده البحر ، واتحد مع السماء مكونين مجالا  
واحدا : قبة تسمى فوق الآفاق المرليسة كلها . وأصبح  
الشیطان انكمش حتى أصبح مجرد نتوء ، مؤكدا بذلك مدى  
ارتفاعنا .

وتوقفت فتيكا عند غور نصف دائري مظلم يقضي إلى  
قلب الجبل . ونظرت إلى الداخل ، وعندما اعتادت عيناها  
الظلمة بعض الشيء ، رأت كهفا مقوسا تتدلى منه عروق  
صخرية طويلة كاللحم ، وانبعث من الجدران وميض أخضر  
وأخضر وأزرق ، وهب من الكهف غطر السرايب فاشبهت  
برجيج بحركة لا إرادة .

وصاحت فتيكا وقد دسرت رأسها في الفتحة :

— السلام عليكم .

وكما لو أن براميل فارغة تصادمت وقاومت ، ترددت تحت  
عند الكهف صوت مكتوم : «بم» وجلبج في أرجائه ، وأخيرا  
انفلتت إلى الخارج آهة خفيفة ، وكان الجبل لفظ انفاسه .  
وتطلعت إلى فتيكا بانهار مقرون بالاحترام ، هذه الفتاة  
التيجة ، بوجهها المغلف بالتمش وشعرها البكتناني  
الاشعث ، وتابيحها العادتين في زاويتي القم وعينيها  
القضراوين البراققتين . . . بدت لي الآن أسطورية كهذا  
العالم الغامض الذي قادتنى إليه .

وأمرتنى فتيكا :

— هيا ، صعد !

فانحيت و«تأومت» في فم الجبل الأسود الصغير ، ومن  
جديد ترددت هناك آهة وجلبة ، ثم زفر الجبل في وجهي  
يردا عطشا قادم من عالم آخر . وقبحة داغمني شعور مضطرب  
بالوحدة والعجز وسط هذا العالم الصخري الثقيل ، عالسم  
الجرف والشفوق المسكون بالأصوات الموحشة الغامضة .

فقلت لفتيكا وأنا اقشع اضطرابي :

— هيا . هيا فغادر هذا المكان .

كان طريق العودة بالنسيبة التي أحساسا بالسقوط

الالهائي الى اسفل . وعلى هذا الطريق ظهرت بجوارنا من جديد المتبقرة العجربة واصبح الشيطان وحرج البندق المريض المقرض وكلبا الحطاب القافزان بسلاسلهما وقد بع صورتهما من الاختناق ، وحرج البندق الاثر الممتلئ قوة . ثم انتهى سقوطنا فجأة عندما بلغنا الاغود الجاف الذي يتأخم القرية من ناحية الجبال .

وعندما وصلنا الى شارعنا ساللني فينكا :

- مه ، ألم يكن الامر طريقا ؟

وشعرت من جديد يهدوئي المعتاد ، ولم تعد فينكا تبدو لي سيدة الارواح الجبلية الاسطورية بل غدت فتاة خيالية قبيحة يخلو فيها من عدة اسنان امامية ، وامام هذه الفتاة بالقات اظهرت جيني !

فقلت بتكاسل :

- طريف . . . ولكن هل تعتبر هذه مجموعة ؟

- الا يهيك الا ما تضعه في علبة وتدسه في عيك ؟

- كلا ، لماذا . . . لكن الصدى يستجيب للجميع

وليس لك وحدك .

ونظرت فينكا الي نظرة غريبة طويلة ، ثم قالت وهي تنفض شعرها :

- فليكن . . . اننى لا ابخل بذلك .

ثم اتجهت الى منزلها .

واصبحتا صديقتين ، فكنا نتسلق معا جبل «توروك كايا» وجبل «العرس» . وفي احدى مغاور جبال العرس وجدنا الصدى التناقض . امّا توروك كايا بأسنانه ومنحدراته الضخمة وقمته المشرعة الى السماء فكان مجديبا تماما من الصدى .

ولم تكن نفترق تقريبا ، وتعودت على ان تسبح فينكا عارية . لقد كانت اخا ورفيقا طيبا ، ولم انظر اليها قط كفتاة . وكنت اظهم طبيعة علم حياتها فها غامضا : فقد كانت فينكا تعتنق نفسها قبيحة قبيحا لا أمل في اصلاحه . ولم اقابل قط شخصا يعترف بقبحة يشغل هذه البساطة وهذه

الصراخ وهذا الاعتزاز الواضح . فذات مرة كانت تحدثنى ان احدى صديقاتها في المدرسة ، فقالت بلا مبالاة : «لا ، انها مشوهة تقريبا ، مثل تماما» .

وذات مرة كنا نستجم بالقرب من مرغا الصيادين عندما انتحرت من الشاطئ المرتفع عصاية من الصبغة . كانت معرفتي بهم بسيطة ، وفشلت كل محاولاتي الخجولة للتقرب اليهم . ولم يكن هذا أول عام يسطاف فيه هؤلاء الصبغة في جزيرة الاحلام ، لذلك اعتبروا انفسهم من السكان القدامى ولم يسمحوا للغرباء بالانضمام الى عصابتهم . وكان زعيمهم هو ذلك الصبي الطويل القوي المدعو إيجور .

كنت قد خرجت من البحر ووقفت على الشاطئ اجفف جسدي بالمنشفة بينما واصلت فينكا لوهوها في الماء . وترقبت قدوم موجة فقصرزت عاليا وانزلت على بطنها فوق سيف الموجة ، ولعلت اليهاها الصغيرتان .

زد الصبغة على تحتي بلا اهتمام ، وكانوا على وشك المرور لو لا ان احدهم ، وكان يرتدي مايوهها احمر ، لاحظ فينكا فجأة .

- انظروا يا صبيان ، فتاة عارية !

وعلى الفور دب هرج ومرج . صراخ وصفير وصيحات استنواء . ولكني يجب ان اقدر فينكا حق قدرها ، اذ لم تعبأ بتهور الصبغة غير ان هذا زاد النار اشتعالا . واقترح الصبي ذو المايوه الاحمر ان «يقصروا رجل الفتاة الى راسها» فقبول الاقتراح بحماسة ، واتجه ذو المايوه الاحمر نحو الماء متهاذيا . ولكن فينكا انحلت بسرعة الوحش وتحسست شيئا في الماء . وعندما اعتدلت كان في يدها حجر ثقيل .

- اياك ان تخطو - قالت وقد كثرت عيّن نايبها العادتين - ساحشهم سمحتك !

واتوقفت الصبي ذو المايوه الاحمر وجس الماء يقدمه :

- يآزد . . . قال الصبي وصارت اذناه أشهد

احمرارا من مايوهه - ليس لي رغبة في النزول . . .

واقترب إيجور وجلس على الرمل على حافة الشاطئ ،



ودونما حاجة الى كلام فهم الصبى ذو المايوه الاحمر زعيمه  
فجلس بجواره ، وتبعهما بقية الصبية ، فشكلوا سلسلة  
فصلت فينكا عن الشاطئ حيث ملاسها ومنشقتها .

واختبرت فينكا صبرهم لمدة طويلة ، فلطوا تنوغل  
بعيدا في البحر وطورا تصعد الى الوراء ، وتغوص وتثبت  
بالماء ، ثم جلست بعد ذلك على حجر غائص في البحر وهي  
تسحب الامواج نحوها بيديها . ولكن البرد انتصر عليها فسي  
التهاية ، فصاحت :

- سميروجا . . ناولي سروالي .

وطوال هذه المدة كنت اجفف جسدي بالمشقة دون ان  
الاحظ ذلك . والتهب جسدي من جراء الحك وكأنه احترق ،  
بينما ظللت احكه واحكه وهو جاف وكأنني اريد ان اسلخه .  
وفي غمار الحيرة البالغة الوضعية التي داهمتني ظل يتردد  
داخل امل واحد واضح : ان ابقى بعيدا عن فضيحة فينكا !  
وقال ذو المايوه الاحمر بصوت رفيع هازي :

- سميروجا . - ناول سيدتك سروالها !

- ودار ايجور مرتكزا على مرفقه وقال متوعدا :

- اياك ان تحاول !

تحذير بلا معنى ، فما كنت لاناوى التحرك من مكاني .  
وأدركت فينكا عيب انتظار مساعداة مني فخرجت من الباء  
مقلقلة بشكل يدعو للراء ، وكشفت جسدها كله في بطنها  
التحيل ، سائرة اياه بيديها ، مزقة اللون محببة من البرد ،  
مقلوبة السحنة ، وركضت بجنبها نحو سروالها بين ضحك  
الصبية وصغيرهم ، واصبح الامر الذي لم تكن تلقى له بالا  
في اعماق روحها الطاهرة وضيقا ومهينا ومغزيا .  
وارتدت ملاسها كيفما اتفق وهي تقف على احدى قدميها  
بينما القدم الاخرى لا تدخل في فتحة السروال ، ثم التفتت  
منشقتها من الارض وركضت مبتعدة . وفجأة التفتت الى  
وصرخت :

- جيان . . جيان . . جيان حقير!

من بين جميع الكلمات اختارت فينكا اكثرها اذاء وامانة

وظلما . لقد كان عليها ان تفهم ان ما خشيته لم يكن  
تبضات ايجور ، ولكن يبدو انها ارادت ان تفضعني تماما  
أمام الصبية .

ولست ادري هل كانت هذه احدى نزوات الزعيم الذي  
لم يشأ ان ينساق وراء القطيع ، ام ان شينا ما في فينكا  
أثار اهتمام ايجور ، فقد سألني فجأة بسودة وثقة :

- اسمع . . ما بها ؟ اهي معتوة ؟

- طبعيا معتوة - اجبت فانها صدري لهذه الطلية .

- ولماذا تصاحبها ؟

فقلت لا رغبة في مدح فينكا بل لاحبي نفسي :

- صداقتي مسلية ، فهي تجمع الصدى .

- ماذا ؟ - قال ايجور باندهاش .

فأضيت له في الحال بكل اسرار فينكا في دفقة صراحة  
معتة وطليعة .

قال ايجور باعجاب :

- يا سلام ! هذا ثالث صيف اقضيه هنا ، ولم اسمع

شيئا من هذا القليل .

وسألني الصبى ذو المايوه الاحمر :

- اليست هذه قشرة ؟

- اذا شنتم افرجكم .

- انتهينا - قال ايجور بلهجة السيد فداد من جديد  
زعيمًا - قدأ تقودنا الى هناك ! . . .

في الصباح كانت الدنيا تمطر رذاذا ، ولف الجبال  
سحاب ابيض مائل الى الزرقة كأنه غوة صايون ، واختلط  
عدير الجدول والنهيرات المتسللة مع صخب البحر المكفهر  
العاصف الذي يشبه لون العشب الجبل .

غير ان عصاة ايجور قررت ألا تتراجع . وها هو  
الهرب الذي صار معروفًا يتعرج من جديد تحت اقدامنا ،  
رني وسطه يجري جدول اصفر شكر يدع في طريقه  
العصى . ولم تعد رائحة حرج البندق عسلية حلوة بها طعم  
مرارة خفيفة ، بل أصبحت عطنة بفعل الاوراق التي سقطت

على الارض وحامضة من جراء التربة الموحلة التي كان يتحلل فيها شيء ما ، باعنا رائحة خمر مختلط بخل . كان السيير شاقا والاقدام تنزلق على الارض المبللة والاحجار . . .

وبجوار كوخ الحطاب قوبلنا بنباح كلبي الحراسة العالي المألوف . لكن نباحهما كان يتردد في الهواء الرطب اكثر بعمرة وانخفاضاً ، وحتى الكلبان ذاتهما لم يعودا يبدوان رحيبين الى تلك الدرجة بشعرهما المبلل المتهدل . وظهرت عيونهما السوداء كجبات الزيتون .

وما هو حرج البندق المريض الموبوء بصرسور الخشب ، وقد نزع الهواء والمطر وريقاته الضعيفة المنقوبة فوق غاريبا بانسا ، ومن خلاله ظهرت صفحة البحر المكشوفة .

وظل اصبح الشيطان المألوس بالسحاب مغتلبا خترة طويلة ، واخيرا لاحت قمته الداكنة في الاعالي المشاهدة ثم اختفت . ولحظة خاطفة ظهر جذعه بالكامل ، وفي لحظة ذاب في الهواء المتصاعد . والغريب ان الريح كانت تهب تجاه البحر ، بينما سحب خفيفة كبحار الزئير جاءت من ناحية البحر ، وانزلت على الارض وغطلتنا بضباب رطب ، ثم اختفت فجأة وتحوّلت الى ندى استقر على المنحدرات .

واخيرا ظهر اصبع الشيطان من بين السحب المليدة وسد علينا الطريق .

وقال ايجور دون ان يتيسم :

— هيا ارضا معجزاتك .

— اسمعوا ! . . . قلت بنشوة وشعرت بالبرودة المألوفة تسري في عودى الفقري ، وصنعت من راحتي بوقا حول فمي وصحت :

— أو هو — هو !

كان الرد سكونيا مطلقا ، لا ذلك الهمس الماكر المتسلل ، ولا الرشة المنقطة من جهة البحر ، ولا الانين في الاعالي .

— أو — هو — هو ! — صحت مرة اخرى وقد اقتربت

اكثر من اصبع الشيطان ، وكرر الصبية ندائى بأصوات متفرقة .

وظل اصبع الشيطان صامتا . وصننا مرة ومرة دون ان نخطي باية اجابة ! عندئذ اندفعت نحو الهاوية والصبية من ورأى وصرخت بكسل ما في من قوة في الاعماق المليئة بالابخرة المتصاعدة . غير ان المارد ايضا لم يزد على .

واستولى على الاضطراب ، فركضت من الهاوية الى اصبع الشيطان ، ومن اصبع الشيطان الى الشق الضيق ، ثم ثانية الى الهاوية ثم الى اصبع الشيطان . . . لكن الجبال ظلت صامتا . . .

واخذت اقنع الصبية باستعطاف ان تصعد الى اعلى ، الى المغارة ، فهناك حتما سنسمع الصدى . لكن الصبية وقفا امامي صامتتين صارمين كالجبال ، ثم فتمسح ايجور شفثيه المضمومتين ليقول كلمة واحدة فحسب :

— ثرثار !

واستدار بحدّة وابعد ، ساحبا العصاة كلها خلفه . وجرحرت قدمي ورائهم محاولا عينا ان افهم كنه ما حدث . لم يكن يهمني الآن احتقار الصبية لي ، بل اردت فقط ان اعرف سر فضيلي . امن المعتقد ان الجبال لا ترد الا على صوت فيثكا ؟ ولكن الجبال جاوبتني انا ايضا بكل طاعة عندما كنا معا . لعل فيثكا تملك حقا مفتاحا يمكنها من حبس الاصوات في كهوف الجبل ؟

وحلت ايام حزينة . لقد فقدت فيثكا . وحتى اُمي اداننتي . وعندما حدثتها عن واقعة الصدى الغامضة رمتني بنظرة جفاء طويلة فاحصة وقالت بحزن :

— الامر بسيط . ان الجبال لا تـرد الا على الاطهار الشرفاء . . .

وكشفت لي كلماتها عن اشياء كثيرة ما عدا لغز الصدى الجبل .

ولم تكف الامطار عن الهطول ، وبدا كمن لو ان البحر انقسم قسمين : فقد كان في البوغاز اصفر عكرا من جراء

الرمال التي جرفتها الانهار والسيول ، بينما لمع جسده النظيف في البعد . وهبت الرياح بلا انقطاع ، في الصباح تلوّح بملاء رمادية من الاقطار ، وفي الليل - الذي كان دائما صحويا مرصعا بالنجوم البيضاء الدقيقة - تصبح سوداء وجافة ، لانها لا تكشف عن وجهها الا في السواد ؛ في التروع والغصون والجذوع المتأرجح ، وفي الظلال السوداء كالقلم الراكضة على الارض المضادة .

ولمحت فيتك عدة مرات . كانت تخرج الى البحر في كل حالات الجو ، واستطاعت ان تجمع من الشمس النادرة الصحيحة سمرة غليظة كالشميكلات ، ومن الملل والوحدة رحت ارافق امي كل يوم الى السوق ، حيث كانت تباع المنتجات المحلية : الخضروات والشمس ولبن الماعز واللبن الرائب ، وفي احدى المرات قابلت فيتك في السوق . كانت وحدها ، تتدلى من يدما حقيبة معدولة . واخذت انظر اليها وهي تسير بين الصواني وأوعية اللبن ، في سروالها الاصفر الازرق المخطط ، وتختار بحزم حبات الطماطم وتلقى على الميزان قطعة اللحم ، فأحسست والالم يعصرني انني فقدت صديقا طيبا .

في صباح اول يوم مشمس كنت اتجول في الحديقة اجمع ثمار الشمس الساقطة والتي اصباها تمنع بسيفل عندما دعاني شخص ما . وعند باب السور وقفت فتاة ترتدي بلوزة بيضاء بياقة بحاري زرقاء وجوب زرقاء . لقد كانت تملك فيتك ، ولكني لم اعرف عليها للوهلة الاولى ، كان شعرها الأشهب مصففا ناعما ومعقوصا مسنن الخلف بشريط ، وعلى عنقها الاسمر عقد مرجاني رقيق ، وفي قدميها حذاء من جلد الابل . واندفعت نحوها .

قالت فيتك :

- اسمع ، نحن راحلون .

- لماذا ؟

- امي ملت الإقامة هنا . . اسمعني . . انني اريد ان اترك لك ميجوغي ، نانا على أي حال لست بحاجة اليها ، وتستطيع انت ان تعرضها على الصبية وتتصالح معهن .

فصحت بحرارة :

- لن أعرضها على أحد !

- كما تشاء ، فلتبق لديك . . هل أدركت لماذا لم توفقوا ؟

- وكيف عرفت أننا لم نوفق ؟

- سمعت . . هل أدركت لماذا ؟

- كلا . .

- اتفهم . . أهم شيء هو اختيار المكان الذي نصيب منه . . وخففت فيتك صوتها موجية بالثقة - عند اصبح الشيطان صبح فقط من جهة البحر ، ولكنك فيما يبدو صحت من الجهة الاخرى حيث لا صدق هناك . وعند الهاوية عليك ان تتدلى الى اسفل وتصيح مباشرة في العائط . اذكر . . لقد جعلتك ساعتها تخفض رأسك . . وعند الشق الصغير صبح في الداخل لكي يصل صوتك الى الاعماق ، اما المغارة فتزداد الصدى دائما ، غير انكم لم تذهبوا اليها . وكذلك عند الصخور . . .

وشرعت اقول بئس :

- فيتك ! . . .

وتقلص وجهها النحيل :

- ساجري والا فائتي الباص .

- هل ستقابل في موسكو ؟

فهزت فيتك رأسها نفيا :

- نحن نسنك في خاركوف .

- وهل ستجيبون الى هنا مرة اخرى ؟

- لست أدري . . حسنا ، الى اللقاء .

وامالت فيتك رأسها على كفها بنجل وانطلقت راکضة . ووقفت امي عند باب الحديقة ونظرت في أثر فيتك نظرة طويلة مفعنة ، ثم سألتني بشيء من الفرح :

- من هذه الفتاة ؟

- انها فيتك التي تقطن عند العمة تاراكانيجا .

فقال امي بصوت عميق :

- يا لها من مخلوقة ساحرة !

- كلا ، قلت لك انها فيتك !

- لمست صمما . . - ونظرت اُمى من جديد الى الجهة التي ركضت نحوها فيتك - يا لها من فتاة رائعة ! هذا الانف الاقوى ، والشعر الرمادي ، والعيان المدعشتان ، والقوام المشقوق ، والقدمان الصغيرتان ، والراحتان . . .

فصرخت مغرورا لهذا العمى الغريب الذي اصاب اُمى ، والذي بدا لي مهينا ليفيتكا بشكل ما :

- ماما ، ماذا تقولين ! لو انك رايت فيها !

- فم كبير رائع ! انت لا تفهم شيئا على الاطلاق . . . واتجهت اُمى الى المنزل ، بينما ظلت احدق في ظهرها لعدة ثوان ، ثم افقت وانطلقت واكضت نحو محطة الباص .

لم يكن الباص قد تحرك بعد ، وكان آخر الركاب يقتحمون الابواب محملين بالحقائب والامثلة . وعلى الفور رايت فيتك جالسة في العجلة المظلمة ففتح نوافذها . وبعوارها جلست امرأة ممتلئة ، سوداء الشعر ، ترتدى ثوبا احمر ، امها .

ورأتني فيتك ايضا . فامسكت باطار النافذة لكي تفتحتها ، لكن امها قالت لها شيئا ما وامسكت كتفها وهي تريد على ما يبدو ارغامها على الجلوس في مكانها ، لكن فيتك تخلصت من يدها بحركة خادعة .

وزار المحرك ، وزحف الباص ببطء فوق الطريق الترابي صاحب خلفه ذيلا ذهيبا من الغبار . وسرت بعوارها ، وشدت فيتك الاطار بقوة وهي تعض على شفتيها فانفتحت النافذة بعجلة . كان من الاسهل على ان اعتبر فيتك جميلة في غيابها ، فتابعا الحادثان ونمשהا الداكن المنتشر على وجهها كله افسد تلك الصورة التي اعادت اُمى خلقها وامنت انا بها .

وقلت بسرعة :

- اسمعي يا فيتك ، لقد قالت اُمى انك جميلة . شعرك جميل ، وعيانك وفمك ، وانفك . . . - وازدادت

سرعة الباص فركضت - ويداك ، وساقاك ، صميج يا فيتك !

ولكن فيتك ابتمت فقط بفمها الواسع بفرح وايمان واخلاص ، فكشفت في هذه الابتسامة الكبيرة كل روحها الطيبة . وفي هذه اللحظة رايت بعيني ان فيتك هي حقاً اجمل فتاة في العالم .

وعبر الباص وهو ينو ، بثقله فوق جسر خشبي مقام على نهير صغير هو حدود جزيرة الاحلام ، فتوقفت عن الركض ، وضع الجسر وتاريجج ، غير ان عجلتي الباص الاماميتين كانتا قد تشبيحتا بالطريق ، وظهر رأس فيتك من جديد في النافذة بشعرها الرمادي المتطاير مع الريح وعرقتها العاد الاسمر . واشارت لي فيتك ، ثم قذفت بكل قوتها قطعة نقود فضية عبر النهر . ولمع أثرها البراق في الهواء وانطفا في التراب تحت قدمي . لقد كان هناك فال طيب ، وهو انك اذا القيت هنا قطعة نقود فلا بد انك ستعود يوما . . .

واصبحت اود ان يحل يوم رحيلنا باسرع ما يمكن ، وساعتها سألني انا ايضا بقطعة نقود ، وهكذا التقى بشيكتا مرة ثانية .

غني انه لم يقدر لهذا اللقاء ان يتم ، فنعما رحلنا عن جزيرة الاحلام بعد شهر ، نسيت ان التي بقطعة النقود .



ينفذ لإراديا أمر الطبيب : كل منسا يتعلق بالمرض اتركه  
هنا ، لا تأخذ معك الى الخارج شيئا ، لا نحن ، اطباءك ، ولا  
ذكرى جو المستشفى ، ولا آلامك الخاصة ومخاوفك  
وشكوكك . كل هذا مرحلة تتجاوزتها ، ولن يكون عليك ان  
تواجه بعد الآن ما كان يمثل المحتوى الرئيسى لحياتك فترة  
طويلة . لا تترقق قلبك بتفانيات لا لزوم لها . يا لها من  
نصيحة رائعة ! ولقد سار كوستروف عليها بالفعل ، فكان  
لا يدع ما يراه يدخل الى نفسه ، ولا يستجيب لشيء غير  
السما ، فهي في جميع الاحوال مستلقاة في الخارج بنفس  
الصورة التى تبدو فيها من نافذة المستشفى هذه .

نعم ، لقد خلّصت ذاكرته من كل عبء ، حتى من الامتنان  
لأولئك الذين انقذوا حياته . فعلم يتبعى ان يشكرهم ؟  
هل حقا انقذوا الاطباء من الموت ، هو كوستروف ، الفريد  
الذى لا يتكرر ؟ كلا ، بل قاموا بتجربة اخرى من تجاربهم ،  
تجربة مخيفسة بعض الشيء فى جسارتها ، وظهر انسه ،  
كوستروف ، فار تجاوزت قابل للحياة بصورة مدممة ، أرضب  
سعيد الحظ . فقد كان أول حيوان تجارب يعيش الى النهاية ،  
حتى وفاته بعد عمر طويل والى لا دخل للتجربة فيها . لقد بقي  
حيا وأصبح اعظم اثاره شهدها العصر . أول انسان يعيش  
بقلب آخر .

بالبيع كان له اسلاف ، فكم مرة نبضت القلوب البشرية  
في صدور آخرين ، ولكن هذا الوجود الوهمى لم يقدر له  
ان يصبح حياة . فبعد ان تعيش اشباه البحث الحية من بضع  
ساعات حتى بضعة أشهر ، كانت تتحول الى جثث . كانوا  
جميعا مجرد حملة اصطناعيين لقلوب غريبة . اما هو فكان  
أول من تحققت فيه معجزة التجام عناصر احد الاشخاص  
بعض قلوب شخص آخر . نعم ، تحققت ، ولم يعد في ذلك  
أذى شك منذ زمن بعيد ، ولم يكن احتفاظهم به فى  
المستشفى من اجل مصلحته الخاصة ، بل من اجل المصلحة  
العلمية . ومع ذلك فقد خيل اليه أحيانا ان طبيبه المعالج  
لا يبدو واثقا من صلابته النفسية وتهيبته للحياة بقلب آخر .



## قلب آخر

وقف كوستروف يجوار النافذة يحدق في فناء المستشفى .  
أو بالأحرى في ذلك الركن الصغير المحصور بين جدار قسم  
الجراحة الأصفر المتساقط الطلاء وبين البوابسة الحديدية  
الصدئة الموصدة دوماً . وفي هذه البقعة من الكرن أوت  
كذلك شجرة نحيلة قصيرة ، عارية من الأوراق في هذا  
الوقت المبكر من الربيع . ولم يكن كوستروف يعرف نوعها .  
وكان خلف الشجرة سباب يبدو وكأنه جزء من الجدار ،  
وبالقرب منه جرة قمامة مقلوبة على جنبها . وفوق كل ذلك  
امتد قماش السماء الأزرق المتساوى المشدود . ظل  
كوستروف يحدق في الفناء زهاء نصف ساعة . بيد ان أدراكه  
لما يراه لم يتعمق ولم يصبح أكثر قرباً . ظل الجدار الأصفر ،  
والبوابة ، والياب ، وحتى الشجرة الحزينة ، غريبة عنه .  
ربما كانت السماء وحدها هى التى وجدت في نفسه استجابة  
ضعيفة ، كانها لحن شبه منسى سمعه في أيام الصبا . كان

وقد سألته كوستروف بصراحة : «ما الذى تخشاه ؟» وبدأ ان الطبيب كان يتوقع هذا السؤال ، ومع ذلك لم يكن مستعدا له . ففى صوته العميق الغليظ ظهر لأول مرة شرخ عدم ثقة : «هل قرأت رواية السيرة الذاتية لبيرت فريون ، الرحالة الدانسكرى المشهور ؟» - «كلا ، بل ولم اسمع حتى عنه» - «انه يروى عن شخصى مهتر مهتر الطبع وأصبح من رواد القلب . . . فقد جرى الى العيادة التى كان يحل فيها هذا الطبيب بعامل اصيب فى حادث اصابته بالغة . واستمر الصراع المضنى من اجل حياته شهورا طويلة . لم يكن فى جسد المسكين موضع سليم ، فجمعوا اشلاء قطعة قطعة ، وخطوها ولصقوها . وعندما خرج من باب العيادة بخرات مزعجة غير واثقة لانسان نسي الحركة والراحة ليستقبل النور والشمس والحياة ، وقف جميع الاطباء والممرضات والممرضين يودعون بالموع هذا الرجل الذى اعادوا خلقه . أما آدم الجديد فقد مضى بعير الشوارع ، فاذا بالسيارة الاولى والوحيدة فى كوتنهاجن تنقضى من خلف الناصية وتسحقه تحت عجلاتها ، واصيب الطبيب الشاب بخيبة أمل فى مهنته ، ومقت المدينة ، ورحل الى الابد الى جرينلند» .

وسأل كوستروف : «انت تقضى ان افقد حياتى التى اعيدت الي» على مثل ذلك النحو الأحمق ؟ على أى حال انما لست معرضا للموت تحت عجلات سيارة» . فدهش الطبيب وسأل : «ولماذا ؟» - «حسب نظرية الاحتمالات ، اذ لا يمكن لنفس القلب ان يتعرض لهلاك مرتين فى حادث سيارة» . لم يكن كوستروف يعرف عن «ألمية الروحى» شيئا ، اللهم الا ان سيارة شحن قلابة قد سحقته ، وشوهته إلى درجة لم تمكنهم من التعرف على شخصيته . ولم يكن مع القليل هوية ، ولم يأت احد الى الشرطة ليسأل عنه . ومن الجائز ان يكون ذلك كله رواية من تأليف المستشفي ، اذ ليس من المفروض ان يعرف المريض مصدر القلب الذى تقلوه اليه ، غير انه بهذا لكوستروف السبب ما ألهم لم يكذبوا عليه .

قال الطبيب : «لقد فهمت روايتى فوما حريا أكثر مما

ينبغي . اذ ليست حركة المرور هى وحدها مصدر الخطر» - «آه ، انت تقصد ان الخطر قد يكون في» أنا ، فى شطحات عقل ؟» - «عقلك لا بأس به ، المؤسف انك لم تقرأ كثيرا ، وتفاقت ضعيفة» . فقال كوستروف ضاحكا : «وهل ما قرأته قليل حقا ؟» - «اذا كنت تعنى روايات من نوع «كتور الملك سليمان» فان ما قرأته كثير للغاية ، ولكنى انكلم عن الكتب الحقيقية التى تؤهلك لفهم نفسك وما يجرى حولك . . . حسنا ، لا تستغل بالك بالبحث الاخلاقى فى خبايا نفسك ، واننسى تلك الاساطير التى تسببها اجنال من التراث عن عضو بسيط وبدانى يدعى القلب . لقد اجريت لك عملية لا تختلف فى شيء عن عملية زرع الكلية على سبيل المثال . ان العلم سيتوصل فى زمن ما إلى اخلال وانبدال جميع الاعضاء ، وسيصبح ذلك شيئا عاديا . ولكنك اول حالة من هذا النوع ، وسيكون عليك ان تعيش بين أناس كثيرا ما يكونون فضوليين ولحوين وقليلى الذوق ، فلا تدع أحدا يغسد عليك حياتك ، وفذكري جيدا : ان القلب الذى يتنضى بهذه الروعة والانظام فى صدره هو قلبك أفت . لقد حصلت عليه عن استحقاق . فدعك تماما من أى غيبيات أو تحليلات نفسية دوسوفيسكية . عليك ان تبدأ الآن حياة جديدة رائعة . فانت لم تعرف ابداً فى حياتك ما معنى ان يكون الانسان فى كامل صحته . فلتحاول ان تستغل هذه الحياة الجديدة بصورة افضل ، فانت اول انسان يتاح له ان يبدأ صفحة نظيفة من حياته» .

وهكذا لم يترك كوستروف تماما ما الذى كان يخشاه الطبيب . يبدو انه كان يشقى صدام الصحة الجديدة بالنفسية القديمة التى سمعها طول المرض . وقرر كوستروف فى نفسه : «تفاقتى لا تؤهلنى لفهم كل ذلك ، انى لا اعرف حتى الكلمات التى يمكن ان افكر بواسطتها فى هذه الأمور . ولكنى اشعر ان هناك ما يستدعى القلق ، وان كنت لا استطيع ان احدد شيئا . . .»

وقع كوستروف فريسة للمرض منذ الطفولة . وفى

الواقع لم يكن صحيحا الا في عامه الأول ، عندما كان لا يزال تحت حماية قوى جسد الام الواقية . لكنه لا يذكر بالطبع عام الرضاعة هذا . فتحدث ذاكرته على التمسك باللوز : الكمادات على الزور ، ورطوبة الملامات البخارية الساخنة من حرارة جسده ، والرائحة الصغيرة وعليها الادوية ، وميزان الحرارة الزلق تحت الابط ، واصابع الطبيب الباردة وقمرض السماعة الزاحق على صدره وظهوره . ثم استاصلوا له اللوزتين فيما بعد ، فاختفى التهاب اللوز ولكن بعد ان فعل فعله الأسود ، فما ان بلغ العاشرة حتى اصبح مصابا برومايزم القلب المتكرر . وبدأ التردد على مصحات الاطفال . وبدأت طفولة غريبة ، غير حقيقية ، بجوار الموت ، مع فترات غيات مستمرة عن البيت والاسرة ، وشبه دراسة ، كثيرا ما تتخللها اسابيع بل اشهر من الرقاد بلا حركة ، طفلة خالية من كرة القدم والدراجة ، مع مراعاة لكل حركة . ومع كل صنوف الخوف : خوف ليلى لزج ، وخوف نهضى مقبض ، ينشعب افكاره في الملح في لحظات المرح القليلة والنسيان القصير . ولم يكن يعرف الى اى مدى يعانى وفاته مثل هذا الخوف ، اذ لم يتحدث الاطفال ابدا عن المرض . ولكنه كان يعرف انهم هم ايضا يعيشون فى ظل الخوف ، وفى وعى دائم بعاهتهم وتنقصهم واختلافهم عن الاطفال الآخرين الطبيعيين . وشغف بالقراءات التافهة ليكتب ما فى نفسه بروايات المغامرات كأنها مغدلات ، وكان يدرس بكميل وباحمال وهو لا يؤمن بأن علوم المدرسة مستقلة يوما ما . ولم يتقدم للاتحاق بالجامعة ، بسبل انهى دورة بسيطة فى الرسم الهندسى . واذا بصحته تتحسن على نحو مفاجئ . اختفى الضعف الدائم والعرق وتلاحق الانفاس والخفقان ، واصبح بوسعه الآن ان يصعد الى الطابق الثالث دون ان يلهث ، ولم يعد يستيقظ فى نصف الليل مفزوعا خائفا ان يكون قلبه قد توقف . لقد كشف جسد الضمى ، وهو يتحول الى جسد شاب بالغ عن موارد قوة خفية ، فأنم عن صدق بانه قد فاز بالورقة الرابعة الوحيدة والمستحيلة ، ورقة

النجاة ، وتزوج ، واخذ يستعد للاتحاق بالجامعة ، وهذا ، وهو على عتبة العام الثالث والعشرين من عمره ، حدث فجأة تدهور حاد ، اقضى به الى المستشفى ، ثم اصيب بامتسقاء وركود فى الدورة الدموية الكبرى ، وانتفاخات ، ثم الحكم الرهيب الذى كان يقرأه فى عيون الأطباء ، ثم الشفاء المبالغ عن طريق قلب آخر ، صحيح ، ينضخ فى صدره .

قلب صحيح بصورة مذهشة ، وهذا حكم كان بوسعه هو ان يصدره . ترى هل كان صاحب هذا القلب السابق يشعر بكماله كسعادة مستمرة ، ام انه لم يكن يعيره انتباهها ؟ وهل يشعر هو ، كوستروف ، بالفرحة من انفه ، واذنيه ، ومعدته ، ورئتيه ؟ كلا . غير انه يحس طوال الوقت بالقلب الجديد الذى يهبه تنفسا هادئا منتظما عميقا ، ونضبا مضبوطا كحركة بندول الايقاع ، ودغغنة هيجية خلف الكتفين ، كأنها ثبت هناك جناحان . وشيئ اليه انه لو ركض مندفعاً ثم قفز ، فسوف يطير ، فما اعظم الخفة والقوة التى تملكك جسده . جميع الحركات البسيطة التى كانت فى السابق جد مرهقة ، كالانحناء لربط الحذاء ، والتهنؤ من الغرائز بعد النوم . ورفع شئ . وقع منه على الارض . . . والتى كان ينبغي ان يدفع عنها تسارعا فى خفقان القلب ، وظلاما فى العينين يشبه الاغماء ، ورطوبة كريهة على اللجبين . . . أصبحت الآن تجلب له المتعة ، «واذن فهذه السهولة يحيا الناس!» وتصور المقاجات الكثيرة التى تنتظره بعد خروجه من المستشفى : الفز الى الترام وهو يتحرك ، والركض صعودا على السلم الى شرفته المتجاهلا المصعد . سيكون بوسعه ان يتردد على حمام السباحة المكشوف فى ميدان كروبريكسكايا ليستحم فى الصقيع محتفيا ببخاراه المتصاعد ، ويمارس تسلق الجبال . ستوف يشتري مضرب تنس باوتار مشدودة زائنة ، هذا المضرب الذى الهب خياله كثيرا فى ايام الطفولة ، ودراجة خفيفة ، معروفة كدراجات السباق . سيكون بوسعه ان يتسكع ما وسعه التسكع فى شوارع موسكو . وأن يرحل الى خارج المدينة ، ويجمع

الطير والثمار ، ويتشارك في العزلات السياسية ، ويمارس  
القتل ويصيد الأسماك . سوف يصرن جسده ويجعلنه  
كالحديد ، لكي يكون جديرا بالقلب الجديد العظيم . وسيأخذ  
من الحياة المدنية كل ما فيها ولا يترك شيئا ، ولن يدخن ،  
ولكنه يشرب شايًا شهيًا شربًا القويًا . والغنى .

ظن كوستروف ان الطبيب سيسعى الى رؤيته قبل  
مغادرته المستشفى ، ولكن ذلك لم يحدث . الظاهر انه تعمد  
ذلك . قطع الرسن ، وترك لكوستروف حرية دخول الحياة  
الجديدة بصورة مستقلة . ربما كان على حق . وهبط  
كوستروف دون ادنى ارتباك على درجات سلم المستشفى  
الممتدة الى هذه الحياة الجديدة . الى احضان امه وزوجته  
ودموعها ، الى ايديهما المتحسنة لوجهه وكتفيه في عجز .  
ومع ذلك شعر بشيء من الاسف لعدم رؤية الطبيب ثانية ،  
فقد بقيت امور لم يوضح عنها . . .

لم يفهم كوستروف لماذا تبكى هاتان المرأتان بحرقة ،  
ولماذا تشبعت ايديهما به على هذا النحو . إما انهما تخشيان  
ان يغتفى فجأة ، او تتسكان في حقيقة وجوده . وأحسن  
بفقدان الألفة ترحبهما ، وبالفور من دموعهما الباردة التي  
بغلت خديه وصدغيه ، ومن شفاههما الرطبة ، ومنظرهما  
غير المهتم بسبب التحجب . كانتا تعانقانه ، بينما هو  
يتطلع الى الباب الزجاجي الذي يمتد خلفه القضا ، الرحيب  
والهواء والشمس ، فتأق جهنم الى الانطلاق بأسرع ما يمكن  
الى هناك . وأخيرًا هذات المرأتان ، وأخرجت زوجته غلبة  
البودة ، واستولت امه على صرة ملابسه وحاجياتها واندفعت  
الى الشارع ، حيث كانت سيارة تاكسي في انتظارهم . وبعد  
صراع قصير - فقد ارام ان يجلس بجوار السائق ، بينما  
اجبرت امه على ان يجلس في المقعد الخلفي مع زوجته -  
تحرروا . واخذت زوجته يديه في يديها بقوة ، فبدأ له هذا  
الاحضان الحاد لا لزوم له . لم يشعر بميل الى الملامسات  
واستعراض الثوب . كان يحس بالقرب تجاه الشارع ،  
والترامات ، والثرولي باصات ، والبيوت ، والحشود ، وبانح

البالونات الهوائية ، وباتعات الايس كريم . وراكبي  
الدراجات ، والاطفال ، ومنطلقى الاحذية ، تجاه اشجار  
الزيتون والجوز المارية ، تجاه كل ممثل حي او حياد للعالم  
الخارجي . ولكن هذا القرب لم يكن يشمل هاتين الجالستين  
بجواره في غلبة التاكسي الحديدية . وراوده احساس ،  
وكان كلا المرأتين - العجوز والشابة - قبل فراقهما عليه  
سلطان حنايتهن مماوسه لنق مشكوك فيه ، معروف لهما  
وحدسهما . ولكن كان غائداً من رحلة جد بعيدة بحيث يغمرط  
بهذه البساطة في الحياة السابقة .

وقالت امه باكية :

- مالك لا تسأل عن شيء ؟ قصمت كارك غريب . .

فقال كوستروف بدهشة صادقة :

- نعم ينبغي ان اسأل ؟

- حسنا ، عن حياتنا بدونك . . عن اصدقائك ، عن

احوال المصنع . . .

سهل ان اتصور كيف عشت بدوني ، ولكن هل كان  
لدي اصدقاء ؟ لا استطيع ان اتذكر . كان يتردد علينا  
ضيوف ، ولكنهم كانوا يشربون ويأكلون ويدخنون  
ويصخبون باقراط ، يصعب معه ان اشعر وسلطهم بالندبة .  
اما الاحوال في المصنع فهي ، بصراحة ، لا تعني مطلقاً .  
امس مديرة ، ومن المفهوم ان كل شيء متساك يعنيها ويشير  
احكامها ، أما أنا ، الرسام الهندسي العادي ، فيومسي ،  
اي والله ، الا اوصق نفسي البتية بشل هذه اليوم . وقال  
بصوت مسموع لم يتوقعه هو نفسه :

- لن اعود إلى المصنع .

فصاحت امه بذهن :

- ماذا تقول ؟

- ساستعد للارتباط بالجامعة .

- برفاء ! - وشققت امه بسعادة كالاطفال .

«كم عذبا انني لم احصل على تعليم عال ! ولكنها لم  
توجه لي ابداً كلمة لوم واحدة ، ومع ذلك فما ازوع ان



تكون لك أم ممتازة مثلها ، تسمح لك ، انت ابنها المتزوج ،  
بان تعرس دون ان تعمل !» ونزل الى قفا امه ، الى حزمة  
الشعر الرمادى الخفيفة ، المستقرة على ياقة الفراء الناحلة  
قليلا لمعطف رجال رائج ، وفكر ببرود فى ان امه التى  
عملت طول حياتها فى مصنع خياطة ملايس ، لم تتعلم مع  
ذلك كيف تتنقى ثيابها .

وسألته امه :

— البست الآن فى كامل صحتك ؟

فاجاب شاردا :

— طبعاً . . .

وفجأة اعتوره القلق . . فقد غادرت السيارة حي  
المستشفى الهادئ وانفجعت الآن فى طريق «سادوقويه  
كلتسو» المائى بين تيار السيارات المتدفق . وخيل اليه  
ان السائق يقود السيارة باصملى وتهور . يبدو انه نسي  
حركة المرور المجنونة فى شوارع موسكو ، كما انه نادرا  
ما كان يستقل التاكسى ، وخاصة اثناء النهار . احتلهم  
الشاوع بسرعة مع غيرهم من سيارات الركوب والشاحنات ،  
والقلابات الرهيبة ، والباصات ، والترولى باصات ،  
والموتوسيكلات المندفعة ، وشغلهم فى افواه الاتفاق الضيقة  
الظلمة . فاحس بكل خلية فى بدنه بان ذلك لن ينتهى على  
خير ، وبأهم سينسغلون ويسحقون ويضطرون كملبسة  
ماكولات مخفظة فارغة . وكانت امه تتحدث عن شىء ما ،  
لا بد انها كانت تفضى بأخبارها العادية ، ولكنه لم يكن  
يصغى اليها ، بل كان يحس بالضيق من صوتها الذى بدا  
وكانه يريد ان يلغيه ويصرف انتباهه عن الكارثة المحتملة  
الوشيمة ، وبالفعل حدث ما توقع : فقد صرخت فرامل  
السيارة بجدة ، ودفعته قوة الى الامام ثم زدته الى الخلف  
فصرخ صرخة ملتناعة ، واغمى عليه للخلطة . وعندما عاد الى  
رشده ، كانت السيارة تواصل سيرها فى هدوء ، وكانت  
جسرة الموت تعلو ويحيى امه وزوجته .

ودمدم كوستروف :

— خيل الى اننا اصطدنا . . .

فاجاب السائق بمرح :

— كلا ، هى سيارة «بيكاب» خرجت عن حارتها .

وقالت امه محزونة :

— لم تكن عصبيا هكذا من قبل .

فقال كوستروف بسخرية مزيفة :

— لا ارجب فى العودة ثانية الى العالم الآخر ! الناس  
دائما يخشون على الاشياء الجديدة ، وانا كائن صُنعت من  
جديد .

كان يدرك انه يقول غير ما ينبغي على الاطلاق ، ولكنه  
لم يفهم سبب حله العرعب . . .

ثم كان «بيت الآباء» شبكة صغيرة من غرفتين ،  
حيث كان يشغل هو وزوجته الغرفة الكبرى ، وتقبل امه  
الغرفة الصغرى . وطاف كوستروف بنظره دون اى تعاطف  
على الأثاث الفللندى الناتج اللون ذى الكسوة الحمراء ، وعلى  
طاولة رسمه المثبتة عليها ورقة رسم بالدبايس ، وعلى  
الكتبة المزودة العريضة المنخفضة التى لا تنتمى لطاغم  
الأثاث . لقد اتضح له انه غير متعلق بالبيت . وفجأة دهمه  
الغزن . فعندما آمن انه سوف يحيا ، اثبتت فى نفسه بقوة  
وحتى صورة البيت ، والحب العائلى ، والثقة والراحة وملات  
عليه روحه بقد شافى ، دون ان تتجسد فى أشخاص أو  
اشياء محددة . يبدو انه وقع ثمة خلط بين المستحسن  
والماضى . فهو ، كمشخص وقع المرض الى نوع من الانغلاق  
الاناسى المائس ، لم يكن يتميز ابدا بذلك الذوبان فى  
السعادة العائلية . ولا بذلك الحب المتقبل الداعم للأقارب ،  
والذى داعب آماله وهو فى وحدته على سرير المرض . ربما  
سيوافيه ذلك الآن ، عندما سيصبح فى وسعه ان يعيش  
مندمجا فيها حوله بصورة أشمل وأعرض وأعمق .

ومن جديد احسن بنوع من الزيف فى افكاره .

— اليس لديك ما نتجلى به ؟ — قال بلهجة مازحة فى

محاولة لتبديد برودة اللقاء غير المفهومة - لقد أصبحت شرعا كذّاب .

فاثبتت الأم ابتسامه مغتصبة وقالت :

- أوه ! يا له من غدا أعدناه ! - واجهشت فجأة باليكاء ، بل تغيرت الموع الصغيرة من عينها الخضراوين الكايتين .

- ماذا بك ؟ - سألها كوستروف مخفيا استياءه وراء ستار الاهتمام .

- لا شيء . . . أوجوك انهمني . . ما أعظمها سعادة !

«أمي أيضا تكذب - لاحظ كوستروف في نفسه - ترى هل ستكذب زوجتي كذلك ؟ »

لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة الا بقليل عندما نهضوا ليناموا . لم تسر الأمور على ما يرام ، رغم ان كل شيء بدا من الظاهر كما ينبغي . فقد كان الغداء موفقا ، وكانت هناك مكالمة هاتفية من صديقة أمه واصدقائه ، ولم يلح أحد أسئلة غير لبقية ، وكان الجيميسمع رقيقين ومهذبين ، بيد ان ذلك كله لم يحرك فيه ساكنا ، ولم يشعر بوجود صلة بينه وبين الناس . كانوا قد قرروا ألا يدعوا أحدا ، وان يقضوا هذه الاسبعة غير العادية في محيط الأسرة . ولكنهم تفرقوا مبكرا على غير المتوقع ، لأنهم لم يجدوا ما يقولونه . فزوجته ، الصموت بطبيعتها ، اصبحت على نفسها افعال الصمت ، اما أمه فلم تستطع وحدها ان تجاري الحديث رغم اقبالها المتعمد على الترتبة . لو ان ابنتها سأل عن شيء ، أو أظهر حتى ادنى اهتمام بعيانهم ، لكنه لزم الصمت ، وفي أحيان نادرة كان يبتسم في شروخ . وفجأة ، كانها حل بها التعب دفعة واحدة وانهارت روحيا ، صمتت الأم ، ثم زفرت زفرة طويلة ثقيلة ، وديمعت وكانها تحدث نفسها : «لا أهمية لأى شيء ، اليوم انك عدت» ، وانصرفت الى غرفتها .

هل عاد حقا ؟ - هذا بالذات ما لم يكن كوستروف وانثا منه ، فهو لا يمكن ان يعود بالمعنى الكامل للكلمة الا إلى

المرض ، ولكن المرض غير موجود ، ولهذا لم يستطع ان يدرك الوسط المحيط به كشيء معتاد ، كشكل لوجوده .

وسألته زوجته :

- هل انام على السرير السفري ؟

فضحك كوستروف :

- لماذا ؟ احقا نسييتي الى هذه الدرجة ؟ . . .

وفجأة امسك عن الكلام في حرج غير مفهوم . وللحظة خيل اليه انه تفوه ببذاءة ما ، فقد نسي هو نفسه زوجته الى درجة انه لم يعد يشعر بها وأياه «جسدا واحدا» . ورأى بطرف عينه زوجته وهي تلك ازوار يلوزتها البرلون وتتخلص منها بحركة من كثفيها الممتلئين وتعلقها على ظهر الكرسي . واستحسن الخلوط الناعمة لعنقها وكثفيها . ثم سمجت جوبتها التويد الى أعلى عبر رأسها ، وراح القماش السميك يطلق سراح الجسد ببطء . وتملك الانفعال كوستروف . وانحسر رأس زوجته في القماش الذي اشتبك بقفنها ومشابك شعرها ومشطها . وقال كوستروف لنفسه : «امرأة جميلة . انني محظوظ» .

وصاحت زوجته :

- ادري وجهك ! ما لك تحملك هكذا ؟ . . .

حول كوستروف عينيه على عجل ، ولم يظن الا فيما بعد ان مثل هذا الجواب لم تنبهه علاقتهما فيما مضى ، ان كانت زوجته تظهر أمامه عارية بلا حرج . واذن فزوجته ايضا تشعر بالغيرة عنه . وأدهشه انه يفكر فيها وكأنها مستقلة عنه . ترى هل كان يجب زوجته ؟ الاقرب الى الصواب ان المرض هو الذي تحكم فيه في هذا الأمر أيضا . فقد كان متلهفا الى اقتناص نرجة النور التي لاحت في كابوس الظلام ، فتزوج بأول فتاة رافت له . بالطبع لم يكن ذلك حبا . حسنا ، فهل أحببته هي ؟

انزلق كوستروف تحت الغطاء ، وأحس بالسرور من ملمس الملاحة المنشبهة المشدودة . ثم تقوس السرير ، وانسكب الجسد الانثوي الكبير بجواره . وظفى على حواسنه توق

حيوانى ، مختلج ، مذهل ، لم يعجبه قبلاً ، إلى هذا الجسد .  
واستدار ، وشد المرأة نحوه بضراوة .

وبعد ذلك بكت . لماذا يبكين دائماً ؟ ، وفجأة أصبحت  
طلقة النساء ، الأمر الذى لم يعجبه فيها من قبل ، وخاصة فى  
الفراش . قالت إنها لم تشعر معه من قبل بمثل هذا النور  
والاكتماء ، ولكنها لسبب ما كانت مضطربة النفس ، كأنها  
وقع أمر محرم ، أو أنها سرقت شيئاً ما من أحد . راحت  
تتحسس وجهه بأطراف أصابعها المرقشة المبللة ، وهي  
تفنع نفسها بأنه هو الشخص الوحيد فى هذا العالم ، الملزم  
ب حمايتها وإنفاذاً من جميع الشرور . بيد أنه لم يعد قادراً  
على الرد عليها بشيء . وقد أصبح خاوياً حتى الفاع ، متعباً  
ولامبالياً . فالعاصفة التى حلت محل رفته الضعيفة السابغة ،  
لم تترك له بقية من قوة للتظاهر المهذب . وأغفست بحذر  
واضعة رأسها تحت ذقنسه . فادرك أنها رغم الدعوى  
والاضطراب ، لم تكن تعيسة الآن . فحومتها المطمئنة ، وحرارة  
جسدها المتعب ، وتنفسها المنتظم العميق ، كانت دلائل على  
ما كابدته من انفعالات سارة ومستوفاة .

أما هو فكان مستلقياً بعينين مفتوحتين ، حتى دون أن  
يحاول النوم ، وخلف النافذة كانت السماء المدينة الليلية  
المشعة ، وابتعدت النجوم ، التى لم تكن تبين فى انعكاسات  
أضواء المصابيح والاعلانات الكهربائية ، ابتعدت أكثر فأكثر  
عن الأرض . وشغل كوستروف أن حياته الحقيقية توجد هناك  
فى مكان ما قرب النجوم النائية .

وفى الصباح ظل طويلاً يتأمل وجه زوجته النائم ، وهذا  
الوجه العادى والملمع بالأسرار ، واللامع من عرق النوم . كان  
يوسع هذا الوجه أن يكشف له عن بعض الأشياء ، أو يوحى  
بها ، أو يلهم على الأقل ، لكنه كان مستغلقاً مثل ورقة الرسم  
البيضاء المثبتة لتزوا على طاولة الرسم .

شعرت وهي نائمة بنظرته النافذة فأثت أنه استيقظ خفية .  
فحول وجهه ثانية إلى النافذة . كان الصباح يهل هناك ، فى ذلك  
العكر الوردى الأشهب . ومشطاً فى كل شيء غير مكتمل ، كان

مستجلاً تقريباً فى هذا العكر استشفاف ملامح ما سيمتص  
عنه . كانت هذه الساعة المجردة من التدايعات بلا فائدة  
لكوستروف . وسيبقى فى وحدته إلى أن يستيقظ النهار  
تماماً . . .

. . . لم يدرك كوستروف كنه نفسه ولا مكانه فى الحياة  
التي ردت إليه . وكان يترأى له أحياناً أنهم أعادوه خطأ إلى  
مكان آخر . ولم يكن قادراً على اليقظة ، على البيت ولو لمدة  
قصيرة . لم يرجع ذلك فقط إلى أن قلبه الجديد القوى الرابع  
كان يطالب ببذل الجهد (كان يجبره على التسكع فى المدينة  
بلا نهاية ويدفعه إلى خارجها ، إلى حقول أبريل البتية التربة  
والعاملات العارية المتفتحة البراعم) وإنما لأنه كان يحس  
بنفسه دخيلاً فى البيت . بالطبع لم يكن ثمة أى حديث عن  
الاستعداد للاتحاق بالجامعة ، ولكن أحداً لم يؤثبه على فراغه .  
كانت أمه وزوجته تعاملاته معاملة شئ ، تؤمن هشى سلباً لهما  
كوديعسة . وحرصت أمه على ألا تخرج عن إطار المعاملات  
اليومية الضرورية ، أما زوجته ، التى إدركت كنه الليل ، فلم  
تحاول أن تحطم دائرة العنوضى اليسيرة .

كان يحيا حياة غريبة . فانطلاقات الفرحة الفسيولوجية  
العارة - من الزهات ، والتدريبات ، والتردد على حمام  
السباحة - يعقبها ضيق بالئس ، لم يفهم وجوده لا فى البيت  
بين الأهل . ولا بين من يدعون بالأصدقاء حين كان يزورهم .  
وقد يبدو أن الناس يعيشون فى عالم ضيق ، فى محيط بلا  
حدود يدعى البشرية . هذا خداع . فحياتنا تمثيلية بعدد  
محدود جداً من الشخصيات ، أما الباقي فهم جموع ، كورس  
باليه أو جوقة غناء ، شئ علامى ، يكاد يكون رمزياً ، لا يدخل  
ضمن إطار مفهومنا عن التردد . فالأشخاص المحيطون  
بكوستروف الآن دخلوا حياته منذ سنوات طويلة ، ومعظمهم  
ظن أيام الطفولة والصبا . وكل منهم يحمل فى ذاته جزءاً من  
الماضى ، الذى لا يعنى كوستروف فى شئ مشطاً لا يعنيه  
الحاضر . وأحياناً ، وخاصة ليلاً ، فى لحظات الانغفاء أو قبيل  
الاستيقاظ ، كان يتصلكه إيمان سعيد بأن أهم الأشخاص

والزمنهم سوف يظهرون بعد ، وإته غفل فقطل عن وجودهم في كايوس مرضه واحتضاره . ولكنه يستدرك بعد ذلك أن جميع رفاق عمره حاضرون ، إذا ما استثنينا أولئك الذين طوارهم الخلود من زمان ، أباه الذي مات بقاء القلب وكوستروف لما يبلغ الخامسة ، ورفاقه في المصحات الذين قضوا بنفس السبب في أوقات مختلفة .

وراج يبحث . . . على هذا الفصح كان يبحث البشر ، بل وشعوب بأكملها ، عن أرض الميعاد . ولا يهم أي أرض تكون ، أترى فيها أنهار تفيض ليثا وعسلا ، أم غطاءها الحسك كمثيرة مهجورة ، المهم انها أرضك ، أرضك الوحيدة ، وكل أرض عداها أنت فيها غريب .

أصبح يسعد نظراته إلى كل ما يلاقيه من البشر ، والأشجار ، والاسوار ، والاعلانات ، والواقيات ، والآرائك وسلال المهملات في المتنزعات ، ومصايح الانارة ، والخيول . والعصافير المنبطة في الروث الفواح البخر ، وعباش القربان المشبعة ، والحمام المتفتحة عظمة . وكان في ذهابه إلى الاستاد أو حمام السباحة لا يسلك نفس الطريق هرتين ، بل كان حتما يضيف إلى طريقه المعتاد شامرا جديدا ، أو سارة أو فناء سالكا ، حتى لو كان عليه في سبيل ذلك أن يقطع شوطا طويلا . كان يتفرس بنهم في ملاحع البيوت والأفنية مصيحا إلى باطله : عل " خفقة في القلب أو دفقة اضطراب في الدم تفصح بذلك عن تعرق غير واج على ما يراه .

كان يمتد قلبه القديم الميت ، مصدر كل آلامه ومعاناته ، والذي بدا له مثل فطر عفن نغره الدود ، لكنه كان يتسرع لكل الذكريات الرقيقة الرقيقة من ماضيه ، والتي كان عليه أن يعيد تجسيما ، لكي يشفي تماما .

بدا يفطن لبعض الأشياء . فقد بدا له الآن انه في وجوده الأول أيضا لم يكن يجب زوجته . فهل كان يجب له ؟ لم يجد اجابة على هذا السؤال ، الظاهر ان الشخص المصناب بقاء كذلك الذي أصابه ، غير قادر عموما على الحب الحقيقي لخداحة الخوف الدائم المستمر ، على النفس . على أي حال ربما

كان هناك لشخص لا يظن " الخوف من النهاية القريبة المختومة في نفوسهم جذوة الحب لحيات الآخرين ، بيد انه ، وهذا واضح ، لم يكن في عداد أولئك المختارين . ومع ذلك فليس مغفولا انه عاش فقط على الخوف والاعتراب ، لا بد انه هو أيضا عرف ومضات من الفرحة البريئة ، ولو لحظات من السعادة والطمينة ، حين كان ينسى مرضه فيحب شيئا ما خارج حدود ذاته . ربما هو الآن يبحث عن هذه اللحظات المجسدة في صور العالم المصنوس ، مؤملا أن يعيد بواسطتها بناء روحه الحية ، وينال القدرة على الحب والدموع .

وكانت هذه الوضعات الباهرة للفرحة ، بل والسعادة ، تحدث في بعض الاحيان بغتة ، على غير توقع ، بلا سبب مفهوم . وتنبثق من أغرب المصادر وابدعها اجتماعا : كما حدث مرة ، من عشة حمام قديمة ، وش عليها أبريل حيات البرد ، في فناء صغير غير بعيد عن مخدع الأميرة كمينيا جودونوفا . في حارة تشيرتوسلنكي . عشة حمام عادية : صندوق خشبي مغلف بشبكة سلكية صدئة ضيقة الفتحات . ورغم كل إجهاده لفهمه ، لم يستطع أن يدرك مغزى عشة الحمام " فيها قبل وجوده " . كان يفهم ان الفرحة التي أحس بها هي قبل كل شيء فرحة التعرف المطلق ، وليس من الضروري أبدا أن تكون عشة الحمام قد مثلت له في الماضي مصدرا للثمة . فلما انه كان صبيا سليما لأصبح رمز العشة واضحا دون جهد ، ولكنه كان صبيا معقما فلم يزاول كثر الحمام .

ربما ثمة خطأ ما قد وقع هنا . اذ قد تكون العشة استحوذت ادعاء ، بحكم الجوار كما يقال ، على دور الزمن ، بينما المغزى الحقيقي ليس فيها ، بل في قصر الأميرة كسينيا جودونوفا ؟ ربما أثارت انفعاله في وقت ما تلك الصورة الرقيقة الحزينة لآلحة جودونوف التعميسة ، البريئة من الذنوب أمام الله والبشر ، ولكنها ، وقد نشأت في كنف الجريمة ، كتب

أبنة القيصر بوريس جودونوف (١٩٠٥-١٩٠٥) .



كل مرة اتلاق العاشق ؟ ماذا لو انها مضى حسب خاطفة ؟  
فلماذا اذن تحول هذا الحب ، ما أن أشرق ، الى كآبة  
سحيقة وفقدان يائس ؟ الحب الخاطف هو احساس خفيف ،  
ظل بهجة وظل أسمى . اما هو فيشعر وكان وتدأ دق نبض  
قلبه .

فتح صنبور المياه الباردة وهو حائق على نفسه ، واحس  
كان مكبسا جليديا ضغط على ياقوته ، وسرى الجليد مسن  
رفيته الى كتفيه وظهره وانتشر في جسده كله ، ولكن كآبة  
القلب لم تتزحزح ، كانت مستقلة بذاتها عن كل كيانه .  
الآن اصبح لبعثه اللاواعي غاية : كان عليه أن يعثر على  
الفتاة الرمادية العينين . فهي التي ستساعده على حل كل  
العقد . ولكن اتضح ان ذلك أمر ميثوس حشو . فالألاف  
يتريدون على الاستاذ الشئوى ، وهنا تعمل عشرات الاقسام  
الرياضية المختلفة ، بينما هو لايعرف حتى ان كانت فتاته  
رياضية ام لا . فينفس الدرجة يمكن أن تكون طبية ، او  
انصائية تدليك ، او ممرضة ، او طالاية تدريب  
او مجرد مشجعة . كانت العينان الرماديتان العابستان  
بالنسبة له علامة قاطعة ، ولكن جميع من توجه اليهم  
بالسؤال كانوا يباعدون فحسب بين ايديهم في استغراب  
وسخرية .

وكليما امعن في البحث عنها ازدادت قناعتها بان الفتاة  
الرمادية العينين ليست مجرد علامة ترمز الى احساس  
عاشق . ففي الماضي الغامض التقى بها ، وكان يعرف  
اسمها ، وكانت تعنى بالنسبة له شيئا . .  
وخطئ له خاطر مرعبا الى حد ما . . فلماذا كان يعترف  
لقليه السابق بحق الذكرى ، فان للقلب النابض الآن في  
صدره مثل هذه الذكرى المستقلة . هراء ، هذيان ، اساطير  
كما قال الطبيب المعالج . الآن بدأ كوستروف يدرك معنى  
تفوقاته الغامضة ، ولكن لا ، فليس القلب مطلق السلطان ،  
وطالما «واقف» على العيش في جسد غريب ، فعليه ان يمثل  
لقرائنه .

عليها القصاص القاسى ؟ كلا ، لم يكن له اى موقف واضح  
من ابنة جودونوف ، فلماذا لسر ان حارة تضمير تولسكي  
نفسها ، والتي جذبت اليها بعشنة الحمام ، قد لعبت دورا ما  
في حياة روحه ؟ كلا ، لم يكن هنا من قبل . . .

وفيما بعد اتضح بان اساليب التخمين ، المباشرة وغير  
المباشرة ، لا تجدى نفعاً . فقد تابع العصفارين مئات المرات  
في طيرانها وهبوطها ، وفي عراكها الحامى بسبب الطعام ،  
وفي مرة واحدة احس فجأة لسبب مجهول بوخزة سعادة تكاد  
تبلغ حد الألم ، عندما رأى عصفورا . ترى ما السذى حرك  
هذا الشعور : المكان ، ام ساعة النهار ، ام الاضائة ؟ لم  
يجد رداً على هذه الاسئلة .

وذات مرة كان متوجها بعد التمرينات الى غرفة الحمام  
فى الاستاد عبر طرقة طويلة ، وقد القى على كتفيه روب  
استحمام . ومرت به من الجهة المقابلة اربع فتيات يحملن  
حقائب صغيرة فى ايديهن . وانزلت نظره للشاردة على  
الفتيات المجهولات وتوقفت قليلا على وجه إحداهن . . وجه  
مدور ، نحس ، بعينين رماديتين ، ثقلتي النظرة . لم  
تكن اكثر فتيات السرب جاذبية على الاطلاق ، ولم تتميز الا  
بتعبير وجهها العايس «المغفلق» بعض الشئ .

مر السرب بجواره فى صخب ، لافحبا اياه بضحكات  
خافتة وزقزقة اصوات ، وغير عذرى طاهر رقيق ، فاحس  
برغبة مناجاة فى رؤية تلك الفتاة ذات العينين العابستان  
الثقيلتين . ولكن الباب الرئيسى كان قد اغلق خلفهن بينما  
لم يكن على جسده سوى الربوب ، وبعد وضع دقائق تذكر  
مرة أخرى ، وهو تحت الدوش ، تلك الفتاة الرمادية العينين  
فتاوه الما . واذا باحساس بالفقدان النهائي يستولى عليه  
بصورة خاطفة خائفة . وحول قلبه ظهرت قفاعات سعادة  
صغيرة وتضجرت ، مصاحبة لذلك الاحساس ومضاعفة  
للألم . ماذا تكون بالنسبة له هذه الفتاة الرمادية العينين .  
العابسة ذات العفوية ، والتي لا تتميز بشئ ؟ وائى علاقات  
معتدة او بسيطة ربطت بينهما فى الماضي ؟ وهل ينبغي فى

لم يكن ثمة غير طريقة واحدة للقبضة على «الأساطير» :  
ان يحب الأمل ويشعر بالثقة نحو الأصدقاء ، عندئذ تنطق  
صور الماضي الزائفة ، المعذبة بغير غاية ، ويبدأ وجود  
خارجي جذي ، وتنتهي السمرنة = الروحية للعينة .  
وأصبح من ملازمي البيوت ، واحاط بالرعاية أمه  
وزوجته ، وهو يذكر نفسه طوال الوقت بمدى حبهما له ،  
وأي حذب وصبر ولباقة وتسامح تشع منهما نحوه ! ومنا  
أينزل ما يقدم لهما لقاء خيرهما الوفير ! وأصبح يهتم بما  
تهتمان به ، ويسأل أمه بالتفصيل عن أحوال المصنوع ،  
ويهديهما زهور العيموزا والتلج ، ويساعدهما فسي شئون  
المنزل ، وأخيراً ، ولتتكمّل السعادة ، بدأ يستعد للالتحاق  
بالجامعة ، وذهل عندما سمع ذات مرة عن طريق الصدفة  
حديثاً هائلياً بين أمه وأحدى صديقاتها القديسات . ولسبب  
ما ظنت أمه انه ليس في المنزل ، وراحت تتكلم بصوت عال  
كعادة كبار السن ذوي السمع الضعيف عندما يتحدثون في  
الهاتف .

— يبدو كأنما استبدلوه بغيره . . . أنا لا أفهم  
شيئاً ، ولكن يخيل اليّ أحياناً أنهم اعدوا اليّنا إنساناً آلياً .  
فيور يعرف جميع الكلمات ، وجميع قواعد السلوك ، ولكن في  
داخله حديداً بارداً . كلا ، كلا ، ليس هناك ما أشكو منه ،  
اذ لم يكن أبداً على مثل هذا الاهتمام وهذه العناية كما صر  
الآن ، ولكن وراء ذلك خواء ، أنا لا أحس به ، لا أعرف  
فيه على دمي . . .

لم يسمح بقية الحديث ، فقد كان مصعوقاً لا من كلمات  
أمه التي كشفت له عن تشابه إحساس كل منهما بالآخر ،  
بقدر ما صعقته نبرتها الباردة . كانت تتحدث عنه وكأنه  
شخص غريب يخبر أعصابها أكثر مما يثير حزنها . ولم يقل  
شيئاً لأمه ، ولم يغير من سلوكه ، ولكن إحساسه بالعزلة  
أصبح لا يطلق .

... كان كوستروف عائداً بالمشرو من المكتبة ، وفي  
\* مرضه المعنى أثناء النوم . المصرب .

مقطعة «ميدان سفيردوف» خرجت من العربية المجاورة امرأة  
كاملة في قبعة فراء مستديرة ومعطف بياقة من نفس الفراء .  
وكان شعرها الأشهب ، بلون الملح والفلفل ، مضموماً في  
جزمة . ومستقراً بعناية فوق فراء ياقة المعطف القديمة  
المائلة إلى الحمرة . وتذكر عودته من المستشفى : فعندما  
كانوا في التاكسي أخذ ينظر إلى قفا أمه فرأى نفس هذه  
الجزمة الرمادية على ياقة الفراء الناحلة . كان كوستروف  
واقفاً بجوار باب العربية ونظراته الشاردة تطوف بوجوده  
الداخلين والخارجين ، ولكن المرأة الكاملة شدت نظراته  
إليها ثانية لسبب مجهول ، ونظر بفشول غير مفهوم إلى  
وجعها العادي المعمر المتصلب الشرايين ، وإلى عينيها  
المتعبتين بجفنيهما ذوي التجاعيد ، وإلى الشامة في زاوية  
فمها الشاب الزين . لم يكن وجهها جميلاً ولا طيباً ، لكن  
شيئاً ما فيه أذهل كوستروف . هذا الوجه المتعصب ،  
المكدود ، المعزّون ، القاسي بحض الشيء ، الذي يحمل  
بفراحة مقرلة عصب السنين والمصائب والخسائر وخيبة  
الأمل ، أخرج كوستروف عن العالوف وعصف به وجهه إلى  
مكان ما كالاعصار . ثم كان سقوط مربع في هوة بسلا  
قرار ، في ظلام ما قبل الوجود وضيقته الرطوب ، وبعد ذلك  
ضياء لا يطلق ، لا تستطيع ان تحتجب منه خلف استار  
الخفون ، ثم مذاق اللبن الحلو على الشفاه ، وذلك الإحساس  
الممتلئ المخدر وكأنك في أوجحة وكعسا في أجمل لحظات  
الطفولة المباركة ، عندما تكون قد زالت اشباح الليل المخيفة  
واسادات النهار ، بينما الحمايصة العظيمة والأمان العظيم  
يشمنهما وجود أهم وأرحم مخلوق في الكون . وتركز كل  
ذلك في كلمة قصيرة ، نادت عن شفهي كوستروف لإراديا  
وباشفاق وهو يتدفع من العربية شاقاً الزحام :

— ماأما ! . . .

سمعت المرأة هذه الصرخة الطفولية الغريبة ، الصادرة  
بصوت رجول غليظ . ولم يكن الصوت مالوفاً لها ، والنداء  
ليس موجهاً إليها بالطبع ، ومع ذلك فقد التفت وعلى وجهها



## هبوط ناعم

### حكاية عصرية

لم يكن سرجيف يغشى الجو ابداً ، والاقرب الى الصواب انه كان يغشى الارض . ففي الجو ، الذي خلق فيه كثيراً منذ ايام الحرب ، لم تصادفه اى متاعب حتى عندما استقل طائرة لتصف مدينة تشودوف - كان على سرجيف ان يقصف العدو بالمشروبات الدعاية لا بالقنابل - فتعرضت طائرهم لنيران مدفعية مضادة رهيبة . لم يبق في ذاكرته من هذه اللحظات العادة ، التي لم تكن رهيبة وانما بائسة على الاعجاب الفاس ، غير ضوء اخضر باهر يغترقه وهج اشد سطوعا . وفي مرة اخرى (وكان قد اصبح مراسلا حربيا) لم يخرج حامل العجلة اليسرى في طائرة «دوجلاس» التي كانوا يهبطون بها ليلا مسترشدين بشعلتى نار في مطار صغير في غابة بمنطقة يسيطر عليها الفدائيون ، فاضطروا للهبوط على عجلة واحدة . . . وقد حدث الشيء السيمى على الارض ، اذ انتزعت قوة ما سرجيف من متعده فجأة والقت به بصدرة على صندوق

تعبير الالم المعتاد ، الذي كان يرتسم عليه لدى كل تذكرة بابنها المفقود . ورات شابا يوجه عرقان ، مخبول ، يبدو انه ثمل ، يندفع من العربة شاقا زحام الكتسل المتدافعة . ورغم انها لم تستسلم للوهم لحظة واحدة ، الا ان منظر هذا الشاب المجهول الذي يبدو مسن عمر ابنا الهالك ، وتسكحه وتفجيره بقوة حية فجأة ، بينما جسد ابنها يتحلبل في مكان مجهول ، قد مالاها بالسخط . فصاحت بتقزز :

— ماذا بك ، سكران ؟ . . .

واخط بكوستروف جميع كتيف . وذهب احدهم يستدعي الشرطي ، فتحرك هذا من كتسك السانوبة متقدما بخطوات ثقيلة مهيبة نحو الجمع المتحرك عند نهاية الرصيف . ولسم يلاحق كوستروف شيئا من حوله . لم ير سوى شيء واحد : منتفخي المرأة الكهلة الآن من امام عينيه . فصرخ يائسا :

— الى اين انت ؟ . . .

توقفت المرأة كان احداً دفعها بتقبضته في صدرها . لم تكن تدرك كنه ما حدث ولا تحاول ادراكه ، ولا تعرف ماذا ينتظرها : النجاة ام الهلاك . لكنها عرفت قلب ابنتها المتالم ، فاندفعت نحو اللذاه .

ذخائر ، وفيما بعد ، في سفرياته الرسمية السلمية الى البلدان الأجنبية تعرض لمواصف رهيبة ذات بروق كالخناجر ، كانت تصطدم مباشرة بجسم الطائرة . حدث ذلك مرة فوق الخرطوم ، ومرة أخرى قرب لا جوس . وذات مرة تعرضوا لضباب مطبق ، وأعطيت لقائد الطائرة حرية اتخاذ القرار : ان يهبط ، او يحاول الوصول الى المطار الاحتياطي بخازانات وقود فارغة . وكان ذلك في سماء اوربا المسائية العامة بأضواء النيون والمطاعم والمراقص والبارات وعلب الليل وصلات الديسكو ، قرب مدينة فرانكفورت على الراين . وقرر الطيار ان يهبط ، فهبط باقتدار وسط الكتلة الحليبية الخائفة . وخلافا عن بقية الركاب كان سرجيف يدرك جيدا ما يجري ، لكنه لم يشعر بخوف ، بل تأبعه يتشوق وتهيج . اما على الأرض فكانت المصائب تترصده : فقد أصيب مرة في حادث سيارة ، وان اقتضت الاصابة على بعض الرضوض وإرتجاج بسيط في المعج . وبجسم كلب الجيران «الوولف» على كلبه «البودل» الصغير الطيب ، فاصيب سرجيف بانزلاق غرضوي في الركبة وهو يحاول انقاذ كلبه ، ونقل الى معهد الاصابات ، حيث عالج له ساقه جراح مشهور يعالج لاعبي كرة القدم ، فوضع له ساقه في الجبس لمدة شهر . على الأرض كان يعولنه الاصدقاء والنساء ، وعلى الأرض كان يسكر وفي سنوات الشباب كثيرا ما كان يشترك في مشاجرات لم تكن تنتهي دائما بالفوز . وعلى الأرض كانت دور النشر تعيد اليه مخطوطات قصصه وتحذف كتبه من خطة النشر . . . اما في السماء فكان يرتاح من الأرض ، ولم تكن تخيفه اى مطبات هوائية او عواصف كوراثية ، أو غيرها من بلايا المحيط الجوي . . .

كانت السماء أكثر ضمانا من الأرض الى حد كبير . ولكن سرجيف كان يشعر بالخوف عندما تسافر زوجته بالطائرة بدونه . بل كان يشعر بفرق بالنسبة كفرع النساء . فإذا ما سافرا معاً احس بنفس الاطمئنان الذي يحس به عندما يسافر وحده . بدونها ، في رحلاته الجوية . بيد ان

اقصر رحلة جوية تقوم هي بها ، ولو الى ذوبها في لينينجراد حيث تبلغ مدة الطيران خمسين دقيقة فقط ، كانت تصيبه بالذعر ، وبسبب قصرها بالذات . فأنطرد ما في الطيران هو الانفلاق والهبوط . وفي الطيران من موسكو الى نيويورك فان الزمن الممتد بين هاتين اللحظتين الحرجتين يبلغ نصف يوم . اما هنا فأقل من ساعة ، ومن ثم فالخطر يصبح مكثفا مركزا الى درجة حادة . بالطبع كسل هذا ، هراء ، هذيان ، غيبث . ولكنه غيبث مقبب . وفي كسل مرة تستعد زوجته للسفر كان سرجيف يتوصل اليها ان تسافر بالطائر ، اما هي فلم تكن تطيق ذلك .

من الأرض تمسندو الطائرة ضئيلة هشة ، لا شيء يحميها ، اما من الداخل فتصبح بالنسبة لسرجيف رمزا للثبات . وهذا الاحساس كان يدعمه ايمانه وحبه للفضاء ، اللذان لا يعرفهما الا من يعاني ، مثل سرجيف ، من عقدة الخوف من الاماكن المعلقة .

كان الفضاء يبعث فيه الى جانب الفرحه الاحساس بالامن . كان يتق بالقبه السماوية الزرقاء المتسامية فوق زبد السحب المنوشة التي تشبه حصنا بركانية متجمدة ، ولو ان جسم الطائرة الهوائية يخترقها دون ادنى مقاومة اذا ما عنُ للطائرة ان تستقط . لكن سرجيف لم يراوده اى شك في قدرة هذه النجم الخيالية على حمل الطائرة ، لانه وهو في الاعلى كان يكتسب اهم شيء له : الانطلاق والتحرر ولا نهاية المكان ، ولهذا كان يتق هبسا بكل شيء : بالقبه السماوية الزرقاء البراقة و كانما نفقها نافخ زجاج عملاق ، وبالهواء المخفل ، الذي كان بالنسبة له اشد كثافة من مياه البحر ، وبالزبد السحبي الاصطب من الرواسب المتجمدة . وعندما يجلس في مقعد الطائرة المريح ، وخلف زجاج النافذة تتلالا زرقه الفيار ، او تتزاحم نجوم الليل ، يتملكه احساس بالرأسة النفسية والبدنية المطلقة .

ولكن هذا الفضاء ذاته حول جسم الطائرة المعدني يتحول الى خطر محيت على زوجته اذا لم يكن هو بجوارها ، وبدا



لسرجيف انه من الغفاعة ان تؤتمن عليه حديدية على الحياة  
الانسانية الهشة الثمينة . ومع ذلك كانت ثقته بالطائرات  
الوطنية اكبر من ثقته بالطائرات الاجنبية ، اذ كان يعول على  
اسراف القطاع العام فى استخدام المواد . كان يتابع بعينه  
كل طائرة تحلق فوق داره فى ضواحي المدينة ، والواقعة  
فى مجال مطار فتوكو ، باحساس بالقرابة ، وكان فيها أقرب  
الناس اليه مصيرا وواطئة دم . لكنه لم يكن يستطيع ان  
يتصور امكانية وجود زوجته وسط اولئك المحلقين الذين  
لا يحميهم شئ . وعندما كانت تعزّم السفر الى لينينجراد  
بينما تمنعه ظروفه من مصاحبتها ، يروح يلح عليها بالرجاء :  
«فلتعمل كالثالثى : سافري بقطار النهار ، وعودي بقطار «السهم  
الاحمر» الليلي . وسوف استقبلك . من زمن طويل لسم  
استقبلك فى المعلة القديمة الطبية ، على الرصيف الحاشد  
المضطرب ، حيث تفوح رائحة زكية من القشبان والفلتكات  
والفاطرة البخارية ، رغم انه لم يعد للقطارات البخارية وجود  
من زمان ، وفى يدي باقة زهور . هل لاحظت ان المطارات  
تخلو من الزهور ؟ سوف احدد مكان عربتك بالضبط ، ومع  
ذلك ساضطر الى الركض قليلا وراءها ، وثناء ذلك اراك  
من خلال الزجاج المترب ، او خلف كثف مرافقة العربية  
المخمورة فى الباب . وسيكون هناك جمال عجوز صغير  
صعوق ، وعسى صدره لوحة معدنية ، فيها اكثر الاشياء  
الرائقة المشمسة التى ستستيقظ اذذاك فى القلب » .  
وترد زوجته : «اذن دون اجل ان تستيقظ فى قلبك هذه  
الاشياء الرقيقة المنسية ، او بالاحرى التى لم يكن لها وجود  
يبنى وبينك . فقد سميت اتنا القنبس فى عصر الطيران .  
ينبى على ان اتبهدل فى ديوان عربية مترب كريمة الرائحة ،  
حيث يحاول مغازلتي مسافرا ثمل ، بعد ان يكون قد ترك على  
مائدة الديوان بقايا طعامه من قشر بيض وطماطم مفتوحة  
وقشور سلامي ، وسيكون علي ان احرب منه الى الطريقة  
الضيقة . حيث لا يتخلع السافرون المزغنون عن المرور  
فيها جيئة وذهابا الى التواليت . وزد على ذلك المرافقة

العصبية التى لا تستطيع ان تحصل منها حتى على الشماى البارود  
الخفيف ، وعندئذ ستتجلى صورة رحلتى بكل جوانبها . انه  
تمن غالبا لذكرياتك العاطفية ، التى هى فوق ذلك غير  
مرتبطة بى» .

يبدو ان زوجته لا تستطيع ابدا ان تفهم انه يخشى عليها  
من الطيران . فقد كانت تعرف انه يجب السفر بالطائرة ،  
سواء وحده ام معها ، ويجب الطائرات براحتها البطاطية ،  
وبقاعدها المنزلة الى الخلف ، وبطوقوس الركوب ، وبدوجة  
اقل طقوس الهبوط ، حيث دائما ما تتأخر سلام الهبوط ،  
ويجب المضيئات الجوية بسيقانها الجميلة ، ويجب طعام  
الطائرات ، بقطعة الدجاج المعبودة وكأس شاي «ريسلسنج»  
اذا كنت مسافرا الى الخارج . وكانت زوجته عاقلة وغير  
متطيرة الى درجة كافية ، بحيث لم تأخذ مآخذ الجد توسلاته  
التي لاح لها فيها بصورة منفردة حب متناق مع نكحة هزلية .  
ولكن سرجيف لم يشعر من قبل ابدا بدخل ذلك القلق  
الذى اعتراه عندما جاءت اليه زوجته وهو فى مصح بضواحي  
موسكو لتودعه قبل سفرها «الى الدياء» . هو الذى نصحه  
ان تنتقل مؤقتا الى مسلكه الدياء المعدنية الشماية ذات الرائحة  
الكريهة ، وهو واثق لسبب ما بأنها ستسافر بالقطار فى  
هذا الجو الربيعي المتغير الذى لا يؤمن بجانيه . ولم تذكر  
زوجه شيئا بهذا الخصوص ، ثم ها هو يتضح ان بطاقة  
الطائرة فى حقيبة يدها .

وزاح سرجيف يقول خائر العزيمة :

« من ذا الذى يسافر بالطائرة فى اوائل الربيع ؟ ضبابية  
شامل ، ودراف . لم يعل فى ابريل مثل هذا الطقس السيئ  
منذ عام الف وثمانمائة وسبعة وستين ، سمعت ذلك فى  
الاذاعة . وسوف يؤجلون الرحلة ساعة ، ثم ساعتين ، ثم  
يلغونها تماما . وستعبدون عيشة ثم تعودون الى البيت . وفى  
الف نفس الشئ . فوسكو لا تسمح بالافلاخ ، وهينرالى  
فودي» لا تسمح بالهبوط . سبتديدين ايام الراحة فى الانتظار ،  
القطار اسرع واضمن .

فعارضته زوجته :

- لا ، لا يمكن ! الربيع حل في القوقاز منذ وقت بعيد .  
اما الاقلاق فيسبحون به في اى جو ، المهم الجو هناك ، حيث  
الهبوط . وانا اطير الى الجنوب ، الى السماء الزرقاء والشمس  
والدفء .

- هل نسيت جو كيسلوفودسك ؟ انه مثل جو موسيكو  
تماما . ما زالوا هنا يتزحلقون بالزلاجات .

تفالت زوجته بلا مبالاة :

- بالزلاجات المائية .

وفكر في ان لاريسا ما زالت امرأة شابة ، وكانما تذكر  
ذلك الآن . وقال في نفسه : ها هي آثار الجوع ايام حصار  
لينينجراد تظهر الآن . اذا كانت الحلوى تقسد لسنان  
الاطفال فلا شك ان صخب الغراء الذى كانوا يتناولونه في  
الحصار كاشهم طعام . هو اشد ضررا . لقد كنت رجلا  
بالغا متزوجا عندما نشبت الحرب ، اما لاريسا فكانت طفلة  
لم تذهب بعد الى المدرسة . وقد حطمت قنبلة المانية قواى  
اليدنية ، اما قواها هي فقد حطمتها الجوع . . .

وها هي الآن ستطير في اخطر واسوأ فترة بالنسبة  
للطيران ، وتضع ثقتها في جرادة معدنية حقيرة ، اما هو  
فيبقى على الارض عاجزا عن فعل شئ . . .

لقد تم شراء التذكرة ، وكان سرجيف يدرك ان اى  
توسلات لن تجدى شيئا ، فقد كان للذين زوجه واستجابها  
وانوثتها حدود واضحة ، تنتهي حيث تعتقد هي ان الحماية  
والسخافة او «الغيبيات» قد بدأت . وكانت الكلمة الاخيرة  
تطلقها باشمئزاز على كل ما يخرج عن حدود المطلق الخالص .  
ولكل انسان حدوده ، ولم يتمكن احد بعد من الخروج عنها .  
وكان يوسع لاريسا ان تسمح بقليلها المحب عذابه الذى لم  
يفصح عنه فتستجيب له . وهذا احتمال ضعيف ولكنه غير  
مستبعد ابدا رغم واقعية زوجته الصارمة . وكان يوسعها ان  
تسبغه ولا تستجيب له ، معتبرة ذلك غرابة فارغة ، الامر  
الذى كانت تعتقده . ويبدو ان هيئته ، بعد اسبوعين من

الراحة والعلاج ، لم تترك في نفسها انطبعا سميما بحيث  
يصلها تغير خطتها الواقعية العنكمية وتتغلب عن تمسكها  
بقواعد المنطق الصارمة . كان ينبغي ان تكونها نار تعاسته  
لكن تحررها من حساباتها الجيائية ومن الوضوح الشفاف  
لنظرتها الى العالم ، فتستسلم للقرى المظلمة الغريبة .  
ولكنها كانت تراه الآن قويا صحيحا .

- انا مسافرة لنصف المدة . اريد ان اعود لاختك من  
صنا بنفى .

لم يكن لهذا علاقة بقلقه ، وراح يصر على ان تغشى في  
الصبح المدة المطلوبة كلها . ولكنه اصطدم هنا بجانب آخر  
من جوانب ارادتها .

- لقد تحدثت مع الطبيب ، وقال ان اسبوعين مدة  
كافية تماما . ثم افنى لن اتمثل اكثر من ذلك . لنت هنا ،  
وانا هناك ! - وهزت كتفها باشمئزاز وكانها رأت حشرة  
كرهية تزحف نحوها . كانت تقب جميع الحيوانات برقة ما  
عدا الزواحف . ويبدو ان ذلك كان نتيجة فرع من يمس في  
الطفولة ولم يعد من الممكن التخلص منه ، مثله مثل واقعيتها  
الصارمة ، رغم تناقضها معه . . .

وها قد حل هذا اليوم . الرابع عشر من ابريل . وكان  
فيه ساعتان ، كل دقيقة منهما محسوبة وزرعية . يوسع  
بالطبع ان يتناول عدة اقراص «ديميدرول» مهدنة فينسام  
تأثير الساعتين ، وربما ثلاث او اربع ساعات علاوة عليهما ،  
الى ان تاتى البرقية العظيمة العاجلة : وصلت بسلام .  
ولكن سرجيف لم يلجأ ابدا من قبل الى مثل هذه الوسيلة ،  
اى الى النجاة بالجوب المئوية . ولا عندما كانت زوجته تستقل  
الطائرة ، ولا عندما كانت الظروف القاهرة تضطره الى ركوب  
القطار . ولم يكن امتناعه عن استخدام الجوب المئوية راجعا  
الى احساس بالعاره يمل عليه ان يواجه المعنة ، مهما كان  
ذلك صعبا ، بل هو صافي دون ان يحيط من كرامته  
الانسانية بالهرب الى اللاوعى . كلا ، بل كان يجره دافع  
آخر هو ذلك الغوف الاخمق من ان يؤدى اجتماع الخوف مع

المشوم الى ان يصبح نومه نوما هديا . هراء ، سخافة ، غيبيات . . . ولكن تلك كانت حدوده التي لا يستطيع ان يخرج عنها .

كان يتناول القطرات المهدئة وهو يعرف تماما انها لن تهدئ فيه شيئا ولن تمنحه السلوان ولن تعيد اليه توازنه ، بل ستبقى محايدة تجاه حالته ، او بتعبير آخر ، بلا ضرر . وما هو يتناولها مرة اخرى ما ان استيقظ .

وعموما فقد من الصباح بسهولة ودون ان يلحظ ، اذ كان مشغولا بالمفروض الطبية وشئى انواع العلاج ، كما ان زوجته كانت لا تزال فى البيت ، بعيدا عن ساحة الافلاك . ظلت كمادتها بعد الاستيقاظ ترتب حينها ببطء وصعوبة ابتعادا لحياة النهار ، ثم تناولت قهوة ثقيلة سادة وطلبت سيارة تاكسى بالهاتف ، وراحت تعد الحقيمية ، ثم استدعت المصعد ، وبعيظت به ، ثم تذكرت انها نسيت بطاقة الراحة والهوية وبطاقة العلاج وتذكرت الطائفة فى حقيبة يدها الاخرى ، فتركت الحقيبة الكبيرة فى عهدة عاملة المصعد وعادت الى الشقة ، وفى آخر لحظة قررت ان تستبدل بالمعطف الجلدى معطف مطر خفيفا على ان ترتدى تحته سترة صوفية ، ونسبب ما تطلب ذلك مزيدا من مس الشعر بالفرشاة لمدة طويلة ومزيدا من العناية بمكياج الوجه «المجهز» فعلا . واخيرا هبطت الى سائق التاكسى الثالث عشر غضبا ، والذي وضع الحقيبة منذ زمن طويل فى مخزن السيارة واستدار بالسيارة فى الفناء الضيق ، فهدأت ثائرته بسرعة ، كما تجدد ذلك دائما بطيبتها التي يدرها لى قلب قاس ، وباهتمامها الى الصديق بالآخرين .

وما هو السائق الذي هدأت ثائرته يخرج بالسيارة من العارة الساكنة الى طريق لينينجراد ، وهو يروى لراكبته الجذابة لسبب ما تقاضيل حياته الخاصة والعامة - كانت لاريسا مشبعة باعتراقات الآخرين ، التي كثيرا ما كانت تخلو من الحشمة - . وما هو يتعطف الى شارع «بيجونايا» ويضئ الى كورنيش النهر ويصل الى شارع «لينينسكى» الذي يتحول

بعد الطريق الدائرى الى طريق نثوكتو المقضى الى المطار . وسرجيف يحفظ غيبيا الطريق من البيت الى المطار على طول امتداده ، فقد قطعته مرات لا تحصى ، وبوسعها ان يحدد بالدقيقة المكان الذي تمر به زوجته ومتى تصل الى المطار . وهذا هو ما يفعله الآن بكل حرص . . .

لما الاصعب بكثير فهو تحديد تنقلات لاريسا داخل المطار ، فالنظم المتبعة تتغير هنا باستمرار . ينهض عليها ان تسجل البطاقة ، ولكن التسجيل يعجز احيانا فى شبك معين واحيانا امام الرف العالى بجوار الميزان ، واحيانا عند الخروج الى مكان الركوب ، وبوسعهم فى هذه المرة ان يبتكروا شيئا جديدا تماما . كما ان غياب الوزن او مقشقة التذاكر يزيد من تعقيد المهمة ، ومن ثم تعيب زوجة سرجيف عن عيشه فترة من الزمن ، ثم يجدها ثانية عندما يعلنون عن الركوب ، ها هي تضى فى اثر الآخرين فتعشش بخيد فى باص مزدحم ، يبدو وكأنه انتفخ من الاجساد البشرية ، ينقل الركاب الى الطائرة التي لا تبعد عن هذا المكان بأكثر من امتار . وربما لن يوجد من يستطيع ان يفسر : ما الداعي لرحلة العذاب القصيرة هذه فى باص خاقي ، وكأنها دعاية سمعية . ولكن النظام استقر على ذلك منذ زمن ، ولا يعجز احد على الغاء هذه الحماية التي اضفى عليها الزمن ملامح القدسية .

واخيرا «اجلس» سرجيف زوجته فى الطائرة ، وابتعد السلم المتحرك ، وبعد ان صبح الصبايات آتخذا فى الاعتبار التأخير الحسى عن الموعد المقرر ، وجه الطائرة الى مدرج الافلاك . الآن عليه ان يعانى ساعتين من الرعب ، اى بالضبط تلك الفترة التي تستغرقها زعمته الصباحية . كان خذ سيره ثابتا : من بوابة المصحح سيمضى فى الدرب العريض الذي سيظنه البط البرى فيما بعد تمسحة فى غابة فيحيط عليه ، وبعده يتعطف الى الغابة ويسير دون ان يتخليا حول حبل لا تزال التلوج تغطيه وتجسول عند حلول الدفء الى مستنقع اخضر غير موحد ، فيعود الى الدرب قرب مدخل





قصيرة لا تكاد تبلغ سمائة سائحه ، بشغل سميك كان يظنه من الكاوتشوك . ولكن لا ، لقد اتضح ان هذا البوت الانيق مصنوع من مواد بدلية . من جلد صناعي وكاوتشوك صناعي . لقد ابتلت قدماء ، وهذه ليست مصيبة كبيرة . فرغم انه كثيرا ما يصاب بالبرد ، فلم يكن يصاب به بنفس الحمية المزجة التي تحدث للمجانز ، عندما يؤدي ابتلال القدمين الى تسيل الريح تحت اللقاع الى ارتفاع شديد في الحرارة واجوع وملازمة طويلة مملعة للقراش . وعلاوة على ذلك فهو لم يتعد كثيرا عن المصنع ، وما عليه الا ان يسارع بالعودة ، فيأخذ حماما ساخنا ، ويرتدي جوربين صوفيين وخفين منزليين دافئين ، ويشرب كأسا من الكونياك ، اذ لم يكن سرجيف يثق بأدوية زلات البرد . نعم ، بالطبع يمكن ان يفعل هذا ، ولكن من الغريب انه يظل قدميه اليسوم بالذات ، عندما اصبح للشره العادية مغزى خاص . ألم تكن في السابق ايام أكثر رطوبة بكثير ، بل وسقطت امطار ، واخذ الثلج يذوب بسرعة وغزارة ، ولكنه كان واقفا من يوته الهولندي قضى يظفر في يرك الماء مباشرة ، مثل هذا بمتاعته ضد السيول المندردة ، فما الذي جعل البوت يبتل فجأة ، في الوقت الذي لا توجد فيه رطوبة تلحق ؟ ورفع احدي قدميه اولا ، ثم القدم الثانية ، فلم ير خطوطا غامقة على التيجاش تدل على ان المياه تسربت الى داخل البوت . ولكنه يشعر بدهء مبلل ، وكان ذلك واضحا لا شك فيه .

وشدح سمحه الثقيل فسمع بقبعة خفيفة في فردة البوت اليسوى . واذا فقيصا ما . فلماذا لا تبرد اصابعه ؟ هذا الذي لا يمكن ان تشعر به الا في الدقائق الاولى ، عندما يبدو وكأن الجسد يدق الماء المتسرب . يا له من امر غريب ! . . .

لسبب ما لم يعد يشعر برغبة في العودة الى المصنع ، فوضى في طريقه وهو يفتتح نفسه بان ذلك كله ليس سوى اضطراب اعصاب ، وشيالات سرعان ما تمر . ولكنها لم تمر ، وبعد مضي بعض الوقت اطلقت البرودة على اصابعه . غير

انه يمكن تدفئتها بسرعة اذا ما حركها جيدا ، خاصة وان مقدمة البوت العريضة تسمح بذلك ، ولكن البرودة دبت فيها ثانية . كفى حذافة ، فليعد الى المصنع ، فالبوت يشرب اليه الماء لسبب غير مفهوم .

وحسنا ، فلماذا يتبني ان يحدث ذلك في هذا اليوم بالذات ؟ - عاد سرجيف يسأل نفسه وهو يزداد ابتعادا عن المصنع ، لماذا تهوى هذه الميزة العظيمة السماعة بالحياة ابتلاء الانسان بشئى المنقصات ؟ ليس اسهل من العودة ، فانا لست من المتطيرين ، رغم اني ، ككثير من المثقفين الروس اومن - يتهمك - في نذر الشؤم : القطلة السوداء ، والنفس اذا صادفك في الطريق ، والسرارة التي تحفل دلاء فارغة ، ولا يمكن ابدا ان التي مخطوطة القصة على القرائ ، واحب الاقوال السائورة واصطلاح تولستوى المختصر « ا . ب . ح » ( اذا بقيت حيا ) ، ومع ذلك فلن احيد عن طريقى اذا قابلت قطلة سوداء او قسا او امرأة تحفل دلاء فارغة . بيد ان هناك اشياء تحدث فتمشرك بوقعها المتعمد ، وكان قرما سائرا يقتضى خطاك لكي يدبر لك مكيدة ما مهيبة في اللحظة الحرجة . فاي شيطان جعل الماء يتسرب اليوم بالذات الى حذاءى الهولندي الرائع الذي يفترض ان يعيش دهرنا ؟ يمكن الظن بان ذلك حدث بتدبير مقصود حتى اعود ادراجى الى المصنع . حسنا ، وماذا لو اننى عدت ؟ سيكون من العسير عليّ ان اعضى الفترة المثيقة حتى نهاية الطيران . لن استطيع ان اقرأ او اكتب ، حسنا ، فلأتمسك واضى الوقت كيفما اتفق . . . فكلم مورت بمنزلة اذهب . . . يا الهى ، لماذا أخدع نفسي ؟ لن اعود ادراجى لانه قد استقر في يقيني ان ما يحدث لي هنا وثيق الصلة بما يحدث هناك ، في البحر . وهذا شئ اقرب الى اليقين . . . حسنا ، فمن ذا الذي يستطيع ان يقطع بانه لا صلة بين هذا وذلك ؟ وما الذي اعزته عموما عن تفاعل تلك القوى الغريبة الكامنة في المادة الحية وغير الحية ؟ اننا لا نعتبر من المعجزات قط ان الجزينات المتناهية الصغر ، والتي لها وجود واقعى تماما ،

تقطع مسافات هائلة لا يستطيع الوعى البشرى ادراكها ، فتحدث الى الارض صورتى المشتري والزهرة ، ومثل هذا الامر اللامعقول لا يسبب اى حرج لتفكيرنا الراجح ، غير اننا نرفض بعناد مذهل ان تصدق بوجود معجزات بسيطة اذا ما وقعت على الارض . «نحن اسلاك تحمل التيار» ، ألم يكن هذا التعبير حتى زمن قريب مجرد استعارة شعرية ؟ اما الآن فهو تعبیر دقيق عن جوهرنا الفيزيائى . ولكننا نرفض بشدة ان تصدق كهربائسا البشرية ، ونهزأ بما يروى عن علاج المرضى المينوس من شفاها عن طريق لمسهم باليدین . ومن يدرى كيف يرتبط مجالى الكهربائى بمجال الطائرة المحلقة الآن ، وبمجال زوجتى ، وبالتالى بمجال كل راكب من ركاب الطائرة والفراد الطاقم ؟ وهل يمكن الجزم بان حالتى لا صلة لها بسلامة هذه الطائرة ؟

ضحك سرجيف ضحكا خافتا ، اذ بدا له هذا وصبيانية هذا الواعى الذى يعشه على الضيق قدام فى الطريق الزلق المتجمد ، والذي وجد له جبهه الرائع اسانيد «علسية» . كان عقل سرجيف مركبا بصورة غريبة ، اذ لم يكن يستطيع ادراك كنه بعض الاشياء والظواهر التى يدرکها ببساطة اناس اقل منه ثقافة وادنى منه نباهة بكثير . فهو يقود السيارة منذ ما يزيد على الثلاثين عاما ، ولكنه لا يفهم شيئا فى محركها ، ويزتیک لدى اقل عطب بصيبيها ، ولا يعرف حتى كيف يستبدل شموع الاحتراق . وكان يعتبر الهاتف اعظم معجزة لا يفكرها العقل ، ولم يفهم الا فى الآونة الاخيرة فقط معنى كلمتى «ايكولوجيا» و«اسكليترياسيا» ، ولكنه لم يتمكن من الاحتفاظ فى ذاكرته بمعنى كلمتى : «انتيجراتيسيا» و«اسكالتاسيا» ، هاتين الكلمتين اللتين تبدوان فى غاية الاهمية ، اذ لا يخلو منهما تقريبا اى مقال علمى . غير انه سلم فى هذه الناحية بهزيمته ، ولم يعد يلجأ الى قاموس المصطلحات الاجنبية كلما صادفته هذه المصطلحات .

بعد ان وضع سرجيف الاساس العلمى لتلقه الاحمق وضحك من نفسه لم يعد ادرجه الى الضحك ، على العكس .

حدث خطأ قديما ، ولكن قدمه ذلك ، فحاول ان يحتفظ بتوازنه ، الامر الذى لا ينبغي ان يفعله كبار السن ، بل من الافضل السقوط برفق وانتدار سقطته تنبيه الرقود . وعلى الفور احس بالأم الراديكوليت العاذ يخترق ظهره كالرصاصة . بالطبع سقط مرتطميا بارض الطريق ارتطاما موجعا والتوت قدمه وهو ينزل على جليد الطريق ، ونفذ الى قفازيه تلج صلب قارس البرودة . وشرع يلحق هذا التلج من تحت جلد الفلازين مدفنا رسميه يسمانه السائح ، ثم نهض متحاثا على نفسه . لم يعد ثمة مجال للتراجع الآن ، وهيمسا يكن مدنيا فيما حدث فلا ينبغي ان يسمح للظروف بان تسيطر عليه ، فالانسان لم يصيب انسانا الا لانه كان قادرا على القيام باعمال لامعنى لها . ففى الظرف الذى يتراجع فيه اى حيوان ، لانه يسترشد بالفرائز التى لا تغطى ، يتصرف الانسان ضد اى منطلق ، وبالدرجة الاولى ضد ضعفه الذاتى . وفى هذا تكمن الفكرة الانسانية الاسمى ، التى لا داعى حتى لتصايتها ، لانها تسرى فى الدماء .

يبدو ان الحياة قوتت ان تغيب لتجده سرجيف لتخلصه من سببه الاحمق على الارض الزلقة بقدمه العصابة فى كاحليها ووسطه الذى صليبه الألم . فقد حدث شيء ما هنا خلال الليلة الماضية التى لم تختلف عن غيرها من الليالى بالنسبة لسرجيف اذ انقضت فى نوم عميق بلا احلام ، بدا وكان اغصارا من يحذاء طرف الغابة الذى يمتد عبره الطريق ، او ان زلزالا مخليا دمر المكان ، او انها القدرة التدميرية البشرية هى التى فعلت ذلك ، اذ مررت قافلة من الجوارات ذات الجنائز ، يقودها سائقون اطوار الظما الى القودكا صوابيسم ، فاسرعوا الى اقرب متجر ريفى ليبلوا جفاف حلقهم ، وهى تلوك الارض باشدق جنائزها الفولاذية . فبدا من الطريق المستوى ، الموصل قليلا ، والذي تنتشر عليه آثار الجنائز البرية والارانب والبق الصغرى من بول الخول ، تكتفت لعينى سرجيف كتل رهيبة من الجلاميد الجليدية تتخللها صخور كبيرة مستديرة لا يعرف احد من

اين اتت رسالا من العصر الجليدى ، وجذامير اشجار اقتلعت  
من الارض . وغطت عدة اشجار بتولا ، جذوعها مقطاة  
بالطحلب . خارجة من الغابة لتسقط ميتة بعرض الطريق  
المشود .

لمعت فى خاطره الميرتاك بارقة امل يانه اخطا الدرب  
المعهود بسبب ذهوله التابع من التلق والرضوض . ولم  
الخصر والقدم ، فوصل الى مكان آخر سبق ان رآه عدة مرات  
ولكنه لم يثبت فى ذاكرته لعدم الحاجة اليه . كانت هنا  
داخلها هذه العوائق : الصنخور المستديرة والجلاميد ،  
والجذامير المقلوبة واشجار البتولا المجندلة . يبدو انهم  
شروعوا هنا فى شق طريق جديد او فى تطوير المكان لمشروع  
قائم . . لم يكن هذا بعينه ، بل والاكثر من ذلك كان يشير  
اشمئزازه مثل اى تحول للمناظر الطبيعى الى ساحة بناء ،  
وكان وعيه يطرد عنه هذا المشهد المزعج بحركة دفن  
لاشعورية .

ابطا سرجيف من سيره ، وقاس بعينه المسافة الى  
المصح ، ورأى قنطرة فوق جدول لم يستيقظ بعد من سبات  
الشتاء . وبرز مساحاة فى العقل ، واعواد القصب الجافة على  
حافة البحيرة الصغيرة البعيدة عند طرف القضاء العربى ،  
فأدرك ان الطريق المتبد امامه هو طريقة المعهود والذى  
اصبح مختلفا . . مسدودا لا يسكن اجتيازه . ولم يفهم  
سرجيف ، ولم يحاول ان يفهم لماذا انقلب تعرفه على الطريق  
الى يقين بان الطائفة تتعرض لكثرة . لم يكن ذلك ممعا ،  
اتما المهم انه كان يعرف ما الذى ينبغي ان يفعله لاتقاذ  
الطائفة .

راح يتعثر ويستقل مدميا ركشيه ويديه . واحيانا يتمكن  
من تجاوز العتبة . واحيانا اخرى يتسلقها ، وتارة يرحف  
بجسمه مباشرة فوق الصخرة او الجلود . ولكنه اصبغ بعد  
ذلك اكثر حرصا . . فبوسعه ان تتصرف بنفسك كما تشاء ،  
حتى لو حطمت ضلوعك ، ولكنت لست مسئولا عن نفسك  
وحدها . فلنكن جذرا كالدعة على الرمش . . كما يقول المثل

التركمانى القديم . ما اسم ذلك الجد الذى كان سرجيف  
يحمله ويحافظ عليه ، وهو يشعر بوطاته الرهيبة على كتفيه  
وفى الوقت نفسه بخفته الغريبة : الحب ام الطائفة ؟ على  
العموم لم يكن ثمة تناقض بين الامرين لانهما امتزجا احدهما  
بالآخر . كان على قوة سرجيف الصغيرة الضعيفة ان تساعد  
المحركات المنهكة على بعد الف كيلومتر من هنا وتنفذ قلبه  
هو . ان كل شئ دائما ما يتوقف على مستنصر الامور ، فهو  
الذى يفرق بين الناس ويضعهم . ويقول الزمان ويصلبها ،  
ويتحكم فى مصير شعوب باكملها . فلماذا ما بقيت الدعة على  
الارض فسوف ينجر الانسان وكل ينس جنسه ، تنجر البلاد  
واهلها . . واذا ما اندثرت ، مبللة ببرودتها الخد ، فسوف  
يعر يد الشر الكورى ويبيد ما على الارض . فلتسك دمعك  
يا سرجيف ، ولتسك طريقك الى الاصنام ، وليسسل دمك  
وتتحطم عظامك ، ولكن لا تسقط العمل النمين ، ولتواصل  
ما تقوم به ، حتى لو بدوث احمق تماما فى نظر ذوى التفكير  
الرشيذ وفى نظرك انت نفسك عندما تثوب الى رشك .  
انظر ، لقد اصبحت ماعرا فى حركاتك ، وان لم يملك هذا  
من الكلمات والرضوض ، ولكنك تتقدم باطراد الى الهدف  
وتحمل حملك فى ثبات .

غطى العرق المتصعب من تحت طاقيته الصوفية عينيه ،  
فلم يتعرف على الهدف الذى يبلطه عندما وصل الى بوابة  
المصح مكمل الدائرة . كاد يسطلم ببرج الحراسة الجبرى ،  
وانزل حمله على الارض بحرص ، وترك الدعة تسقط من  
طرف رمشه . . .

... عندما هبط سرجيف الى مكتب الادارة ، بعد ان  
نام جيدا ، وهو يتوكل على عصا ولكنه فى مزاج رائع ، لم  
برواده الشك فى ان هناك برقية فى انتظاره .

كانت وظيفة التسجيل ، وكانت قناة حادة ، باجبان  
مضبوبة يذرن بفسخى عصرى :

- اليريد ياتى صباها ، ولم يرد شئ . باسمك .

فانقسم سرجيف قائلا :

- حسنا ، ربما إشارة هاتفة .  
- ولم ترد إشارة هاتفية - قالت الفتاة بنوع من  
العصبية ، لانها لم تكن تسمى لليلة واحدة ان جمالها الخارق  
لا يتناسب والمنصب الذي تشغله .

فقال سرجيف بشفة ومرح :

- بل وردت ! وكنت انت متغيبه عن هنا .  
- اتسا لم اغادر هذا المكان - قالت العنساء وهي  
تتضرع بحمرة المنجر وتغضب من حمرتها « العامية » هذه ومن  
سرجيف المتسبب فيها .

فقال سرجيف مواصلا ضغطه :

- انظري في درج الطاولة .

شدت الدرج بجدة ، والتفتت منه ورقة ما . . . ولو ان  
سرجيف اولاهما قليلا من الاهتمام ، لاشفق على هذه الفتاة  
المغرورة المجروحة الكبرياء ، التي اطلت التعاسة من عينيها  
تحت الاجفان البنفسجية .

- لم انصرف الا ليلة واحدة . . . القراءشة هي التي  
تلفتها .

على قصاصة جريدة خط بعروف كبيرة ملتوية مكتوبة  
بعناية : «وصلت بسلام . بدأت اشعر بالوحشة . اقبلك .  
لاريسا» .

، ، قبل ذلك بساعتين ، قال قائد الطائرة لمساعد  
الطيار بعد ان هبطا من السلم الى ارض المطار الجنوبي  
الدافئة التي تقوح منها رائحة العشب :

- وماذا كان ذلك ؟

كان مساعد الطيار اكبر سنا بكثير من قائد الطائرة ،  
ولكنه بقي مساعدا فقط ، الامر الذي جعل روحه ذابلة وغير  
قادرة على الاندهاش المتشوق . فجزّ كتفه بلا ميالة قائلا :

- عم تحدث ؟

- دعك من التغابي . . . انت شعرت بذلك . . . اسالك  
ما الذي حمل الطائرة ؟

بالطبع اندرك مساعد الطيار على الفور عم يسأل القائد .

ولكنه كان يعرف انه سيحال قريبا الى التقاعد دون ان  
يعوض النقص الضائعة ، فما الداعي للتوتر واعمال الذهن  
لتبقيس موشك على التقاعد ؟ فليدع لهذا الرجس الناجع  
ان يبعث بنفسه عن تفسير للانعاز التي تقلقه . وعلاوة على  
ذلك فقد اوصته زوجته بان يشتري حذاء مجليا بلا كعب من  
السوق الصغيرة القريبة من المطار ، وكان ينسى حتما  
مقاسها .

فقال غائبا :

- المهم اننا وصلنا ! اما هذه الكهنة القوية فيتبقى من  
زمان سعيها من العمل . . . - وغد خطاه .

فدبدم قائد الطائرة وهو ينظر في اثره :

- هذا صحيح . . .



أرواحا . ففي ذلك الحين حصل الكثيرون منا على شقق في «تشميريوموشكي» و«اسماعيلوفو» وغيرهما من أحياء موسكو الجديدة ، فثاروا «البرك الصافية» . وأصبح جمع شمل الأصدقاء القدامى أمرا عسيرا لا يتطلب الحماسة فحسب ، بل والصبر والالاحاح والجهود الجهيدة . ومع ذلك تمكنت نينا من جمع شملنا مرة أخرى في المكان القديم ، في صالة المحفل الماسوني بذلك البيت العريق . غير أن اللقاء خلا عن البهجة السابقة . فخلال هذه السنوات صفيتنا جميعا حساباتنا مع الشباب حتى آخر ملهم . وحدث أن بعضنا لم يتعرف على الآخرين . وأحس الجميع لاشعوريا بأن هذا اللقاء لم يعد لقاء أصدقاء الدراسة ، بل هو استئناف لمعرفة قديمة غير ضرورية جدا . إذ لم يعد ثمة وجود نصيبان وبنت الصف العاشر «أ» بالمدرسة رقم ٣٦٦ دفعة عام ١٩٢٨ ، وكان ذلك واضحا وضوحا لا جدال فيه ، وكأننا ماتوا وجاء أشخاص آخرون ، ليسوا في شباب العمر ، متعبون وغير جذابين بثلك الدرجة ، فانتحلوا اسماءهم وبعض ملامحهم الثانوية : حركة الرموش ، النأاة ، الابتسامة ، الرعشة العصبية في الوجه ، القدرة على التضرج بحركة الجمل ، اللثة الخفيفة . وكان هذا اللقاء أشبه بخل تأبين ، فلم نجتمع بعد ذلك . غير أنني لن أقص عن لقاءات أصدقاء الدراسة ، وإن كانت القصة ذات صلة بها بصورة ما . . .

ظن هو في نهاية أحد لقاءاتنا ، بعد أن كان الجميع قد نفضوا عن المائدة ، والحاكي يرسل ضيحه الأنيب بلا توقف وبصورة مضجرة ، وكل منا يلوح على قدر ما يستطيع . كان اعرج ، يعتمد على عصا غليظة ذات عقد ، مطلية بطلاء لامع ولها قبضة كروية فضية ، عرض المنكيين إلى حد مفرط ، لكن قامته بدت غريبة في قصرها وكأنها قصت ، وبصلعة شاسعة شاحبة ووجه ملئ بالندوب وآثار الجراح . دخل خلفنا ظالما كتعصيد مادي فج الشبح من أشباح الحرب . كانت حذقتا عينيه المظلمتان متسعيتين دوما ، بحجم قطعة



## مصرع طيار

في السنوات الأولى بعد الحرب كثيرا ماكنت التقى بزملاء الدراسة ، من بقى منهم سليما أو شبه سليم . كان أكثرهم يسكنون ، كما في السابق ، في منطقة «البرك الصافية» ، فكنا نلتقي عادة عند نينا كاراميشيفا ، المحافظة دوما على ولا ، الفرسان للزراعة المدرسية ، في شقتها الواقعة في حارة لوبوفسكي ، مقابل مدرستنا السابقة .

كانت نينا تقطن بيتا قديما من بيوت الخلاء ، حيث فازت منه بصالة هائلة رفاعة جدرانها مكمورة بالخشب وتوافدها ضيقة طويلة ، وقد أكدت لنا أن صاحب هذا البيت السابق كان من زعماء المحفل الماسوني ، وفي هذه الصالة كان الماسونيون يمارسون طقوسهم السرية . كانت الصالة جهمة إلى حد ما وغير مريحة ، ولكنها عوفضت ذلك بسمعتها ، فقد كنا نجتمع فيها أحيانا أكثر من عشرين شخصا : إذ فاش «بناتنا» المتزوجات بأزواجهن ويأتي : «الأولاد» وبزوجاتهم . في منتصف الخمسينات انقطعت هذه اللقاءات التي كنت

كوبيك ، يحيط بهما طوقان الزرقان وماديان ضيقان ، وجيبته  
ملساء جامدة ميتة ، تغلق من التجاعيد ، وشفتيه العليسا  
جامدة ايضا ، ميتة كجيبته وكانها شفة شخص آخر ، فكان  
يتسم بشفتيه السفلية فقط ، فيبدها الى الامام ويلويها  
اسفل ذقنه . وبدت آثار الخياطة البيضاء الناعمة على صدره ،  
وعبر خده وتحت عينه ، ولم يظهر فيه ما يدل على سابق  
وسامته سوى برقعته (الساقيتين القويتين الملوحتين ، وعلى  
يمين صدر سترته شريط ذهبي «مكافأة اصابة» \* لا يبدو  
متناسبا ابدا مع حجم مأساته . نعم ، لقد داست الحرب بكل  
عجالاتها على هذا الرجل ، ولكنه لم يستسلم . وبعد ان القى  
على جماعتنا نظرة من حدقتي عينيه المستعيتين بقلق وتبادل  
معنا التحية ، سحب جسده الثقيل نحوي بنشاط ، وقال :

— انا ابن عم ربة الدار ، واعرف كل زملائها في  
المدرسة ، ولكني لا اذكر .

— وانما اعرف كل اقرباء نينا ، ولكني ايضا لا اذكر .  
— اذن لم يقدر لنا ان نلتقي من قبل — وابتسم لاويا  
شفتيه السفلية — هل تعمل في مكتب البرق ؟  
يبدو انه حسبنى شخصا آخر ، او ربما مجرد تخمين .  
— كلا ، انا كاتب . . .  
— ماذا ؟ — واضح وجهه جادا ، بل ومهموما ، وقال  
بصوت آمر — ما اسمك ؟  
وذكرت له اسمي وانما اعاني وطأة الاحساس بالعجز ،  
الذي يحس به كل كاتب مبتدى\* .  
— ماهو آخر كتيك ؟  
قلت بامل :  
— «جنود الحرس على شاطئ الدنيير» .  
فتهلل وجهه وقال :

\* كان ينعم على المتقاعلين السوفييت في الحرب الوطنية العظمى  
(١٩٤١-١٩٤٥) شد المانيا الهلرية بأثره ذهبيته على الصدر  
تقديرا لما يصابون به من جراح مخينة بواقع شريط ذهبي عن كل  
اصابة بالغة . الهروب .

— الحمد لله . «جنود الحرس على شاطئ الدنيير» . من  
ذا الذي لا يعرف هذا الكتاب !

كان كتابي الصغير هذا قد صدر منذ عدة سنوات وبعدد  
قليل من النسخ فلم يلبث اليه الانتظار . وعلى اى حال فاننا  
لم التق باحد قراه ، خارج دائرتي المحدودة . فتطلعت الى  
ابن عم نينا باهتمام شديد . وتصادع من اعماق احساس  
جديد غريب مؤثر وجدته ثم هوى كما في الأرجوحة .  
— هل حقا قرأته ؟ .

— وهل تظننى انسانا جاهلا عديم الثقافة ؟ . هيى  
تتعرف : فلاديمير شغورين ، ملازم متقاعد ، طيار مقاتل ،  
جامل اوسمة .  
وشددنا على ايدى بعضنا البعض .

واوقف شغورين ابنة عمه المارة بيجوارنا :  
— نينا ! لقد اتضح ان هذا الرجل هو مؤلف «جنود  
الحرس على شاطئ الدنيير» !  
فسألته نينا بهدوء :  
— وماذا هناك ؟  
— ماذا تقولين ! المقاتلون في الجبهة كانوا مفرعين  
بهذا الكتاب !

— وكيف عرفت انت ؟  
قالت نينا ومضت في سبيلها .  
— ارايت ؟ قال شغورين مازحا وهو يحدق في .  
وعرض علي ان نخرّب ثياب التعارف ، ونخطا خطوة عريضة  
نحو الطاولة ناقلا الى الامام عصاه ونجيبه الايسر وملا  
كاسين .  
وقال يعاطفة :

— نخب حراس الحياة !  
وقرعنا الكؤوس ، وشربت كأسى حتى الشمالة . اما هو  
ففسها بشفتيه فقط . وقال وقد لاحظ نظرتي :  
— مشغوع علي .  
وفيما بعد ايضا لم يقرب الخمر ، ولكنه تصرف كشخص

أفقدته السكر صوابه . لم يكن ثملاً من الخمر بل منى انفعال داخلي لا يخبر . وبدا ان صوته العالي ، الواثق ، الطاغى على بقية الاصوات ، يتردد من عدة اماكن في وقت واحد . كان يقتحم كل الاحاديث والمناقشات ، ويسدل بأحكام وآراء قاطمة ، ويصدر الفتاوى في كافة مجالات الحياة : ابتداء من التسون المنزلية وحتى تعليم الموسيقى للأطفال . ولم ينسني انا ايضا .

قال وهو يتحنن فوقه بجنسه العريض الثقيل :  
- ينبغي ان تكتب عنى . ان حياتى هى قصة من السف ليلة وليلة ! «جنود الحرس على شاطئ الدنبر» كلام فارغ . ستكتب عنى كتابا يجعلك شهيراً على الفور . ينبغي فقط ان تجد اسمية خالية فاروى لك فيها كل شىء . . . لا يهمنى المكسب ، انهم ان نسجل التجربة ! . . .  
فى الحقيقة لم اعد اشعر بحسره بالحماسة السابقة . وبدأت اميل الى الظن بأنه لم يقرأ «جنود الحرس على شاطئ الدنبر» ، بل ولم يسمع باسمى من قبل . وحتى لا يقع بحسره على انزويته فى ركن بعيد ، حيث وجدت نفسى بجوار واحد من أكثر الضيوف انطواء وصمتا ، الا وهو سرجى ساريتشوف .

كان شاباً طويلاً ، قوى البنيان ، بوجه اسمر كبير التقاطع ، بعينين رائعتين حزينتين كعيون البقر . وقصد حرمه القدر من الشرف الرفيع بأن يكون واحداً من تلاميذ دفعتنا . ولكنه ورث حتى حضور لقاءنا عن أخيه الأكبر ميتيا ساريتشوف ، الذى استشهد فى الحرب . اتصل بنينا هاتفياً فذكر لها اسمه وأعرب عن رغبته فى رؤية أصدقائه الأرحل . ووعدته نينا بأن تدعوه لحضور أقرب لقاء . ولكنها لم تفعل الا بعد عودة زويا أستانينا من رحلة فى الشمال . كان ميتيا يطلق على زويا اسم «المحبوبة ثلاثاً بلا رجاء» . فقد احبها وهو جرو صغير ، ثم وهو صبي ، ثم وهو شاب ، وفى جميع المراحل الثلاث لم يتبادل الحب . وكانت نينا بعيدة النظر بصورة قاهرة ، اذ أظهر شقيق

ميتيا لنا ما الذى كان سيحدث لو ان ميتيا بقى على قيد الحياة . كان سرجى يأتى ، فيغنى جسدته الضخم فى الظل والانزواء ولا يحول نظره عن زويا . ولم تكن زويا ، تلك الفتاة الطويلة ، القوية الجسم ، الحمراء الشعر ، ذات البشرة الناصعة البياض والعينين المنفتحتين المستطيلتين كعيون المغول ، تلقى بالا الى ميتيا . أما الآن ، عندما لم يعد على قيد الحياة ، فقد راحت تتذكره أكثر مما تتذكر غيره من رفاقنا الراحين . كانت زوجة سعيدة ، وأما ، وتعمل درجة الدكتوراة ، وتعى جيداً ماذا تريد ، فسارت فى الحياة عبر طريق مستقيم واضح ، غير ان شاعرية حياتها ماتت بموت ميتيا . ورغم كل واقعيتها وجفافها فقد أدركت ذلك . الا انها ، مع قدرتها على ادراك شاعرية الماضى ، كانت عاجزة تماماً عن تقديرها فى الحاضر . ومن ثم كان سرجى ساريتشوف يثير اعصابها .

كانت تقول له بحدة :

- ما لك تصلق في ؟ لا فائدة من ذلك .

فيرد ساريتشوف بهدوء :

- اعرف .

- اذن فلا معنى لذلك !

- لا معنى . . . - يردد باذعان ساخر ، ويشع الألم من عينيته البقرتين .

لم يكن اى منا يعرف مهنة سرجى ساريتشوف واين يعمل ويمكن . وهل لديه أسرة أم لا . لقد جاء النينا مبعوثاً من نيتيا ، متحرراً من انقال الحياة كلها ، بفرض واحد وحيد : ان يواصل حب زويا . وعوماً فقد كنا نعرف ان لديه سيارة ، الامر الذى كان نادراً فى ذلك العهد .

وقال لزويا التى كانت فى العادة أول من يغادر الحقل :

- سواصلك بالسيارة .

فاجابت بخشونة وهى تنصرف :

- لا حاجة !

كنت جالماً بجوار سرجى فرأيتة يخرج السيارة من فيه

بهذه وباتسامة خفيفة ، ويفرز طرفها المشتمل في بطن راحته  
كما في مطفأة ، والتصقت السيارة بموضع الحرق ، وفاحت  
رائحة احم مشوى ، وبثقرة من اصبعه اطاح بالسيجارة على  
الأرض ، ومسح الدم والجلد المتفحم ، ودس يده المحروقة  
في جيبه .

وسرعان ما عذمت انا ايضا على الانصراف ، فعرض علي  
ان يوصلني . قال :

— طريقنا واحد .

— اتعلم أين اسكن ؟

— عند بوابة كروبوكنيسكي .

وبينما كان يرتدى معطفه في المدخل راح يغني بصوت  
خافت ورخيم للغاية :

سأروح يسر في قلبي

من اعشقه ليس يقربني

وحينما لاحظ انني اصغى ابتسم ولكنه واصل الغناء :

ارثي لو احد ، وواحد مضى

وقالت يشق قلبي نحوه العدى

— ماذا ؟ اننت عجري ؟ — سال شفورين وقد اقترب منا .

واصبحت باتسامة ساريتشوف متوترة :

— فلنفرض ، ماذا يترقب عن ذلك ؟

— لا شيء ! . . . وهل انا مثل هتلر ؟ . . . هو الذي كان

يببئ الفجر ، اما انا فاحترم جميع الامم . . . مهلا ، سأذهب

معكما !

وهبط ساريتشوف على الدرج بسرعة وهو يشد قفازيه  
على يديه . ورغم كبر جسمه وثقله كان يتحرك بخفة نادرة  
فكنت لا اكاد الاحقه . وانعني شفورين بجنبه على الدراجين  
وهو يقرقح بعصاه وانزلق عليه فلحق بنا في الاسفل . وفتح

ساريتشوف باب سيارته «الاول-اوليمبك» ذات اللون الازرق  
الفاتح الساطع .

وصاح شفورين شاحبا :

— سيارة من هذه ؟

فقال ساريتشوف ببرود :

— سيارتي . هل هناك اى اعتراضات ؟

فسال شفورين بنفس الاندفاع والاعتحام دون ان يلاحظ  
لهجة ساريتشوف الباردة :

— احضرتها من ألمانيا ؟

فاجاب ساريتشوف ساخرا :

— كلا ، من الفناء السابع لمصنع «زيس» .

— وما هو هذا الفناء السابع ؟

— مقلم تقايات السيارات الغنيسة .

فقال شفورين وقد هذا قليلا :

— هذا ما قدرته . واضمح على الفور انها سيارة خرجت من  
العمرة .

كانت السيارة تبدو جديدة تماما ، ولكن ربما كان  
ساريتشوف صادقا فيما قال ، بينما لاحظت عين شفورين  
التكنيكية المدربة آثار الجراح التي عولجت على جوانب السيارة  
اللامعة ، وعصمت بركوب السيارة واذا بشفورين يقول بحزم :

— اوصلني الى متطلة محطة كورسكي !

وسبقنا الى ركوب «الاول» .

فقدم ساريتشوف باستياء :

— ليس في طريقنا تماما . حسنا ، قل ، الى اى مكان

بالتحديد ؟

فاجاب شفورين وهو يتبدد في المقعد :

— حارة تشيرنيتسكي ، منزل سبعة ، شقة ٢ ، هناك

جنائي . . .

تتحرك ساريتشوف بالسيارة بقفزة حادة . كان واضحا ان  
شفورين لا يعجبه . وكان هناك ايضا سبب آخر ، اذ كان يود ،  
فيما يبدو ، ان يتحدث معي عن زويا ، والاربع انه كان





وخرجت بنا السيارة من الحارات الى ميدان محطة  
كورسكى .  
وقال ساريتشوف :

- اسمع ، ليس من اللائق ان تترك سيدة تنتظرك .

فلم يفهم شقورين وسأله :

- عم ؟ تتحدث ؟

- لقد تجاوزنا منزلك منذ وقت طويل .

- هل تطردنى ؟

- كلا ، ولكنك قلت ان فى انتظارك فنانة وكونياكا

فرنسية . انا فقط اذكرك .

فقال شقورين باستعلاء :

- انا ادرى بما ينبغى علي ان افعله .

- لا يبدو ذلك ، والا كنت نزلت من زيمان . انك

تعتلنا .

فصرخ شقورين بصوت رفيع غريب :

- اوقف السيارة !

ضغط ساريتشوف على القرامل بعدة ، فانزلت السيارة

تقليلا على الجليد وتوقفت بين خط الترام وكوم تلج عال .

- انزل بسرعة ، الوقوف هنا ممنوع .

فتح شقورين باب السيارة وخرج يظهره فى جهد من

ناحية خط الترام . وامسك بمقبض الباب ودق بعصاه على

زجاج السيارة ، ففتح ساريتشوف الباب بقوة وصاح :

- ماذا تريد بعد ؟

فصرخ شقورين يقول بصوت فيه نبرة خطر :

- لا تتعجل ، مهلا . . ياله من عجول ! .

- كفى ، اضجرتنى !

- وانت ايضا !

- افرح عن وجهى !

اشعل ساريتشوف محرك السيارة وضغط بقوة على

دواسة البنزين ، فاندفعت السيارة الى الامام . وترك

شقورين مقبض الباب ، وترنح ، وسقط بثقل وتجهل ممدا

فوق ارض الشارع المغطاة بالجليد . واستطاعت ان اراه  
عبر الزجاج الخلفى وهو يتلوى على الارض عاجزا عن الوصول  
الى عصاه .

فقلت لساريتشوف :

- لا يصح هكذا ! انه مع ذلك معوق .

- يعضشنى طول بالك ، كيف تطبق هذه الثثرة

الفارغة ؟

- ولماذا تحسبها ثثرة ؟ اليس من الجائز انه صادق ؟

ثم انه لا يصح ان تعامله هكذا . . .

فقال بقسوة :

- دعك من ذلك ! انا ايضا حاربت ، ومزق الرضاص

رنتى ، ولكن هذا لا يعنى ان اركب على رؤوس الآخرين .

انا امقت التعساء والفارغين .

ولكن صورة شقورين وهو يتلوى على القضبان محاولا

ان يضل الى عصاه لم تفارق ذهنى ، فقلت :

- اوقف السيارة !

نظر ساريتشوف الى بطرف عينه سائرا ، ولكنه لم يمس

للبنى . اننى لا ادينه . ففى اساءه ، الذى كان يحمل

كالفليب ، بدت له سخافات شقورين المبتذلة شيئا لا يطلق

بالفعل ، فكانها كان شقورين يحاكى بصورة ساخرة مأساة

ساريتشوف وضياعه وفشله . ولكن ساريتشوف كان مع

ذلك يقف راسخا على قدميه ، ويمسك بعجلة قيادة لسيارة

ملكه . ويجيد الضمت والابتسام والدندلة من بين اسنانه ،

كان اقوى منه . وضمت بسرعة عائدا الى ذلك المكان الذى

تركنا فيه شقورين .

لحقت به فى حارة تشير ليتسكى وهو يطلع بصعوبة على

الرصيف المرشوش بالزمل . لم اكن اتصور ان الحركة

تتطلب منه كل هذا الجهد . ففى الغرفة كان يكتفى ان يخطو

خطوتين . وعلى الدرج كان يهبط بمهارة منزلقا على

الدرازين . اما الآن فكان يسير بجسده كله ، كانه احدى

المضطليات ، مثلوى ، شادا نفسه خطوة اثر خطوة ، وظننت

اننى ساجده مهائاً ، محزونة ، متقدأ غضباً ، ولكنه كان يضع نفسه فى منزلة عالية لا تسمح له حتى بمجرد الظن بأنه قد أهين عبداً .

— هل رحل العجوز ؟ — يبدو انه لم يدعش إطلاقاً من اننى فضلت صحبته — يا له من انسان غريب ، فرحان بأوبله كفرحة الدجاجة ببيضتها . ولا يبيد القيادة . اندفع بالسيارة حتى كدت اسقط . حسناً ، دعنا منه ، فسوف يتعلم القيادة فى يوم ما . . . لو رجائى جيداً فسوف أعلمه كيف يقود . يقال ان الارنب ، اذا ضرب ، يتعلم النقر على الطبل . . . هل تأتى معى قليلاً ؟ . . . ستقبل يدعى وتشرب كأس كويناك .

دلفت فى اثره الى مدخل كبير رنان لمعارة قديمة شيدت بغرض التأجير . وصعدنا الى الطابق الثالث فى مصعد بطى الحركة وقور العظمة ، واسع ومتنوع . وفتح بالمفتاح باباً بصراعيه ، عظيم كالمصعد وعالياً للغاية ، يستقبض نحاسى . وعبرنا ردهة شبه مظلمة كانت تلمع فى ركنها عينان زجاجيتان لدب واقف على ساقيه الخلفيتين ، فولجنا غرفة واسعة ، يضيئها بصيص النور الكايب القادم من الخارج .

وفرع مفتاح النور . عيناً كنت انتظر معجزة . فلم يكن فى الغرفة احد غيرنا . وتملكنى خزى بارد لرج كالغرف . ولكن لم يد على شقورين خجل او ارتباك .

قال بغيمه امل خفيفة :

— كل شئ واضح . ليس هناك ما هو اسوأ من الارتباك بعالم الفنانيين . . . نزوات لا تنتهى وحركات . . . ولكنى لست ممن عزلا ، الفتيان الذين تجوز معهم هذه الحركات . . .

وشوحت فمها ابتسامة بالسة تستدر الرثاء ، ابتسامة جريئة صاعدة من اعماق روحه دون ان يشعر بها .

كانت على الجدار صورة فوتوغرافية مكبرة لصبي فى بدلة مخملية ، نحيل ، اشقر الشعر ، بوجه مستطيل وريق .

وقال شقورين :

— تتلم صورتي ؟ ماذا تريد . . . قريبة ارسنقراطية ! مربيات فرنسيات وبوئات ، ومدرسو موسيقى . . . امى نصمة ازياء شهيرة ، واما لطيف ، سيدة عالة ، نايقة فى الطب . . .

وظل طويلاً يقيق بقفاعاته الارسنقراطية ، اما انا فتذكرت بوضوح غريب ذلك الصبي صاحب الصورة ، لكنه كان اكبر من ذلك بخمس او ست سنوات ، ولم يكن فى بدلة مخملية بل فى زى عسكرى وعمره لطالب بكلية الطيران .

كان هذا فى ذلك اليوم الغريب من شهر ابريل عام ١٩٣٨ عندما طال الشتاء ثم تحول فجأة وبدون مقدمات الى صيف . وبدأت اصابع الجليد الضخمة المدلاة من سقف مبنى المدرسة ، كالرواشع الكلسية ، تذوب بسرعة خارقة ، فبدأ وكان سيلان من المطر ينهمر فوق الرصيف . ثم راحت الشمس تلب هذه الاصابع الشفافة فاختذت تتساقط برنين على الاسفلت ناشرة فوقه فناناً زجاجياً . ودوى هدير الكتل الجليدية المتساقطة داخل المزاويب ، وعميق الجو برائحة الربيع القوية الى درجة اننا عندمنا خرجنا بعد الدروس الى الشارع دارت رؤوسنا بنشوة جنونية . حينذاك راينا هذا البليار الشاب الرشيق فى عمرته المائلة على رأسه الاشقر . كان فيه نوع من الجسامة والنحل ، والبلوغ المثير للعسد ، والرجولة الصبا الممزج ، لدرجة اننا نحن التلاميذ ، الملوثين بالظلمة والخبير ، بدونا اكبر منه بكثير . كان هو جزءاً من هذا العالم الهش ، الرنان ، الزجاجى ، المشمس . واندفعت نينا نحوه بفجرة ، فتراجعنا نحن المتيمين العنيين والسريرين بها صاغرين . . .

الآن رايت بوضوح اشد مدى الخسارة التى ألحقها به العرب . فمقدمة رأسه الملساء العظمية لم تكن كذلك بسبب صلص أصابعها ، بل لأنه ثقل اليها جلد من مكان آخر لا ينمو فيه الشعر بطبيعته . ولنفس السبب كانت جيته وشفته العليا

ميتتين ، اذ رقتا بجلد آخر . كان كله ملصقا ومغيطا من بقايا جسده المظلم المحروق .

— عليّ ان اذهب . . .

فراح يقنعني بتناول كأس من الكونياك ، لكنني رفضت . وصاح شفورين في اثرى :

— لا تنس في المرة القادمة ان تأتيني بكتابك !

راودني احساس بالامتنان عندما خيل الي ان هذا التعارف سوف يستمر . ولكن اخلاط ، اذ لم يظفر شفورين بعد ذلك في سفلاتنا . وذات مرة ، وكنت استعد للذهاب الى لقائنا ، الذي قدر له ان يكون الأخير ، تذكرت وعداء شفورين كتاب «جنود الحرس على شاطئ الدنيبر» الذي كان مغرما به ، فاخذت معه نسخة منه .

قالت نينا :

— ليس صعبا علي ان اوصله اليه ، ولكن هل ثمة

داع ؟ لا بد انه نسي ذلك الحديث ، فلماذا تغير شعبيته بلا معنى ؟

اعطتني اجابتها هذه الحق في ان اسألها عن شفورين . كنت اريد ان اعرف هل ثمة ولو جزء من الحقيقة في كلامه عن الأوسمة والنساء ، وتلك الحياة الرقدة ليطال يشبع بسماس استحقته عن جدارة .

قالت نينا بانسامة مزينة مرهقة :

— اى اوسمة هناك واى فنانة ؟ انه انسان بانس محظوم ، وكلنا تشفق عليه . . . ولكنه شخص طيب ، فالوديا هذا . . .

— حسنا ، ألم يكن على الأقل طيارا ؟

— بالطبع كان . كانوا يعتبرونه في كلية الطيران انخب الطيارين الشبان ، وكانوا يسمونه «تشكالفو المستقبل»

\* فاليري تشكالفو (١٩٠٤-١٩٦٨) طيار سوفيتي شهير ، حاز على لقب بطل الاتحاد السوفيتي ، قام بأول تحليق من موسكو الى الولايات المتحدة عبر القطب الشمالي بدون توقف . لقي مصرعه وهو يختبر طائرة مقاتلة جديدة . بالعرب .

ولكنه ، اذا جاز القول ، بدا بما انتهى به تشكالفو حياته . . . لقد مزقه في اول ايام الحرب ، تصور ؟

— في معركة جوية ؟

— ياليتها كان كذلك . . . كان عليه ان يقوم بأول طلعة قتالية . ولكن قبل ان يقلع بطانرته هاجمته طائرة انقضاض المانية وهو على مدرج الاقلاع ومزقته برشاشاتها . تصور ، يظل طول عمره يحلم بالبطولات ويستعد لها ، ثم يصبح قعيدا تاما دون ان يشارك في معركة واحدة . كان ذلك بالنسبة له صدمة رهيبية ، وبعد المستشفى ظل نزولا فترة طويلة في مستشفى الأمراض النفسية ، ثم خرج منها واحيل الى التقاعد . أمه خياطة ، وبخالته طبيبة أسنان ، وحياتهم ميسرة ، وهما لا تبخلان عليه بشئ . . .

— وما معنى هذه القصص الخيالية التي يرويها ؟

— الحقيقة انه طبيعي جدا بين اهله ، وتفكيره سليم ومتزن . . . اما بالنسبة للغرباء فيخترع حياة ترف وثيرة لمحارب قديم متقاعد . انه عموما لا ضرر منه ، فليستسل ، نحن لا نلقى بالا الى ذلك . . .

مرت سنوات قبل ان اسمع عن شفورين ثانية . صدرت لي مجموعة قصص «البرك الصافية» ، فاردت ان اعرف كيف كان وقها على ابطال قصص الواقعيين . وبعد جهد كبير حصلت على رفقم هاتف نينا ، فقد فادرت مثل الآخرين حي «البرك الصافية» .

لم تقرأ نينا كتابي بل ولم تسمع عنه . وهي لا تلتقي بأحد من جماعتنسا ، فهي تعيش بعيدا ، عند طريق نيلكوفسكوبه حيث حصلت على شقة مستقلة ، ولم يبق احد من جماعتنا في البرك الصافية .

— اما نحن فعلت بنا مصيبة . . . فالوديا شفورين ،

أذكره ، ابن عمي وغريبي الأبدى ؟

— اذكره ولكن كابن عمك فقط .

— كان يؤكده للجميع انني سأصبح زوجته عاجلا أم آجلا . . . لقي مصرعه في حادث سيارة منذ أسبوع .



- اذن فقد اقتنى سيارة مع ذلك ؟

- امه وخالته ساعدتاه ، اشفقتا على الصبي

المسكين . . .

اشترى سيارة «موسكفيتش» وحوّلها الى القيادة يدوية ،  
واقن قيادتها اقلنا تماما ، ثم سافر الى اقلبيه في بلدة  
«كراسنايا باغرا» ، وبات ليلة هناك ثم قفل عائداً . وفي  
تلك الاثناء ازيل الجسر الخشبي المقام على النهر . ولم يلحظ  
الاشارة ، وكانت السرعة اكثر من مائة كيلومتر . . . يا له  
من حظ غريب ، في الماضي اصيب في اول طلعة ، والآن  
في اول رحلة . . .

منذ فترة قريبة كنت اقد سيارةتي عائداً الى موسكو ،  
وكانت ارض الطريق جليدية زلقة . ونجاة خرج علي من  
جنب الطريق ، من حيث لا ادري ، شرطي مرور رافعا يده .  
بدا وكأنه كان مختبئا في كمين ، مترصا بأول فرصة ،  
وبها هو الآن قد خرج من مكانه بطل قائمته ، بهيئة رهيبة  
لا ترحم . وحاولت ان اخمن في اسي ، وانا اضغط على  
الفرامل ، ما الذي يمكن ان ياخذني علي . تجاوز السرعة  
المحددة ؟ اى تجاوز هناك وانا اكاد اخف بالسيارة رجفا .  
لم اطق ضو الاشارة ؟ كلا ، اطفائته . السيارة قدرة ؟  
لا ، بل نظيفة ، نظفتها لتوى بغرقة مبتلة . الاطارات  
مستهلكة ؟ كلا ، بل ان الرسوم على الكاوتشوك واضحة . . .  
ومع ذلك يبدو اننى اقترقت خطيئة رهيبة في نظر شرطة  
المرور . وجعلنى الاسى اضغط على الفرامل اكثر مما ينبغي ،  
فانزلت السيارة بجهدا على الفور . انعرفت مقدمتها الى  
اليسار كالثلمة ، بينما اندفعت مؤخرتها نحو الشرطي  
مباشرة ، فاضطر الى القفز في خندق الطريق على عجل .  
فقلت في نفسي ياسى وانا ادير عجلة القيادة : «هكذا اذن . . .  
هذا الشرطي الناقب النظرة قد تنبأ باننى سارتكب  
مخالفة . . .»

اخيرا عدلت وضع السيارة واقفقتها ، وخرج الشرطي  
الى الطريق ورفع يده في بالتحية قائلا :

- عفوا ، هلا اوصلتني الى كونكوفو ؟

- الى تيوبى ستان اهلا وسهلا .

وفتحت باب السيارة فجلس فيها ، شابا ، متورد الوجه ،  
مشدود القامة للغاية ، وكان يرتبة عريف . وتحررنا .  
كانت هذه العادة الصغيرة التى بدأ بها تعارفنا مؤشراً  
لحديث مستمر من المرور والحوادث ظل ممتدا حتى بلغنا  
طريق موسكو العائري . قدركنا حوادث المخالفات الخطيرة ،  
وتصادم السيارات ، والكوارث التى اودت بالارواح .

قال العريف :

- اقرب خادك شهادته . طوال عيل وقع في الصيف  
الماضي على هذا الطريق . ففى وضع النهار تغطت سيارة  
«موسكفيتش» علامة الممنوع ، واطاحت بحاجز اغلاق الطريق  
واندفعت الى الجسر الذى ازيل فسقطت في النهر .

فسألته وقد فلتت الى ان الحديث يدور عن شقورين :

وهل مات السائق ؟

- طبعاً ! . . . وجرى تحقيق فاتضح انه لم يكن ثلما ،  
وفى كامل قواه ، وان كان ، فى الحقيقة ، من البعوتين .  
والسيارة ذات قيادة يدوية ، جديدة تماما ، نزع منها مخفف  
السرعة لتوه . وكانت اشارة التحذير وعلامة الممنوع  
موضوعتين قبل الجسر بمسافة كافية ، كما تقضى القواعد .  
واشارة المتعلق فى مكانها السليم ، وباختصار لم تكن هناك  
مسيبات لهذا الحادث المؤسف ، فانظر الى ما يحدث ! . . .

- ربما استغرق فى التفكير فلم يلحظ العلامة ؟

فقال العريف :

- هذا يحدث . ولكن لماذا لم ينتبه عندما اطاح بالحاجز  
ولم يفرسل ؟ فى هذه الحالات تضغط القدم آليا على  
الفرامل . ولكنه حتى لم يلمس الفرامل . . . حادث فى  
منتهى الغرابة .

وشد انتباهى تأكيد العريف مرتين على «غراية» الحادث  
فربت استوضح :

- ربما يكون قد فقد وعيه ؟

فقال العريف ببطء :

... ٧ . . . كان هناك عامل تصليح طرق يحوم حول الحاجر ، فقد نسي هناك قفازه . وأطلق السائق له إشارة تحذير حادة ، طويلة من بوق السيارة ، بينما كانت السيارة متدفعة بسرعة فائقة ، حتى ان العامل تمكن بالكاد من التلحج عن الطريق . انتهى اتساعه : الا يمكن ان يكون ذلك انتحاراً ؟ . . .

صمتاً يا عريف ! انا الآن ساحكي . . .

كان مندفعاً في نشوة مسعادة جنونية . . . حطام الانسان هذا . . . طيار الحرب الذي لم يحم بطلعة قتالية واحدة . . . هذا البطل الذي لم يحقق مأثرة ، هذا الشجاع الذي ولد لكي يحارب فاصبح ناسج قصص خيالية بانسا . . . هذا السعيد بعودة الحركة والسرعة اليه من جديد ، كان يحس بجهاز القيادة اليدوية في يديه وكأنه مقود طائرة ، فساق مقاتلته الصغيرة الطيعة نحو زرقة السماء باقدام . وفجأة ظهر امامه ذلك الحاجر مثل كابوس السنوات الماضية البغيض الجاثم . بالأمس فقط لم يكن هذا الحاجر موجوداً ، وبالأمس فقط كان الطريق مفتوحاً . لقد رأى بالطبع علامات الطريق ، ورأى الحاجر ، والجسر المنزوع ، وتحويلة الطريق ، وكان يوسع السائق ان يخفف سرعة السيارة بسهولة وينعطف يمينا الى الطريق الجانبي . ولكن الذي قاد السيارة لم يكن سائقاً ، بل طياراً حربياً ، طياراً مقاتلاً . . . وهما هي القوى المعادية تسند الطريق الى السماء امام هذا الطيار من جديد ، ومن جديد تريد كسر جناحيه وحرمانه من الحركة والسرعة والتعليق ، وتحويله الى احدي الزواحف . لم تكن علامة الممنوع الحمراء هي التي ظهرت امامه ، بل الصليب القاشستي المعقوف ، رمز الشر العالمي ، هو الذي مد اطرافه العنكبوتية في وجهه . فقرر ان يصدمه بطائرته . واستطاع ان يلحظ بوعيه الصافي شخصاً ما وقف حائلاً بينه وبين مسيره . فانفذه بإشارة حادة جعلته يتنحى عن الطريق . وكانت تلك آخر ضربة دفعها لتلك الحياة العادية

التي ظلت تعظمه طوال تلك السنوات ولم تستطع ان تعظمه . اما ما عدا ذلك فكان يجري في تلك الذرى السماوية التي تحلق فيها روح الانسان اعلى من الموت . سحق العنكبوت ، حطم الشر ، منتقماً لذلك الفتى الذي عزقه الرصاص على مدرج الاقلاع في المطار ، ولجميع الفتيان الذين اهلكهم الصليب المعقوف .

واستطاع ان يدرك اتساعه العظيم عندما اطلع بجميع الحواجز ، وخلق في الفراغ فوق النهر ، منتقضا على شاطئه العجوى المائسل . في تلك اللحظة لسع على صدره ذهب الأوسمة ، وامتدت نحوه ايدي فئانات الشمع ، ملأى بالحب .



### جينيا روميانتسيفا

ها قد انتهى آخر درس فى آخر يوم من حياتنا المدرسية . ما زالت امامنا امتحانات صعبة طويلة ، ولكن لن تكون هناك دروس بعد اليوم ابدا . ستكون محاضرات ، وسيمينارات واستشارات (يا لها من كلمات اشخاص بالغين!) . ستكون قاعات محاضرات ومختبرات ، ولكن لن تكون هناك فصول مدرسية ولا تخت . انتهت عشرة أعوام مدرسية تل فرغ الجرس الابح المعهود ، الذى يبدأ من الاسفل ، من احماق غرفة المدرسين ، ثم يصعد وهو يمتلئ رتيقا ليصل مع بعض التأخير الينا فى الطابق السادس ، حيث تفسح الصفوف العاشرة .

كنا جميعا متأثرين متفعلين ، نشعر بالفرحة وبشيء من الحسرة ، وبموتنا الاوتياك والتجمل لتحولنا الخاطف من تلاميذ الى اشخاص بالغين يمكنهم حتى ان يزوروا ، ففضينا نتسكع فى الصفوف والطرقات ، وكاننا نعيش الخروج من

جدران المدوسة الى العالم الخارجى الذى اصبح بلا حدود . وراودنا احساس وكان ثمة اشياء لم تثقل ولم تعش ولم تستند خلال السنوات العشر الماضية ، وكاننا اخذنا هذا اليوم على غرة .

من النوافذ المفتوحة على مصارعها تدفقت زرقه سماوية كثيفة ، وغلبت اغاريزها هبل الحمام باصوات هدهدها الشهوة ، وفاحت بقوة رائحة الاغصان المتفتحة والاسفلت المرشوش بالماء .

واطلت جينيا روميانتسيفا من باب الفصل :

- سيريوجا ، دقيقة لو سمحت !

وخرجت الى الطرقة . فى هذا اليوم غير العادى بدت لي جينيا ايضا على غير عادتها . كانت ملايسها ، كما هى دائما ، متنافرة : فستان قصير الى ما فوق الركبة كبرت عنه منذ العام الماضى ، وسترة صوفية لا تتزرر عند صدرها ، وتحتها بلوزة حريرية بيضاء حالت الى الزرقه من كثرة الغسيل ، وبعاء اطفال عريض المقدمة وبلا كعب . وبدت وكأنها ترتدى ملابس اختها الاصغر . وكان شعر جينيا الرمادى الفزير مضمومها كيفما كان بالمشابك والدبابيس والامشاط . حول وجهها الصغير ، ومع ذلك كان يغلب جبينها وخديها ، بينما كانت احدى خصلاتها تسفل دائما على انفها القصير ، لتبعدها عنه بعضية . كان الشئ الجديد فيها تلك الحمرة الغفينة المستوية التى كست وجهها ، وذلك البريق الحسى القريب الشمع من عينيها الرمايتين الواسعتين ، اللتين كانتا تلوحان جديتين عمليتين قارة ، وشاردتين محبقتين فى الفراغ تارة اخرى .

- سيريوجا ، لقد أردت ان اقول لك : هيا نلتقى بعد عشر سنوات .

لم تكن جينيا من يرحل ، فسالتها بجديّة :

... ولماذا؟

- اريد ان أعرف صمن ستصبح ، - وابتعدت جينيا

خصلة شعرها الساقطة على انفها - لقد كنت معجبة بك جدا طوال هذه السنوات .

كنت اعتقد ان جينيا روميا تسيقا لا تعرف هذه الكلمات ولا هذه العواطف . فقد مضت حياتها كلها في مجالين : فسي العمل الكمسولي \* المرمق ، فقد كانت مسئول جماعة من الكمسولية ، وفي الحلم بالكواكب الاخرى . لم اسمع جينيا تتحدث أبدا في اوقات فراغها من الهوم العملية عن شيء غير النجوم والكواكب والمدارات والمقدورات الغازية فسي الشمس ورحلات الفضاء . ولم يكن احد منا قد حسد مستقبله بوضوح سوى حفنة قليلة ، اما جينيا فكانت تعرف منذ الصف السادس انها ستصبح فلكية ، وفلكية فقط .

لم تقم بيننا في وقت من الاوقات صداقة حميمة ، وكنا ندرس في صفين متوازيين فلم نلتك الا في الاعمال الخاصة بالكمسول . ومنذ عدة سنوات كنت افضل من فضيلة الطلاب لمخالفة ارتكبتها . ولكن رفاقي وقفوا في صفى كالجنار فلم افضل . جينيا وحدها ، التي كانت جديدة في مدرستنا ، هي التي اصررت على فصلي حتى النهاية . وتركها وقتها هذا بصماته على علاقتي بها ، وفيما بعد أدركت ان قسوة جينيا نابعة من تشدها ازاء نفسها وازاء الآخرين وليست نابعة ابدا من قلب اسود . كانت انسانا شاملا حتى القاع ، صلبا ووفيا ، ومن ثم كانت تريد ان يكون كل من حولها على هذا النحو . اما انا فلم اكن « فارسا منزعا عن الخوف والمثالي » ، وقد ادهشني اذن اعترافها بالمعاجي وأربكتني . وبعثا عن حل لهذا اللغز رأت افتش في ذهني عن احداث الماضي فلم اجد فيها شيئا سوى لقاء واحد عند البرك الصافية .

كنا قد قررنا ان نذهب في يوم اجازة الى بحيرة خيمي الصناعية لنتنزه بالقوارب . وحددتنا مركز التجمع عند البرك

\* الكمسول هو الاسم المختصر لافراد الشبيبة الشيوعيين اللاتين اموم الاتحاد الشيوعي الذي يضم عشرات الملايين من الشباب السوفييتي . العرب .

الصافية بجوار العريشة . ولكن مطرا خفيفا اخذ يسقط منذ الصباح فلم يات الى مركز التجمع سوى يا فليك وانا ، ونينا فارا كينا ، وجينيا روميا تسيقا . جاءت نينا لانها لا تستطيع ان تبقى في البيت في يوم العطلة ، وبحثت انا من اجل نينا ، وجاء يا فليك من اجلي ، اما سبب مجي جينيا فلم يكن مقبوما لنا .

لم تحضر جينيا ابدا ايا من حفلاتنا المتواضعة ، ولم نذهب معنا مرة الى السينما او الى حديقة جوركي العامة او حديقة « ازميتاج » . ولم يدر بخلد احد منا ان يتهمها بالانفاق بسبب ذلك ، ولكنها ببساطة كانت مشغولة للغاية ، اذ كانت تتردد على جمعية لدراسة الفلك في جامعة موسكو ، وتقوم بعمل ما في المرصد . وقد احترمنا في جينيا اندفاعها هذا نحو الهدف ، ولم نشأ ان نوقها .

وها قد اجتمعنا في وسط البوليفار تحسنت السقطة الغضبية الضخمة المفتوحة الجانبيين . وكان المطر يسقط بفطرات كبيرة صاخبة حيننا ، ويصبح خيوطا دقيقة لا تكاد ترى او تسمع حيننا آخر ، بيد انه لم يكف عن البطول لحظة واحدة . وتجمعت غيوم رمادية ثقيلة ، ليس بينها فجوة واحدة ، مارة خلف اسطح المنازل . ولم يعد ثمة مجال حتى للتفكير في الذهاب الى خيمي . ولكن جينيا راحت تلمح علينا بالذهاب ، كانت هذه اول مرة تسمح لنفسها فيها بالخروج قليلا عن نظامها الصارم المعتاد ، واذا بالحل السبي يقف لها بالمرصاد ! وكانت ثمة لغة بها سندوتشات تنزل من زجارتها الطفيلية ، وبهدت هذه اللغة مؤثرة بصورة خاصة . يبدو ان جينيا لم تنطق حتى الى انه ممن الممكن تناول الاططار في احد المقاصف او المقاهي او حتى المطاعم ، كما كنا نفعل اثناء رحلاتنا . واثارت هذه اللقطة شفتي فاقترحت :

- هيا نجذب في هذه المركة - قلت مشيرا الى قارب قديم جاف اطلت مقدمته من تحت دعائم بيت الطيور السئوي - ولننخيل اننا في خيمي .



فأضاف بإفليك :

- أو في البحر الأبيض المتوسط .

فالتقطت جينيا الفكرة وصاحت بحماسة :

- أو في المحيط الهندي ! أو عند شواطئ جرينلند !

فسألت نينا :

- إلى نغرق ؟ سيكون هذا محزنا ، فانا مدعوة لعرض

اقتتاحي في المسرح الفنى .

لم تكن هناك مجاذيف ، فالتقطنا على الشاطئ قطعتي خشب ، ونزحنا الماء من القارب ، وانطلقنا في رحلة حول العالم . ولا أظن أن ذلك أدخل السرور على قلب أحد منا ، باستثناء جينيا . فبينما كنا انسا وبإفليك نضرب الماء بقطعتي الخشب في تراع ، مضت جينيا ترسم لنا مسار رحلتنا . ها نحن نعبّر البسفور ، ونعبّر قناة السويس إلى البحر الأحمر ، ثم نمضي إلى بحر العرب ، وندور حول جزر الزوند الكبرى ، فنمر بالفلبين ونذهب إلى المحيط الهادى . هذه الفلورة المتأخرة لدى جينيا كانت رقيقة ومؤثرة ، ومع ذلك كان فيها شيء يستدر الشفقة .

وتقول جينيا مشيرة إلى أعمدة دار سينما «كوليزيوم» المبللة وهي تلوح وراء أقصاف الأشجار الالاعمة من المطر :

- انظروا ! ها هـو النخيل ، والنباتات المتسلقة والأفيال ، لقد جرفنا التيار إلى شواطئ الهند !

ورحنا نتبادل النظرات . كان كل منا ، كما يحدث فى الساعة عشرة من العبر يخفى حياته الداخلية ، الوشمة بعيد ، التي يسهل جرحها ، يدرع من السخرية المتعمدة ، والصنافة الخفيفة ، فلم نفهم كيف يمكن لجينيا أن تكشف نفسها بهذه السذاجة .

واعلنت جينيا بلهجة منكرة :

- اننا نقترّب من جزر سليمان الزهية !

فاكد بإفليك ، الذى كان أكثرنا طيبة :

- مضبوط . وها هم سكانها . أكلانة لحوم البشر -

واشار إلى جماعة من صبيان حى البرك الصافية وقفوا يدخنون عند حاجز البرك .

واصدرت جينيا أوامرها :

- أخرجوا المدافع ! جهزوا القذائف !

فقلت لها :

- أفيقى يا جينيا ، ان هذا استعمار !

فقال جينيا مبتسمة وقد استعدها ان بدعها وجدت لدينا استجابة ، دون ان ألاحظ فى برءائها نبرة السخرية :

- مضبوط ! ينبغي أن نزل إلى ارضهم كأصدقاء طبيين ، وسوف نحمل اليهم ادوات العمل والآلات والادوية .

فأضاف بإفليك :

- وبدلا من التوراة سنحمل اليهم كتاب الرياضيات المدرسى .

واستمرت سباحتنا المبللة تحت المطر . وضمت جينيا تصيح بلا كلل : «الدفة إلى اليمين !» ، «الدفة إلى اليسار !» ، «ارفعوا الأشرعة !» ، «اطووا الأشرعة !» ، وتبتدى بالنجوم ، فقد تحطمت بوصلتنا أثناء العاصفة . وقد منحها ذلك فرصة اعطائنا محاضرة فى الفلك ، لم أتذكر منها الا ان السماء النجمية عند خط الاستواء تبدو وكأنها مقلوبة . ثم غرقت سفينتنا فوزعت علينا جينيا «آخر قطع المسكوكات» ، أى سندوتشاتها المبللة . ورحنا نضغها فى اكتباب ، بينما مضت هى تتحدث عن روتسون كروزو واعجابها بحياته .

كنت مبللا ، متعبا ، وقد أصيبت يدى بشظية خشبية ، فأصبحت قاسيا وقلت لها اننى لا أعرف كتابا أكثر ابتذالا من «روتسون كروزو» :

- كتاب مجشوم بالهجوم الثقافى ، صوم المأكول والملبس والاوانى . قوائم لا تنتهى لانواع الاطعمة والملبوسات . . . انه نشيد يتغنى بالحياة العادية الظاهرة !

فقال جينيا والدموع تترقرق فى عينيها :

- انا لا أعرف شيئا أكثر إثارة للانفعال من هذه

الاشياء، التي سميتها قوائم ! اى راحة ففى هذا الكتاب ،  
واى عواطف ، وأحلام . . .

وقلعت نينا فارا كينا جدلنا عندما صاحت فجأة :

- هيه ! اماننا شاطي !

فاضطربت جينيا وجهت :

- اين ؟ اين ؟

فحالت نينا بنبرة عادية :

- هناك ، عند بيت الطيور الشتوى . خلاص ،

وصلنا ! يا شباب ، انا بردت ، لا بد من كاس كونياك .

فاقتربت عليهم :

- لنذهب الى بوكروفا ، الى المقهى الصيفى .

نظرت جينيا اليها بغير وقور ودعاها ، ولكنها قالت

بشجاعة :

- وما المانع ؟ هادنا سنعيد فلنعيد ا

دفعنا القارب تحسب دعاءات الرصيف وانتقلنا الى

الشاطي . واذا بنا نصطلم على التو يواحد من خصومي

القدامى كان يدعى لياليك . خلال الاعوام الاخيرة من هذا

المرامق الشقى على السجى وعلى اصلاحية الاحداث ، واصبح

قوى البنيان ، عريض المنكبين ، ينظر شورا ، ويضفى على

نفسه هيئة السجود العريق ، وعندما ساذيناه دفعنى باحدى

كتفيه ودفع بافليك بالكثف الاخرى واطلق سببا فاحشا .

كان يدرك انه لا يخطئ الآن بشئ وهو فى حالة مجده

الاجرامى . لم يكن هو الذى يبعث اللوف فى نفوسنا بل

سميته . كان يسحقنا بظلمة مصيره المظلم ، فنشعر الى

جوارحه باننا «ابناء ذوات» بانسيمن و«عيالى» صغار ، فأتى

لنا ان نجارى هذا الرجل المتهور ا

وصاحت جينيا التى لم تكن تعرف من هو لياليك :

- اياك ان تشتم اياها الشقى !

استدار لياليك فى صمت وتقدم فحونا . ولكن جينيا

اعترضته فى منتصف المسافة ، وشدت عمرته القديمة

المكسورة المقدمة فاقدمتها فى رأسه حتى انفج ، ودفعته فى

صدره دفعة قوية . وطار لياليك نحو العشب المسيح يسلك  
فاصلهم بالسلك وانقلب من فوقه على العشب .

وهنا اتضح لنا ان لياليك ليس الا صبيا مثلى ومثلى

بافليك ، وان عينته الرهيبة لا تساوى يعوضة .

ودمدم بنبرة شاكبة وهو يحاول ان يزيح العمرة عن

عينيه :

- مالك تدفعيني ؟

ثم جلسنا بعد ذلك فى المقهى الصيفى ، تحت مظلة

مبللة مخططة ، نشرب القهوة مسح الكونياك ونشرب بالاييس

كريم . واحتسنت جينيا كاسا صغيرة بامتعاض ، وسقطت

الدبايس والبش من خصل شعورها الغزيرة الكبيرة دفعة

واحدة ، واحمر وجهها ، وراحت تصصف نفسها بصوت عال

«العريضة» و«الضائقة» . وشعرنا بقليل من العجل بسببها ،

ونحسبنا ان ترفض الساقية تقديم المزيد من الكونياك لنا ،

لان جينيا لم تكن فى يوم من الايام اشبه بالمرأة كما هى

الآن فى هذا المقهى ، بشعرها المشعث وفستانها المتعسر

باستمرار عن ركبتها المستديرتين ، وقالت جينيا ضمن ما

قالت انها تود ان تلقى مصرعها فى اول رحلة فضائية ، لانه

لا يمكن لرياد الفضاء بدون ضحايا ، فمن الاحسن اذن ان

تموت هى بدلا من ان يموت آخرون افضل منها . كنا نعلم

انها تتحدث باخلاص دون ان تدري بثوقها الروحى علينا .

وكان هذا يحط من كرامتنا ، فنحن لم تكن مثلها ، حتى تمت

فائز الكونياك ، كنا بحاجة الى فرصة مما للفرصة ، اى

فرصة . . .

ولم تتماركنا جينيا بعد ذلك لقاءاتنا . دعوناها غير مرة

ولكنها كانت تعتذر لضيق وقتها . وربما لم يكن لديها وقت

بالفعل . فما اكثر ما كانت تريد عمله . فهاذا لو انها انما

انت من اجل فى تلك العرة الوحيدة ، وبسببى تراجع بعد

ذلك وقد قالت لنفسها بأمانة ابية : لم أوفى معه . . .

سالت جينيا :

- جينيا ، لماذا لم تخبرينى من قبل ؟

- وما جدوى الكلام ؟ انت كنت جد مفرح بنينا !  
قلت لها وقد راودني احساسى الاسى والفقدان المحزون :  
..... واين ومتى نلتقى ؟

- بعد عشر سنوات ، فى تسعة وعشرين مايو ، فى  
الثامنة مساء ، عند منتصف المسافة بين اعمدة مسرح  
البشوى .

- واذا كان عدد الاعمدة فرديا ؟

- سيريوجا ، الاعمدة هناك ثمانية . . . . . وأردفت  
بغظمة وإيمان وبصوت خالم - فى ذلك الوقت ساكون قد  
اصبحت فلكية شهيرة . واذا تغيرت ملامحى كثيرا فسوف  
تعرف على من سورى فى الجزائر والمجلات .

- حسنا ، وانما ايضا ساكون فى ذلك الوقت  
شهيرا . . . . . قلت ذلك وتوقفت فورا ، فلم اكن اتصور  
تماما فى اى مجال ساشتهر ، بل حتى لم اقرر بعد الى اى  
كلية اقدم اوراقى - على اى حال سوف آتى الى المومعسد  
مستقلا سيارتى الخاصة . . . . .

كان ذلك حقاقة منى ، ولكنى لم اجد ما اذوله غيسر  
ذلك .

فصاحت جينيا قائلة :

- عظيم ! لذن ستفنعنى بها فى المدينة .

مرت الاعوام ، وكانت جينيا تدرس فى لينينغراد ، ولم  
اسمع عنها شيئا . وفى شتاء عام ١٩٤١ ، وكنت اتلطف  
اخبار اصدقائى بنهم ، علمت ان جينيا تركت المعهد فى اول  
ايام الحرب ، والتحقّت بمدرسة للطيران . وفى صيف  
عام ١٩٤٤ ، وكنت نزيل المستشفى العسكري ، سمعت فى  
الراديو حروبا يهتج الزائد الطيار روميانسييف لقب بطول  
الاتحاد السوفيتى . وعندما عنت بعد الحرب علمت ان لقب  
البطل قد اتم به على جينيا روميانسييف بعد المعارك ،  
ومضت الحياة فى طريقها ، وايانا كنت اذكر فجأة  
اتفاقنا ، وقبيل الموعد بعدة ايام شعرت بقلق حاد ممض ،

كما لو كنت طوال السنوات الماضية لا افعل شيئا سوى  
الاستعداد لهذا اللقاء .

لم اصبح شهيرا كما وعدت جينيا ، ولكنى لم اقبل  
بوعادى فى شئ واحد : لقد صار لدى سيارة «اوبل» قديمة ،  
اشتريتها بشمن بئس من شونة السيارات الغنية الخردة .  
وارتدتها بدلة جديدة ، وامتطيت صهوة حصانى الحديدى ،  
وانطلقت الى مسرح البشوى . لو اننى قابلت جينيا هناك  
لقلت لها اننى بعد كل التقلبات وجدت طريقي : فقد صغرت  
لى مجموعة قصص ، والان اكتب مجموعة اخرى . وهى ليست  
تلك الكتب التى اود كتابتها ، ولكنى واثقت من اننى  
ساكتبها .

أوقفت السيارة بجوار الحديقة ، واشترت من بائعة  
الزهور باقة ومضيت الى منتصف المسافة بين اعمدة  
البشوى . بالفعل كانت ثمانية اعمدة . ووقفت هناك قليلا ،  
ثم اعطيت الزهور لفاتة نحيلة ، ومادية العينين ترتدى خفا  
رياضيا ، وعدت بالسيارة الى المنزل . . . . .

وددت لو استطلعت ان اوقف الزمن لحظة لانظر الى  
نفسى ، الى الاعوام الماضية ، ولاتذكر تلك الفتاة ذات  
الفستان القصير والمتمرة الضيقة ، وذلك القارب النقيس  
البطل الحرك ، والوطن الذى غلب سطح البركة المصفر  
ببراعم حادة ، والصبيحة المتفعدة : «لقد جرفنا التيار الى  
البنداب» ، ولاتذكر عمى روحى الصبية التى «مرت بسهولة  
بجوارها كان يمكن ان يصيح قدرى ونصيحى .



### الرياح الصامت

كان ذلك الربيع ربيعاً غريباً ، إذ لم يسمع له سرجييف صوتاً . كان أول ربيع صامت في حياته . ولم يكن ذلك راجعاً الى صمم أصاب سرجييف ، كلا ، فقد كان يسمع جيداً من منزله بالصاحبة هدير طائرات «أيل» و«تي» المتصاعدة وهي تقلع من مطار فتوكوفو ، والطنين الخافت كالأنيسون لطائرات مطاري دومودوفو وبيكوفو وقد صعدت عالياً ، والانفجارات المرعبة للطائرات المحققة وهي تجتاز حاجز الصوت ، والأزيز الزايل في دوريات مراقبة للطائرات المروحية القديمة المحلقة في دوريات مراقبة للطريق ، والطققة الجرادية للطائرات الزراعية التي تلقى على البستان والمزرعة والاسطح والدروب قطرات لزجة بيضاء ، كذلك كان سرجييف يسمع أصوات السيارات والموسيكلات والجرارات ومكبرات الصوت من دار الاستجمام القريبة ، التي تكرر ببلا توقف أربعة ألحان ذائعة ، وفيما بعد سمع صيحات التمرينات

الرياضية المهللة من مخيم الملايح ، والتي تجبر الأطفال ، الذين لم يستيقظوا تماماً وما زالت رموشهم مطبقة ، على التلوي في الساحة الندية الباعثة للقشعريرة في الابدان . يبدو أننا دخلنا الصيف ، فمخيمات الملايح لا تبدأ الا في يونيو ، ولكن الربيع أيضاً دخل الصيف ، إذ لم تزهري بطم الشمال الا في منتصف يونيو . وفي الفترة نفسها انتفخت كرات الهندباء البرية وازهر سوسن الوادي والمجمعات في وقت واحد مع الاجراس الزرقاء والقرنفل البري الوردى . ولكن حتى لو تأخر الربيع فما ينبغي أن يصمت . ومع ذلك ظل ربيع سرجييف ابكم ، بلا اصوات ، اذا استثنينا الضجيج الفج ، المتولد نسبياً عن الربيع ، ولكنه لا يعبر عن جوهره . أما صوت الربيع الوليد - القطرات ، وصوت الربيع الياقح - تغريد الطيور ، فذلك ما لم يسمعه سرجييف .

في البداية ظن ان الطيور اجلّت موعد مجيئها ، مثلما اجلّت الاشجار والازهار فتشبهها حين حلول الدفء . ولكنه فيما بعد رأى غرابان القيث الذي لم تلوث بعد سيقانها الصفراء الزاهية ، وبعدها جاءت الزواير واخذت ترتب بيوتها الغضبية التي لوتها السناجب بعد ان قضت فيها الشتاء . ورأى عصفورة الظل المتأرجحة على عود حسيك ، والمسنونات في السماء ، لقد عادت الطيور من منتجعاتها منذ وقت طويل لتمارس حياتها العائلية الجادة ، الكثيرة المشاغل ، ولكنها لم تزل الصمت لسبب ما ، فهي لا تشغى بالربيع ، ولا تشهد اغنيات الحب .

في البداية ظن ان الخرس الغريب أصاب البستان وحده ، بيد أنه عندما تحسن الطقس وجفت الارض قليلاً ، ذهب الى الغابة فلم يسمع لها صوتاً . كانت الشجائر تطير عن حين الى حين فوق الدروب ، ولكن صفيها العاد لم يترك مسيرة واحدة هدهد الغابة المطبق ، وصممت السمعي والعسبون ولم تسبح عصفورة ولم يسلك الكركي البري حنجرته قبل الغناء الذي لن يبدأ ابداً ، ولم يصح ذكر الوقواق المهمل ، واختفت تلك الاصوات الغامضة التي كانت



تنتقل قبيل المساء من وديان الغابة المشبعة بالضباب والعبير القوي ، إما الزرقاق الأسود مع بياض فكان يعمل من جناح الى جناح فوق الفسحة عند طرف الغابة ، ويرسم خطوطا متعرجة ، دون ان يصدر عنه اتيهه الرقيق المعهود . حتى يطير حمارى الخشب تمكنت من استخراج قوتها بالنقر على جذوع الأشجار دون صوت . وطيور العمق ، التي كانت تسمى امام اعشاشهيا ، اذت طفوس الفرع الخفيف لمراى شخص غريب دون ان تطلق طقطقتها . الغربان وحدها هي التي كانت تصم المكان بصيحات متعرجة من خلوقها المجلوة ، وهي تنفض من الاعالى على الواحة المتطفل . فياله من ربيع بانس ، هذا الذي لا يسمع فيه غير نعيق الغربان ! ومع ذلك فللغربان تقنية بديعة ، وذلك في الغريف ، عندما تتجمع الطيور اسرابا لتهاجر الى البلاد الدافئة ، وتستعد الغربان للزواج الى الجنوب قليلا ، عندها يمتلئ نعيقها الدواعى باسى يعصر القلب .

كم كانت غابات ضواحي موسكو المتواضعة وغبضاها وفسحاتها على ضفاف نهر ديسنا تتوج فيما مضى بالرنين ، وكم كانت تتألق بغناء المنشددين في الربيع ! كانت الابلابل تصدح من العشية الزردية الرائقة حتى آخر الليل ، ومن غشاوة ما قبل الفجر حتى الضحى المتأخر . فهذه الناحية هي اكثر الاماكن المسكونة بالابلابل في ضواحي موسكو كلها . كانت الابلابل تغرد في اطراف الغابات ، وفي الغيضات القديمة ، المتبقية من عزب السادة القدامى ، وفي اجوات البتولا والزيزفون ، وفي اكمام الحور الزمى بعذاء الطوق والاوتوستراد ، وفي خمائل البنفسج والياسمين وصنصاف البساتين ، وفي مقابر القرى حيث تلوح بين الصلبان المسودة القديمة نصب بيضاء بنجوم حمراء فوق قبور قدامى المجاريين . ياله من ابلابل جسورة ! فبلدة سرجيف ملاى بالقطط والكلاب ، بل فيها فرد متطفل لروح ، وعدد كبير جدا من الاطفال المنفلتين ، والاجدر بالابلابل ان تاخذ جذرها ، ولكنها لم تكن تعيا بشئ ، وتطلق تصدح وهي

تتبارى فيما بينها ، فمنها من يتفوق بالنقر ، ومن بالمزمر ، وكان بينها اساتذة في فنون الغناء التسعة .

لماذا كفت الطيور عن الغناء ؟ طوال سنوات اقامته على ضفاف ديسنا راى سرجيف شتى العجائب ، كبيرها وصغيرها . ففي ذلك الصيف المشهود ، الذي اخذت فيه الارض بعد ان حصنتها وجعلتها الشمس المسعورة ترون تحت اقدام وتزلزلها بصلابة درعها ، امتلاا درب الغاية المفضل لدى سرجيف ، والذي كان من قبل رطبا فصار مشقيا مثل صحراء قره قوم ، بالضمفادع . النافذة الالامه كانها مغلقة باللك . يبندوا انها زحفت الى هنا من البرك والجداول والمستنقعات الجافة ، متذكرة رطوبة وظلال هذا الدرب السابعة ، فجعلتها الشمس حتى الموت . وحينذاك خرج من الغابة وعل صغير وهو يركض ويدير رأسه يهزون ثم خرج ميتا . واتضح انه لم تبق فيه قطرة دم واحدة ، اذ امتصه البعوض وشبه هوام الغابة .

في ذلك الصيف الرهيب اشتعلت النابات والطين الصفحي في المستنقعات حول موسكو ، واضابت السيارات نهارا مصايحها فلم تخترق انوارها القويمة حجب الدخان الابيض وتناثرت اقراصا طيفية . وسار سرجيف ، وهو لا يعلم بعد بالخرق ، في طريقه عبر المروج بجوار النهر الاسود ، ذلك القوق الصغير من نهر ديسنا خلف مصعب المصنع ، الذي اطلق عليه هذا الاسم لسواد مياهه الازدوازي صيفا وشما ، واذا به يكتشف فجاء ان النضاء العرنى كله يتغطى في بلد ، وافراد بغلالة لبنية متذبذبة . وفي دقائق معدودة تحول المنظر الطبيعي المتواضع لضواحي موسكو ، الذي ظل زمانا طويلا مخلصا لقرشاة الرسامين الروس الرواد ، الى الشبهية القهريمة لمناظر ليوناردو دافنتشي ، اذ تحدد كل شئ فيه ملاصحة المحددة ، وتحدد وذاب في الغلالة الدخانية الساحبة الزرقاء ، ومن لحظة اصبح حلما .

وفي مرة اخرى اكتشف على الطريق الزراعى كتيبا داكنا

من فراشات مينة ملتصقة ، بجوار بركة جافة ، امتدت منها الشقوق كخيوط العنكبوت . وكانت فراشات اخرى تحط على الكتيب ، وتغرز خراطيمها عتيقا في كتلة الجثث ، ثم تطوى اجنتها ، وتنفارق الحياة .

وذات مرة سمع صبي امام سرجيف ذكر وقوق ، وهو الذي لا يمكن ان تعثر عليه ابدا مهما بحث عنه ، صمط بصورة سافرة دون ان يخطر به على غصن صنوبرية كبير بقطرات صمغ كهرمانية منتقطة ، تبدو وكأنها ملبسة بالسكر عند منابت الاير . وصاح بمل صوته ، ناشرا جناحيه ومهتسا ذيله كالزبد . وصاحبت صيغاته الرفافة الملتانة سرجيف حتى طرف الغابة .

وفي احدى جولاته حدث ان افسسد ظهوره على طيور الفقوق معاقبتها للعجب صغير ، يبدو انه نهب اعشاشها ، اذ استغل التعجب اضطراب معاقبيه الصاويين وهرب ، تاركا على العشب مرقا من فرائه الاحمر . وفي تلك اللحظة حدث ما جعل سرجيف يجاهد للنجاة بنفسه . فمن حيث لا يدري انقضت عليه اعداد هائلة من الذباب الاخضر الصغير فغطته من قمة راسه الى اخصص قدميه ، وقد قررت ان تمتص دمه كما فعل البعوض بالوعل الصغير . وراح الذباب ينس في عينيه ، في حركاته مباترة ، وفي فيه ، وفي اذنيه ، ويشبك بشعره ، وينفذ الى عبه . ولم يكن ثمة مجال للهروب من هذه المصيبة المضحكة والمرعبة . وحل الفيظ المسموم محل السخطل المقرون بالكاهة ، ثم تحول الفيظ الى دغ ، فانطلق سرجيف هاربا من القابسة ، وهو يدمى قدميه في الجنوح الساقطة وسط الاعشاب ، وصاحبه الذباب حتى نهاية الفسحة ثم توقف عن ملاحظته وتعلق في الجو سعاية زهرية متألقة طنانة .

وباختصار كانت تحدث شتى العجائب ، ولكن مثل هذه الاعجوبة الحزينة ، اعجوبة الربيع الاخضر ، لم تحدث من قبل . وعينا كان سرجيف يصيخ السمع ، وعينا كان يسرع لملاقاة الطبيعة المستيقظة صباحا . وعينا كان يركض في

المساء الى آجام البلبان الطفيلة خلف النور ، التي كانت تارى اليها في الماضي اعلى البلبال صدى . لقد ماتت موسيقى العالم المزدهر العاشق .

وذات مرة قالت زوجته :

- ما اروع غناء البلبل في حديقة جارنا ! اتدري ، يخيل الى انه بلبلنا الذي كان عندنا في العام الماضي ، ولكن يبدو اننا لم نرق له لسبب ما ، فغير محل اقامته .

وسالها سرجيف :

- متى سمعته ؟

- اسمعه كل مساء . وربما كان يصيح صباحا ، ولكنني استيقظ متأخرا .

خلالا لزوجته كان سرجيف يستيقظ مبكرا . وقبل ان تبلغ الساعة السادسة خرج الى البستان . كان الندى يغطي الاكمام والاوراق وغصصون الياسمين المجرى ، وانتشرت رائحة وليدة ساهرة لعالم يستيقظ ، وران سكوت بلوري . ثم دوى هدير طائرة مقلعة من مطار فنوكوف . ومرت شاحنة بجوار المنزل مقرعة بصندوقها المفكك . وانتظر سرجيف ، ولكنه لم يسمع اصواتا اخرى عائدة الى حياة الطبيعة الناعسة . وفكر سائرا بان البلبل تأخر في النوم مثل زوجته ، فعاد الى البيت وجلس الى طاولة الكتابة .

وفي المساء ، عندما كانوا جالسين في الشرفة يشربون الشاي ، لاحظ سرجيف وجه زوجته المصغي فتذكر البلبل . كان البلبل يغني لها وحدها ، اما سرجيف فظل لا يسمعه ، خيل اليه انه يسمع «تيخ ، تيخ ، تيخ» البامولة ، ولكن اتضح انها اصوات عميلة ، فقد كانت الجدة تخوط الفريص الطازج لحساء الكرب .

وسألته زوجته :

- احقا لا تسمع ؟

- لا اسمع .

- ماذا بك ؟

- يبدو انني سكت .

- ما دخل الشيوخة هنا ؟ . . . وصاحت الزوجة -  
يا جدتي ! اتسمعين الليل ؟

وضعت الجدة المخرطة وقالت بتأثر :

- ياله من شيطان ! انظر كيف يشدو هذا الملعون !  
وعادت تغرط القريص .

ولكن سرجييف سمع ذات مرة غناء جميع الطيور تقريباً ،  
تلك التي تصنع ربيع بضواحي موسكو . جاءت الى البستان  
من الغابات والحقول المجاورة لتقدم حفلة تحت نوافذه  
المفتوحة على الهدوء غير الطبيعي المثير للريبة . غنت كلها  
دفعة واحدة ، ودون ان يعوق احدها الآخر ، واتحدت  
اصواتها القوية المليئة فسي كروال واحد ، لكن كلامها كان  
يؤدى دوره . ما اروع ذلك الصرخ ، ورأى فحشات ، أى  
تفريد ! . . . ظن سرجييف ان غصون الاشجار وقسم الشجوح  
والاسطح والاغاريض واسلاك التليفون غاصه بالطيور ، ولكنه  
عندما اطل من النافذة لم ير طائرا مغردا واحدا ، ولا حتى  
القراف التي كانت الجدة تطعمها بقايا السلامي . دخل  
سرجييف حتى الرعب من غياب الطيور التي كان رنين  
تفريدها المبدى يمزج الضياء الاخضر الساخن المشبع  
بالشمس . ودق صندوقاه . فجلس الى المكتب وضغط على  
اذنيه براحتيه ، ولكن الغناء الساحر استمر اعلى من ذى قبل  
واكثر ظفرا . كان ذلك صخب الدم فى عروقه المتصلبة  
الضيقة التي كان الدم يمر خلالها بصعوبة ، بينما ظل العالم  
الخارجى صامتا كما كان . يبدو ان عليه ان يفتح بتلك  
الموسيقى التي يجعلها في ذاته ، الأمر الذى له مزاياه  
ايضا : فقد كان دمه يغنى بعض النظر عن فصول السنة .

. . . قضى سرجييف فبراير الماضى فى مصح بضواحي  
موسكو . انتصب بناؤه البرجى الهائل ، المعين من طوب  
فاتح اللون ، وسط سهل واسع تهب عليه جميع الرياح  
المارة بروسيا الوسطى . كان واقفا في مهب الريح ، حيث  
تشعر بانفاس الريح الشاكبة القادمة من اطراف المحيط  
المتجمد ، والزفرات الدافئة لرياح الصحراء اللافحة التي

بردت فى طريقها الطويل ، واللسعات المألحة الرطبة من جية  
الغرب حيث البحر ، والدفقات العصبية للرياح الشرقية  
المتقلبة . قال احد الادباء القدامى : «فى روسيا دائما ربيع» ،  
بيد انه بنفس الصورة من عدم التوفيق يمكن القول بأنه فى  
روسيا دائما مطر ، أو دائما شمسي ، فروسيا ليست بلدا  
بل عالما بأكمله ، يوجد فيه دائما كل شيء . غير ان ما قاله  
الكاتب القديم يصبح ذا معنى محدد اذا ما تمعورت روسيا  
اللامحدودة فى حين حين صغير يشغله مصح «البتولا الباكية» ،  
فهنا دائما ربيع تشد أعصاب نزل المصح بالقلق والغذاب  
والراحة والهلاك . فأتى الريح من الفراغ الذى تلوح خلفه  
الترى الغارقة فى الثلج ، ومن غيضة البتولا الخفيفة  
المشوقة التي تعيط بالمصح كالحذوة .

وربما يسبب الريح تشعر وكأنك تعيش هنا مكرها ،  
فى انتظار متوتر لوقوع شيء ما . وبالنسبة لسرجييف استقر  
هذا الانتظار عن وصول اربعة اشخاص ورشيقين ذوى جمال  
يشكلون أسرة . زوج وزوجته وابنتهما وحفيدتهما . كان  
الثلاثة الاول يبدون اصغر من عمرهم بكثير ، اما الرابعة  
فكانت اكبر بكثير . فتطلب منه ذلك بعض الهدايا ليضعهم  
فى تناسب سليم فيما بينهم . جعل الاب والام اكبر ،  
وأضاف الى عمر ابنتهما قليلا ، اما الحفيدة فحذف من عمرها  
عدة سنوات ، مما نقلها من مرتبة الأنسة البالغة الى درجة  
متواضعة لصبية كبيرة .

وساعد التوتر العصبى سرجييف على تخمين فرد آخر  
غائب من افراد الأسرة (بالطبع ليس زوج الابنة ووالد  
العنبية الكبيرة ، فهذا طبيعي ، بل فرد آخر) . فظن سرجييف  
اليه من عيني الأم الجريحتين ، ومن ذلك الترسر الغريب  
الذى كان يلفظ احيانا فمها القوى الطيب ، ومن التجاعيد  
التي خدعت فجأة وجهها الناعم المتماسك الذى لم يستسلم  
للشيخوخة . ولكن لا حاجة لدمبالغة فى قوة فراسة سرجييف ،  
فوق لم يغفل الا الى وجود شخص مفقود ، لكنه لم يكن  
بوسعه بالطبع ان يعرف ان المفقود ، ومن فترة قريبة جدا ،

هو الابن ، ذلك الشاب الموهوب ، الذي كان يبشر بعالم  
 قد . وقد أودى بحياته مرض مفاجئ نادر مؤلم ، لا يرى منه .  
 كانت الأسرة تقف صامدة في وجه الريح . . . لا تلك  
 الريح السفلية النافذة الضميرة الإمد التي كانت تلتقي بالسلح  
 الجاف المتفتت على واجهة المصح عندما وصلت الأسرة الى  
 هنا . . بل ربح القدر الساعية بغيره لا ينفذ الى تزيق  
 شرعهم . . الريح السوداء التي ذهبت بصر الاب وهو في  
 منتصف طريق الحياة ، وفي الطفلة المبكرة سلبت الابنة  
 سمعها ، وهما هي مؤخرًا تختطف الابن . لم يفتن سرجيف  
 على الفور الى ان عيني هذا الرجل الجميل ذي الحركات البطيئة  
 الرشيق ، العينين السوداء الموجهتين باهتمام الى من  
 يحادثه . . لا يتصران . كانت زوجته عينية . وخلال حياتهما  
 المشتركة الطويلة توصل الى نظام تعامل من حركات ولمسات  
 في غاية الخفة ، لا يلاحظها الآخرون ، ومن تمنححات وتاوهات  
 وكلمات عابرة ، بحيث يستطيع الكفيف ان يتصرف في عالم  
 الاشياء بدقة شخص مبصر . لم تكن تصدر عنه حركات خاطئة  
 او حتى مترددة ، ولم يكن في مشيته ادنى اهتزاز ، ولا  
 يعرف راسه جانباً خشية الاصطدام بعقبة مفاجئة ، وبوسعه  
 ان يغبرك بالوقت مخرجاً من جيب سرواله ساعسة بأرقام  
 بارزة ، دون أن تلاحظ انه يرى الوقت بأصابعه . وفوق  
 ذلك كان يدي على الآلة الكاتبة بسهولة . ولكنه رغم قدرته  
 على القيام بأعمال كثيرة ، كانت زوجته تقوده .

وظل سرجيف مدة أطول لا يجدس بصمم الفتاة ، معتبراً  
 ان طريقة كلامها الغريبة ، الخالصة من التعبير الحي ،  
 والواضحة المحددة الثبرات ، ترجع الى الخصائص النفسية  
 لصوتها الغليظ للغاية . ولكنها كانت تتحدث بهذه الصورة  
 لأنها لم تكن تسمع نفسها ، ولأنها تعلمت الكلام من ذاكرة  
 طفولتها الضعيفة عن عالم الأصوات ، ومن حركات شفاه  
 المعلمين الخاصين وبالدرجة الاولى من والديها ، اللذين  
 كانا يتودأها عن الصمت المطبق بها بثقة وبصبرورة  
 لا تملحظ ، مثلما كانت الأم تقود الاب عبر ظلامه .

وفكر سرجيف بصورة جديّة تقريباً : ماذا لو أننا لسنا  
 ضيقاً معززين على مائدة الكرام ، كما تصور توتشيف\*  
 في اياه ، بل ضحايا تجربة مائلة ؟ تجربة قاسية ، الهدف  
 منها تحديد مدى عمق الطبقة الانسانية في الانسان . فإذا  
 كان الامر كذلك فإن على الآلة البعيدة ان تحنى رؤوسها  
 اجلالاً للقوة المعنوية العظيمة لهذه الأسرة .

كل فرد من افراد هذه الأسرة يؤدي الى النهاية دوره في  
 النضرة . خلال المحل يشتت النياشين والالقاء يصوغ  
 معادلات رياضية مذهلة ، قادرة في وقت واحد على إعادة خلق  
 الكون في أبداع صورة وعلى تمييزه من اساميسه . ولكن  
 العلماء ، هؤلاء القوم المرحين ، المحبين للحياة ، لا يفكرون  
 في القوة التدميرية لمعادلاتهم ، وانما هم ببساطة يتكرو  
 عقولهم تعمل ، في حين انهم لا يقصدون سوى الخير . ولذلك  
 في هذا العالم الرياضي الاعمى ، المشبع عطفاً على كل ما هو  
 حي ، يخترع في اوقات فراغه حركات سيارات لا تلتو  
 الهواء بل تزيده تشعباً بالأزوار ، وبحركات طائرات لا  
 ترسل الى الأرض ضجيجاً جهشياً ، بل انغام موسيقى فيفالد  
 وهوتسارت .

والابنة دكتورة في فلسفة العلوم ، وهي تدافع عن  
 افكارها العلمية في المؤتمرات والندوات والمداخل الدولية ،  
 متخذة بالانجليزية بنفس الجهد والوضوح الذي تنطق به  
 الالغائل الروسية ، بصوتها الغليظ ، الشاذ عن مألوف  
 الأصوات .

واما الأم فتحقق ذاتها في المائرة الانسانية الساعية ،  
 مائرة التفاني ، فقد تغلت عن مهنتها (وبناء المنازل أكثر  
 من مهنة ، انه رسالة) من اجل زوجها وابنتها ، فاصبحت  
 لاجلهم عينية وللأخرى أذنين . ولكنها لا تشبه الضحية في  
 شيء . فذات مرة رأى سرجيف ، وهو يتحلق بالزلاجات

\* توتشيف فيودور ايغونوفيتش (١٨٠٣ - ١٨٧٢) شاعر  
 روسي . الهجري .



في الغاية ، امرأة شابة ، بوجه متفرج بالجمرة ، تلتقط  
بإلحاحها عليه ، وتمر مندفعة من جوانبه ، لافحة إياه بحرارة  
منعشة . ومن ابتسامتها الودية فقطع وروشها الطويلة فوق  
العينين الرماديتين الزرقاوين ، عرف سرجيف في هذا  
المخلوق الرائع الصبي بدا وكأنه يهرس الغابة في  
اندفاعه العاصف ، زوجة العالم الاعمى .

وأما العفيدة فكان كيانها كله ينقث سحر الصبا ، عينان  
ذهبيتان ، وأذنان صغيرتان ووديانا تلتقطان اصوات العالم  
برهافة حساسة ، حتى ان لحمتيهما كانتا تصطيفان بين  
الحين والحين بجمرة شفافة ، اذ ينير فيها اعجاب المحيطين  
بها فرحة الخجل والارتباك . هذه الصبية هي ثورة الابداع  
المشترك لهذه الأسرة والمكافأة التي استحققتها .

قال العالم الرياضي لسرجيف وهما يتحسبان نبئدا خفيفا  
في الغرفة :

- لقد تابعنا داخلها عبر السنين صورة زوجتي بل  
وحتى ابنتي . . وانا اعرف كيف تبدوان الآن ، وافرح  
لذلك ، لكني لا اعرف كيف تبدو حفيدتي . وعلى العموم ،  
فهل هذا مهم الى هذه الدرجة ؟ انها رقيقة للغاية ، وقد  
رسمت لها صورة في خيالي ، ولست بحاجة الى غيرها . البصر  
يبد الانسان بخمسة وثلاثين في المائة من معلوماته عن  
العالم ، لكني اعتبر السمع اهم الحواس الخمس . ان يخرج  
الانسان من الموسيقى ! . . . ليس عينا ان تولستوى ، وقد  
سلم بخصيصة الموت ، لم يأسف الا على شيء واحد : على  
الموسيقى . فلو يكون لها وجود هناك . . . لماذا لا  
تستخدم جهاز السمع ؟

- وهل سمعي ضعيف الى هذا الحد ؟

- الصمم يتفاقم بسرعة .

اذن فلذلك تطرق الى هذا الحديث !

- الجهاز لا يفيدني . صممت من نوع آخر .

صممت فترة ثم سأل :

- اهي الحرب ؟

آرعد سرجيف في الاجابة ، اذ لم يكن يرغب في الدخول  
في التفاصيل ، اما الرد بالاجاب فيمكن ان يتطوى على ادعاء  
كاذب بالبطولة . رغم انه من جهة اخرى . . . كانوا قد  
بعثوا بسرجيف الى مدينة «آنا» ، في الظروف الخلفية الجبهة  
فورونيچ ليفغيفه الجنود الالمان بصرانه في بوق من  
الورق المقوى «مثل كايوت !» \* وغيرصه من العبارات  
الجهينة ، كجزء من عمله في مجال الدعاية المضادة . وعندما  
ملأ الالمان تماما من صوته الابع الذي كان يعكس بلا داع  
وبالحاح سكوت الحقل الخريفى الحزين المقفر ، فيما يسمى  
بالمطقة الحرام ، اطلقوا عليه نيران الهاون . ومست شتلية  
الذخيرة خوذته وقلبتها على رأسه ، ولكنه لم يشعر بالهم  
شديد . ليس باقوى من ذلك الالم الذي كان يشعر به ،  
عندما كان عدوه في فناء المنزل جيتكا ميلنيكوف يصيبه من  
النبله في جبينه بقطعة حديد منزوعة من بطارية التلثة على  
السلم . ولكنه هنا في الجبهة ، مثلما في الماضي ، أحس  
بالغبط ، فليس بوسعه ان يرد . فقد كان جيتكا يطلق عليه  
نبلته من كوة النافذة في شقته ، وهنا لا يستطيع الوصول  
الى الالمان ، ودهش سرجيف من ارساله الى المستشفى بعد  
عدة ايام ، فقد كان يعتبر نفسه في حاله ممتازة . وبلغ  
مدينة «آنا» منتقلا بين عدة سيارات مارة ، ولكنه عرج قبل  
المستشفى على السوق الصغيرة الفقيرة البائسة ، حيث حصل  
مقابل بكرة خيوط على كوب من اللبن الرائب . وما ان قرب  
طرف الكوب البارد من شفطيه ، حتى ألقت طائره «هينكل» ،  
خرجت من وسط السحاب ، قنبلة حارقة على السوق ، قنبلة  
واحدة وحيدة ، وكأنها ياضت ببطشة . لم تدو صفارة الانذار ،  
ولم تطلق المدفعية المضادة نيرانها ، ولم يسمع ازيز  
الطائرة المتقطع الذي تشرهته السحب القطنية ورطوبة الهواء  
الضبابية . وحينما استخرجوا سرجيف من تحت الانقاض كان

\* دخلت التلو (بالالمانية) . الحرب .

قابضاً بيده على قعر الكوب الممتلئ . وبعد ذلك بسنوات عديدة ، أثناء النقص العام ، اكتشف طبيب الانف والأذن والحنجرة ، وهو يثق بعظام أصابعه على يافوخ سرجييف ، أصابته بالضمم في أذنه اليسرى نتيجة صدمة الانفجار . وسأله سرجييف بابتسامة قلقة : «وعل ستترك لي أذني اليمنى ؟» ، فتفهد الطبيب العجوز قائلا : «أنا لست منجما» . وعلمته الحياة أن يسلم بالقدرة ، وأصبح يثق بقوة الجسم البشرى الطبيعية أقوى بكثير مما يثق بتقنيات الأطباء . ولكن «عدته الباسل ، الذى علمته تجربته المرة أن فقدان إحدى العواسى الخمسى أمر شبه حتمى ، كان يعتبر التوروية التى تتروك ولو ظلا من أمل لا محل لها . فرسم لسرجييف ببرود اعصاب صورة للمستقبل الذى ينتظره . وقال سرجييف فى نفسه وهو يجرع التيبذ بشراهة زائدة بعض الشيء : «طبيب . سأقتطم حينئذ الى عشيرتكم العملاقة إذا واتثنى القوة ، فإذا لم تواتنى فسوف استعيرها منكم . . .» .

... فماذا يا صديقى سرجييف ، هل وانتك القوة ام لم تواتك ؟ انت نفسك لا تعرف بعد ، لقد تملكك الارتباك عندما اكتشفت أنك تسمع بدلا من اصوات الربيع صخب الدماء وهى تتجاهل للسرور فى عروك الضيقة . إذن فقد كنت تظن أنك ستخضع للقدرة ؟ لم تفعل ، وما كان بالامكان ان تفعل ، ومستئال كل ما قدرته لك الحرب فى شيخوختك . ولتكن سلوكك ان كل شيخوخة هى عموما صعبة ، وليست العمل والخسائر الجسدية هى أسوأ ما فيها . ولا تصدق ان هناك شيخوخة وقورة . فان جرتك العظمى ، الذى احتفظت حتى النهاية بحدة إحاسيسه ، وصفاء عقله وروحه ، ووضحة جسده الفولاذية ، قد اقبلت بمصيبة أخرى ، مضحكة تقريبا ، وان كانت فى الواقع اشد مرارة من جميع العصابات : لقد توله وهو فى العقد التاسع من عمره بحب فتاة فى الثامنة عشرة . واعتقد هذا الطفل العجوز ، والشاعر الأعظم ، ان أهل الفتاة سينزوجونها بكل سرور من ميسدع «آلام فيرت» و«فاوست» ومعبود أوروبا . ولكن أهل الفتاة اعتبروا ان

العجوز فقد صوابه (وكان ذلك صحيحا الى حد ما) فما اكثر العرسان المناسمين لكثرتهم من حيث العمر . . . ابن الخباز ، والصيدلى ، والموظف المبشر بمستقبل . ولم يتقدم للقلب الشاب الفاض فى صدر الشاعر العجوز ان ينشد آخر اغاني الحب ، ومات الشاعر مقهور النفس . ويبدو ان الفتاة لم تتزوج لا من ابن الخباز ولا من الصيدلى ، ولا من الموظف الزائد . ومن العسير تصديق ذلك ، اذ يبدو هذا سورا مبالغا فيه ، ولكن ربما بالفعل «لم تستطع اغاني الأرض المسلة ان تصبح عرضا عرس اصوات السماء» التى داغيت اسماع الفتاة الصبية ؟

فلنمدد الخلود لهجوتيه ، فقد عانى ما عانى وانتهى ، اما معاناتك انت ففى بدايتها . حتى الآن لم تقعد سوى البلايل والقيرات ، ولكن بقيت لك الغريبان . وانت تستطيع ان تسمع الكثير من الضجيج الآلى ، والموسيقى العالية ، كما ان الاصوات البشرية لم تغب عنك الا فى السينما ، وهذه ضسارة ليست بالكبيرة ، فلستستع ان بالعالم الذى ما زال مستمورا واكثر من تذكر اصدقاء مضى «اليتولا الياكية» . من المؤسف حقا ان رب تلك الأسرة ينتمى الى تلك الفئة «الخفية» غير النادرة فى عصرنا المتخوف . فليس له عنوان إرفاقات ، ويعيش فى مكان فرضت عليه السرية الى درجة انه عندما يعود اليه يكاد يخفى من الدنيا ، وما اشد حاجة سرجييف اليه الآن .

فى بداية يونيو سار سرجييف على درب فى الغابة يمر أولا عبر غابة بئولا . ثم عبر غابة شروح معتمة وينضى الى فسحة بها ثلاث بلوطات مثقبة . كان فيما مضى يسلك كثيرا هذا الطريق الذى يعد بلقاعات مفاجئة ، تارة مع غل ، وتارة اخرى مع تغلب وأحيانا مع سنجاب وذات مرة رأى قطيعا من الغنازير البرية يمر منه عند المساء . ولكنهم فيهما بعد سيدوا دقيقتات قرب البلوطات ، فجهرت الحيوانات هذا القسم من الغابة . الى أين تضى حيوانات ضواحي موسكو التى يطاردنها البنساء ، وابن تجد الماوى الآمن ؟ كثيرا ما

تكتب الصحف بأعجباب غيب مفهوم عن «وعل في نطاق المدينة» ، ما الذي يُفرح في ذلك ؟ أمن المعقول ان شوارع المدينة تبدو لأبى القرون اكثر بشاشة من غابات ضواحي موسكو ؟ لم يبق وقفا للدرب غير الشجارير ، كما ظهرت هنا مؤخرا بومات مخبولة تخطط بين الليل والنهار . ففي ضوء الشمس ، حيث ينبغي عليها ان تنام ، مخمضة بفوق عيونها المستديرة الخضراء المصفرة ، اذا بها تندفع من على الغصون الى وجهة ما ، وهي تصلدم بالاشجار .

وكم كانت فرحة سرجيف عظيمة عندما رأى على بعد حوالي خمسين خطوة منه وعلا صغيرا يقضم غصون خميلة . لم يهتم الوعل بالشخص المقرب منه . وجمد سرجيف في مكانه لحظة . ثم اسرع نحوه . ولم يبد ان الوعل يفكر في الهروب وقد فقد كل حرص في انكيا به النهم على الطعام . وكان احيانا يغتفى تماما في الخميلة ، ثم يظهر ثانية في طرف الصخر مبرقشا بظلال الاوراق . ومع كل خطوة تصاعبد في اعماق سرجيف هاجس سبى\* . وحينما لم يعد ثمة شك في ان فقدان السمح ليس خسارته الوحيدة ، ظل يقنع نفسه بيلادة واشفاق ان ما يراه هو وعل حقا وليس تلاعب الاقواء والتقال . لقد اضفى التسميم الذي كان يهب على الدرب واسعة الشمس العائلة حياة كاذبة على الخميلة التي اشتبكت بها اعواد قصب جافة . اين يا سرجيف عينك الضميرية التي كنت تلتقط بها البطة الطائرة على ذبذبة البندقية من مسافة ستين مترا ؟ . . .

في الاميرة التي فرضت عليها السرية توجد خميلة لا تخضع لقيودها ، ولديها هاتف في موسكو . ولكنها قناة اتصال خطوة . فلا ينتص سرجيف ، فوق كل هذه الخسائر ، الا معاناة جوته .



### الطائر الأخضر ذو الرأس الأحمر

لم تأت بانعة اللين . . لا بد انها تشاجرت مع زوجها من جديد . ولكن بافلوف لم يكن ليسمح بان يبقى ولداه التوامان بلا لبن ، فاشد القدر وتوجه الى قرية كورينوفو على بعد ستة كيلومترات . بالطبع سيتأخر مرة اخرى عن العمل (كان يعمل في بناء مطعم المصمم) ، ولكن هذا لا يهم ، طالما تقتضى الضرورة ان يتناول التوامان اللبن اليوم ايضا . كان بافلوف ، حتى عهد قريب ، يعرف كيف يعيش موفقا بين شتى الواجبات ، بحيث لا يعطى حبه لاسرته على العمل ، ولا يضر شغفه بعمله . كان يشيد آنذاك فندقا ضخما في حي زاوياديه بموسكو - بمصالح أسرته . فبعد فترة الصبا التي مرتها الحرب ، وبعد فقدان الاهل والاقارب ، وبعد العلة الناسية والعوز ، اصبح بافلوف يسعى الى حياة يسودها الاعتدال والترتيب . ولكن كل شيء انقلب رأسا على عقب في ذلك اليوم الذي قال فيه الطبيب ، بعد ان كشف على التوامين

وفحصهما ، وأمعن النظر في صور الأشعة السوداء : «إن رئاتهما ضعيفة ، والأفضل أن يعيشا خارج المدينة» . وغارت نفس بافلوف ازاء احساس مضع بالذنب . ما قد ظهرت الآن آثار ما تكشف لأول مرة في اواخر خريف عام اثنين واربعين في مستنقعات جبهة فولخوف ، كان الملازم بافلوف يقتسل من «مسلة معلقة قرب الخندق المستوف ، واذا به يصق بصقة دموية غليظة على الجنب الجليدي الأبيض كالملح الذي غطي اعشاب المستنقعات بفشرة صلبة . وقال بافلوف في نفسه : «انه الاسقربوط» \* مع انفسه كان يدرك جيدا انه ليس الاسقربوط ، والا فلماذا هذا الضعف الدائم في الجسم والعرق البارد والعمى في الليل ؟ ولكن الاسقربوط يمكن ان يفسر سبب هذه البقعة الدموية القانية على الجنب الجليدي ، كما انه اقرب الى الحقيقة ، اذ كان الكثيرون مصابون به . فرغم ان جبهة فولخوف كانت مرتبطة بوسكو مباشرة بثلاثة خطوط حديدية - عبر فيشيرا ونيبولشي وتيخوين - فقد كان تمويها سينا وكأنما كان عليها ، ولو بدوجة طفيفة ، ان تشارك مصير لينينجراد المحاصرة \* التي لم تستطع الجبهة ايدا ان تحررها . وظل بافلوف يقنع نفسه بان مرضه هو الاسقربوط طوال الايام والاسباع والاشهر التالية حتى «وعد الهجوم الذي كان ينتظره ، مثل جميع افراد الجبهة ، كما ينتظر المؤمنون ظهور المسيح ثانية . كان الجميع يعرفون ان هذا اليوم ، يوم الهجوم ، سوف يأتي ، وان الهجوم لن يفشل هذه المرة ، وان حلقة الحصار حول لينينجراد سوف تكسر اخيرا . ومن اجل ذلك اخفى الملازم بافلوف المرض الذي يفتش رثيته عن نفسه وعن الآخرين . كان قصير النظر الى حد الاجرام ، فقد كان يظن انه يتصرف في جسده وصحته ومصيره وحده . ففى

\* داء من اعراضه تورم اللثة ونزف الدم منها بسبب سوء التغذية ونقص الفيتامينات . **الهروب** .

\* في الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١-١٩٤٥) صعدت مدينة لينينجراد لحصار القواات الالمانية الهلرية ٩٠٠ يوم ولم تستسلم . **الهروب** .

لينينجراد المحاصرة ماتت من الجوع كل امرته الصغيرة - امه واخته - فلم يعد لوجوده معنى الا بالاشتراك في اختراق الحصار . وقد تعاقب ما كان يرجوه ، اذ رأى جنود جبهة فولخوف وهم يندفعون للمقااة للينينجراد عند بلدة «ميجلا» ، وساعتها اصابته شظية دانة ، امتدت بعدها ايام المستشفيات العسكرية ، بين الحياة والموت ، ثم مرحلة طويلة من النقااة الشاقة ، فولوج حياة جديدة بعد انتهاء الحرب بعامين . وبعد ذلك كانت الدراسة الصعبة في المعهد ، والعز ، وعودة المرض اليه ، والاكتئاب من جراء عدم الثقة في قواه البدنية . ولكنه تجاوز كل ذلك ، وآمن ، وهو موشك على بلوغ الاربعين ، بأنه يستطيع ان يعيش كالاخرين ، ان تكون له ذرة اطفال . . .

تزوج بسرعة غير متوقعة ، ولم يكن ذلك راجعا ايدا الى انه احب آخر صديقاته اكثر مما احب الاخرات . الامر كله حسسته حركة واحدة ، ففي الصباح ، وقبل ان يفترقا ، رفعت من ذراعها الى رأسها لتجمع خصلات شعرها المتفرقة في حزمة واحدة . واذفل وضعها هذا يافلوف ، اذ كان اشبه بتي - يحمل في طياته الفرحة . فرحة غريبة ، لم يستطع في البداية ان يعرف كنهها . ظل يفكر في ذلك بلا كلل ، وهو يستعيد في خياله صورة امرأة وافرة البدن ، برأس هادئ منكمس قليلا ، وذراعين مستديرتين قويتين ورفوعتين ، ويصل هذه الحركة الساكنة المقعدة بالقوة الجلبية والانونة والثقة ، فأدرك ان صديقه كانت تشبه في هذه اللحظات الكارباتيد \* . اما فرحته فكانت حلسا منه بقدرتها على تحمل اعباء الحياة الزوجية وتحمل ضعفه عز دون وجل . واتضح كذلك انها ، هذه الكارباتيد ، لسبب ما لا تحتاج في هذا العالم المتنوع ايدا الى هذا المهندس الطويل ، ذي الرقبة الواحدة والذنين الهزيلين الغائرين ، اللذين دبث فيهما حجرة كأنما مستهما الصقيع .

\* ركيزة مبنى أو عمود معمارى على شكل امرأة عارية البناء يديها ، **الهروب** .



الذي يجعل محل الإحساس بالسعادة لدى الأشخاص الذين  
عانوا الأمرين .

مضى بافلوف الآن لاحتضار اللبن ، وهو يلوح بالقدر في  
يده ، ومن حوله انتشر نهار أزرق ومشمس ، يصر بجليده  
الصباح الباكر ليوم في أواخر الخريف ، وركض ظله الطويل  
النحيل بجواره في أذعان ، متخففا عنه قليلا ، على خندق الطريق  
المغطى بالارطافلون البني المكتسب حبيبا ، وعلى عساور  
الاسبيجة ، وعلى جذوع البتولا ، فغمز بافلوف بعينه لظله  
الذي واد بنا بانسا ، فهو رغم كل شيء ظل شخص ناجح موقر .  
خرج من البلدة الى مرج عريض يقضي الى النهر . وكانت  
هناك سكة تقطع المرح ، وانتشر حبيب الجليد على جنبات بعض  
الدروب والمدقات المشعشة . وإلى اليسار ظهر مبنى المطعم غير  
المكتمل بعد وراء سور المصنع الججري ، وإلى اليمين ، حيث  
يتم بافلوف وجهه ، امتدت غابة صنوبر . كانت تبدأ بغيشة  
ثنية صناعية غرست اشجارها ، وفيها بعدها تنسamy صنوبرات  
باسقة للعابة القديمة ، تلغيا زرقة خفيفة . وتبدو الغيشة  
كلها مكشوفة للبصر غير الدروب المستقيمة كالآوتار . كانت  
تلوح جميلة بصفة خاصة في لحظات الغروب ، حيث تلتصق  
في نهاية كل درب شعلة حمراء منيرة . وتضيئ الواسعة  
غير الغاية الى دخل قفل الكهرباء ، ومن هناك يقضي الطريق  
ببساطة الى كورينوفو .

وما إن دخل بافلوف الى الغيشة حتى تملكه احساس معهود  
بالقلق الغريب . ففي هذه الغيشة بالذات كما يؤكد التوامان ،  
يعيش طائر اخضر مدعش برأس احمر . وكان بافلوف يعتبر  
هذا الطائر محض اختلاق لخيال اطفال عليل ، وفي كل مرة  
يفكر في هذا الطائر يساوره القلق ، وكأنما يكن في هذا  
الاختلاق نوع من السوس ، قادر على ان ينخر الاساس الذي  
تقوم عليه حياتهم الاسرية الموقفة حاليا .

يبدأ كل شيء ، كما تبدأ جميع مصائب الإنسان في العادة ،  
من شيء تافه تماما لا توليه اهتماما ، ثم بعد ذلك تقول لنفسك  
بابي وحسرة وألم : لماذا كنت غافلا الى هذا الحد ، ولماذا لم

وقد تأكد بافلوف في ساعة السعادة ان حديثه لم يخف في  
ذلك الصباح البعيد ، عندما حُمن بحركة واحدة من الذراعين  
المستديرتين القويتين المرتفعتين يبطء نحو الشعر الغزير ،  
تلك القوة المتقدة الكامنة في شريك حياته المقبلة ، التي  
ستقاسمه السراء والضراء . فبسرعة لا تعقل ، ويحور د غير ملحوظة  
عثرت على منزل خشبي يسرع معقول في بلدة تقع على بعد  
ثلاثين كيلومترا من موسكو ، على طرف غابة صنوبر ثنية وقرب  
نهر صاف رتقاف . وكان هناك بجوار البلدة مصنع يجرى بنا ،  
ولطم له ، ومطلوب له كبير مهندسين . وعلى مقربة من البلدة  
مدرسة ثانوية ممتازة يحتاجون فيها لمدرسة لغة انجليزية ،  
بينما كانت زوجة بافلوف تعمل بالترجمة الفنية من اللغسة  
الانجليزية .

استقبل التوامان الانتقال الى الإقامة الجديدة بلا دهشة او  
أسف ، واندمجا في حياة الضواحي بثقة وحيوية ، وكأنما كانا  
يستعدان لها خفية منذ زمن بعيد . لقد نشأ بافلوف وزوجته  
وأبائهما واجدادهما في المدينة ، لكن اسلاف بافلوف الغابرين  
كانوا من طينة «بسكوفية» ، فلاحية اصيلة ، وانضج ان صلة  
«الكريفيتشي» الامجاد بعالم الطبيعة الخالص قد انتقلت عبر  
الاجيال ودون مساس الى ابني المدينة الصغيرين ، اللذين لم  
يشعرا بأي ضياع في عالم الاشجار والاعشاب والطيور والآفاق  
الرحبة والسما الواسعة ، وبسرعة تعرفسا على بستان الدار  
الصغير ، وعلى المنطقة المحيطة كلها ، وسرعان ما اخذ  
السنجاب المقيم بالبستان يقفز على اكتافهما .

اصبح الصبيان بحالة رائعة ، واكتسبت بشرتهما سمرة  
جميلة دائمة لا تزول حتى شتاء ، وكأنما استبدلا جلدصا ،  
وقويت عضلاتهما ، وظهرت في مشيتهما رشاقة اشبه برشاقة  
حركات الوحوش ، وعاد بافلوف يشعر بذلك الارتباك الوجيل

\* اشتهرت مدينة واظيم بسكوف في شمال غرب الاتحاد  
السوفييتي بدورها البارز في تاريخ روسيا القديمة ، وارتبط  
اسمها بمعاني الكفاح ومقاومة الغزاة . والكريفيتشي قبائل سلافية  
شرقية اندمجت في الشعب الروسي قديما . المعروف .

اكتشف العدو في صورته الاولى الغامضة ؟ لم يغش بافلوف  
لنفسه انه لم يلق بالا في البداية الى ثرثرة ولديه عن الطائر  
الاخضر الكبير الذى ادعيا انهما ابصره في الغابة . فليكن انهما  
ابصره ، ماذا في ذلك ؟ لكنه ذات مرة انصبت الى ما يتولان .

سأل التوام الاصغر :

— ما رايتك ، هل هو اكبر من الزاغ ؟

كان يصغر شقيقه يست دقائق فحسب ، لكنه ظل وفيما  
بصورة مؤثرة لوضعية الاخ الاصغر .

فقال التوام الاكبر بثقة :

— طبعاً اكبر . انه يجم الغراب ، لكنه انجب منه قليلاً .

فهتف الاصغر بهماس :

— وراسه احمر جداً ، كأنه يشتمل ! انه اجمل طائر في

الدنيا ! .

فأمّن الأكبر على قوله :

— نعم ، لا توجد طيور اجمل منه .

وضحك بافلوف ضحكة هازلة . فمثل هذا الطائر لا وجود  
له في هذه النواحي . وكان بافلوف يعرف جيداً جميع الطيور  
الموجودة في ضواحي موسكو : الزاغ ، والغريان ، والعقق ،  
والعصافير ، والزرراير والقرقف ، والصنوبر وتغار الخشب  
والقوق وغيرهما وغيرها . يبدو ان الامم اختلط على الاولاد ،  
او هو مجرد تلاعب الاضواء من تلاقى اشعة الشمس بخضرة  
الغابة . . .

وسأل الاصغر :

— وهل لاحظت الزرقعة في صدره ؟

فاجاب الاكبر بحزم :

— كلا ، ليس فيه بقعة زرقاء واحدة . كله اخضر حتى آخر

ريشة ، وبرأس احمر !

واعتبر بافلوف انهما اخترعا هذا الطائر فابدى دهشته من  
ان الاطفال لا يفتخرون ابداً بما هو في الواقع . او ليس العالم  
جديداً بالنسبة لهم وحالاً بالاسرار المستغلفة ؟ لكنهم  
يسارعون الى ملئته بشتى المخلوقات الخرافية : بالمغاريث ،

والثيلاء ، وجنيات البحر ، ومصاصى الدماء ، والمسايطيل ،  
والساحرات ، والاقدام والعائقة ، والطيور الخضراء الكبيرة ذات  
الرؤوس الحمراء . ومنذ آمد قريب ، في اوائل عهدهم بهذا  
المكان ، اعجب التوامان ايضاً اعجاب بالطيور الحقيقية  
المتواضعة لهذه النواحي ، اذ كان كثير من طيور الغابات  
والحقول يزور بستانهم . وكان يوسع التوامان ان يراقبوا  
ساعات طويلة حياض الخشب وهو يدق جذع الصنوبر بمقارنه  
في ضراوة . حتى ليبدو ان راسه المذهب سينخلع بين لحظة  
واخرى . ولم تكن دهشتهما اقل من ذلك عندما ابصرا طائر  
السيثا وهو يقفز راتجا غاوريا كالمكوك بين جذع شجرة الشوح  
العالية وغصونها .

وثبت بافلوف لوحاً خشبياً بين الحصان زعرور برى ، وثبت  
الصبيان عليه حبوباً واخذوا يطعمان الطيور . وسرعان ما اصبحا  
على معرفة دقيقة بأذواق الطيور . فالقرقف مثلاً لا يحب التبع ،  
الذى تقبل عليه العصافير والسيثا ، ولكنه يهوى بذور عباد  
الشمس . فلو القيت على اللوح ببقايا لحم فان طيور الزرباب  
الجميلة الهنيئة تتخلل عن حذرهما المعهود . ونقل التوامان  
حماستها في الاهتمام بالطيور الى ابيهما . واصبح بافلوف  
يُعجب بمراقبة العصافير الصغيرة وهي تطرد عن الطعام طيور  
النخج الوردية المنتفضة . كانت العصافير ، كالمبؤذين  
العتيقين ، على علاقة عداوة شديدة بالعالم المحيط . وكانت  
تعرف انها لن تتلقى احساناً من البشر ، وان مذاود اطعام  
الطيور ليست معلقة من اجلها ، فمضت تنتزع نصيبها بالقتال .  
كانت تنقض على اللوح سرباً ، فتطرد الطيور الصغيرة ،  
وبمعارك قصيرة ضارية تبعد طيور النخج ، وتسرع بالتقاط  
الطعام قبل ان يعوقها احد عن ذلك .

فلماذا استنفد ما في العالم المحيط بهذه السرعة بالنسبة  
للصبيان ؟ ولماذا قررا ان يضيفا اليه طيوراً خضراء ، برؤوس  
حمراء ؟ كان بافلوف يفكر في ذلك بتلك الجدية التي ينظر  
يها الى كل ما يتعلق بالاولاد ، ولكنهم لم يجد جواباً على  
اسئلتهم . واحياناً كان يذهله ويحزنه انه لا يدرك نفسية

الأطفال إلى هذه الدرجة . ألم تكن لديه خبرة من طفولته الخاصة ، أو لم يكن هو نفسه طفلا ؟ ولكنه كان يشك في ذلك أحيانا . لم تعرف طفولته أوقات فراغ ، وكانت عهدها من المهوم الدائمة والمشاكل المستمرة . ولم يكن في أي وقت مثقلا بالأعمال كما في سنوات الطفولة . فأبوه لم يكن له وجود في حياته إلا في صورة فوتوغرافية مصغرة لمجموعة من جنود الجيش الأحمر على رؤوسهم خوذات حادة القمم وبنجوم حمراء كبيرة . كانت أمه تقول له : «ها هو ، الثالث في الصف الثاني» . وبعد ذلك أخذ هو يقول ذلك الآخرين مندهشا دائما : لماذا ينبغي أن يعتبر أباه الشخص الثالث في الصف الثاني بين هذه المجموعة الكبيرة من المحاربين الشبان المتشابهي الوجوه ؟ لقد خلف له الشخص الثالث في الصف الثاني تركة ثقيلة : أرملة طيبة ، قليلة الحيلة ، بلا مهنة ، وأبنة صغيرة مريضة البعدة . كانت أرملة الشخص الثالث في الصف الثاني هي أم بافلوف ، وابنته هي أخته ، وكلتا أمي بحاجة إلى عناية دائمة . وفي أوقات الفراغ من الدراسة والعمل في منظمة الطلاب كان بافلوف ينقل على ظهره الزجاجات الفارغة من مخزن النور ليلسها في طرف المدينة الآخر . وكان ذلك يكفل له دخلا صغيرا ولكنه مضمون . وفي سن مبكرة أصبح يعمل في البداية مرافقا ثم مربيا في مخيمات الطلاب الصيفية . وكان خياله ذا وجهة عملية بحتة ، فلم يتصور نفسه أبدا فارسا منتصرا على الانعوانات والعائلة ، بل كان مهموما بأمر آخر : أين يجد عملا ، ويستدين نفقدا ويحصل على العطب والكيروسين ، ويدير أمور المعيشة الصعبة . في هذا كان يفكر بافلوف الصغير وهو يأوى إلى الفراش ، وكانت أحلامه أيضا عملية ، فلم تكن تعود عليه بראה حقيقية .

وعندما افتاق بافلوف من الحرب والمرض ومناقشة مشرور التخرج من المعهد الهندسية ، كان شيا به قد مر ، دون أن يتخلف ذكريات سارة عنه ، أو أسفا عليه ، وشرع بافلوف يحيا حياة جديدة وهو رجل بالغ ، كأنما لم تكن لديه طفولة أو فاقة أو صبا . وأصبحت حياته الجديدة مع زوجته وولديه

غالية عليه إلى حد لم يسمح معه لأشباح الماضي بالتردد عليها . أما الآن فقد أسف على انقطاع صلته بطفولته هذا الانقطاع الحاد ، إذ لولا ذلك لربما استطاع أن يفهم ولديه بصورة أفضل . . .

كاد بافلوف ينسى ذلك الحديث الذي سمعه خلسة ، ولكن الطائر الأخضر عاد ليكتشف عن وجوده اللامنتظر . في هذه المرة تحدث الصبيان عنه علنا ، في حضور والديهما ، أثناء الغداء . قال الأكبر :

— لقد رأيته صباح اليوم ، حلق فوق رأسي وحول على الصنوبرية .

فسأله الأصغر :

— على صنوبرية التعلب ؟

— لا ، على المعروقة . وكان واضحا جدا ! ظلمت ساعة كاملة أفرج عليه .

ولوح له الأصغر بسبابته بأن لا تكذب !

فترجع الأكبر متضرع الخدين :

— حسنا ، ليس ساعة . ولكن طويلا ! تأملته جيدا . عند قطعة كوبك " جديدة ، صفراء ، وراقصة ، ومتقاربة ليلى . وهو أيضا رأي ، ولكنه لم يعط .

— ربما كان لا يخاف من الناس . . .

فتنهده الأكبر قائلا :

— بل يخاف ، أنا أيضا فكرت : ربما يكون مستأنسا ، وتندمت نحوه . وظل ينظر إلى ، ثم حلق بجناحيه واختفى على الفور .

— وهل اقترب منه كثيرا ؟

— لو كان على قصص أقل ارتفاعا للمستة بيدي .

— كفا كما ترون ! كلا !

قالت الأم بعدة غير معهودة فيها ، فأدرك بافلوف أنها

الكويك عملة معدنية صغيرة تساوي واحد من مائة من الروبل . المعرب .

ليست المرة الأولى التي تسبح فيها هي أيضاً عن الطائر  
الأخضر ذي الرأس الأحمر ، وأن هذه البذرة الملحقة تزججها  
مثلها تقلقه ، هو بألوف وتثير أساءه .

وبعد ذلك سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ ، جن جنون  
الصبيين بالطائر الأخضر . ولم يعد لهما من هم سوى هذه  
البذرة ، وأخذا يفخران بها ، وكأنهما اكتشفا في الطبيعة  
بالفعل مخلوقاً رائعاً كان مجهولاً من قبل . ولم يكن في حديثهما  
ما يدل على رغبتهما في الأثرة والديهما وجرهما إلى الاشتراك  
في لعبة ما . لم يكن يعتنيهما أن كانا يصغيان إليهما أم لا .  
كانا يغاطيان أحدهما الآخر بحسب ، في بساطة وجدية ، فجزع  
بألوف من جدية هذه اللعبة المتبادلة بأوراق مكشوفة .  
وترأى له فيها شيء خفي ، مَرَضِي .

وشيثاً فشيئاً فرض الطائر الأخضر نفسه على حياة الصبيين  
وأخضعها له كاملة . فما أن يعودا من المدرسة حتى يهرعا  
إلى غابة الصنوبر ويظلا هناك إلى المساء . وحسبما أدرك  
بألوف فقد كان هذا الطائر ذا طبع متقلب : فتارة يطول  
انتظار التوامين له فلا يظهر لهما إلا لدحا ، وتارة أخرى ينعم  
عليهما بصحبته ، منتقلاً من غصن إلى غصن على مهل . وكان  
يأتي دائماً من ناحية الجبل ، ثم يحوم بعد ذلك في المنطقة  
الواقعة بين الصنوبرية المحروقة والصنوبرية التي رأى الصبيان  
تحتها تعليمات ذات مرة ، فسميها «صنوبرية التعلب» . كانت  
هاتان الصنوبرتان تقفان على طرف بقعة جرداء تميزها كثلة  
بيت نمل حمراء وخميلة غبراء . وأدعى الصبيان أن الطائر  
غير العادي ، الطائر الأخضر ذا الرأس الأحمر ، كان يأتي إلى  
هنا . وكان طائراً طيباً آمناً ، وبدا ذا طبع رائع يفيض سخاء  
وصفاً وجساراً . لم يكن يخشى أحداً . لا الغربسان ولا  
العقرب ولا التعالب . ورغم مظهره المغري ، بألوانه الزاهية ،  
فقد كان شجاعاً بحيث يسمح للناس بالاقتراب منه إلى مسافة  
شراع . ولكنه كان بالنسبة لبألوف طائراً فظيلاً . ثمرة حلم  
مرضى وتجسيدا مجننا لذنب الذي لا ذنب له فيه بحق ولديه .  
وبوازع الروح العملية السوية ، التي اعتبر بألوف أن

الصبيين ورتابا عن أمهما ، قرر التوايمن أن يضغيا على  
بذعتهما الوهمية هذه مسحة مادية ، فزما على أطعام الطائر .  
كان الخريف الجاف بلا أمطار يستقبل آخر إيامه . وقد انتهت  
الثمار من الغابة منذ أمد بعيد ما عدا ثمار الغبراء ، ورقّت  
أوراق الأشجار الفضية وراحت تنتثر أول هبة ربيع لتترك  
أغصانها . وكان صقيع الصباح يلسع الأرض ببرودته ،  
وانعشرت كافة المخلوقات الصغيرة في لقاء الأشجار وتحت  
الأوراق المتحللة ، وأصبحت الطبيعة شحيحة الطعام ، ولم يكن  
للطائر الأخضر منقار قوي لكي يستخرج قوته من جذوع  
الأشجار مثل حمار الغنص ، ولم تكن لديه قدرة العصفور على  
التهام أي شيء ، والتعيش على نبات الطريق الريفي ، ولا  
لصوصية العقعق أو وحشية البوم أو قوة ووقاحة الغربان .  
ولم يكن يجيد ، مثل الطيور المستقرة بهذه النواحي ، المشور على  
ذردة أو بذرة أو ثمرة غبراء جافة في فترة الشح ، ولم يكن طائراً  
مُتَحَنّاً مثل القرف الذي يتسول الطعام دائماً من أهل البلدة .  
كان طائراً عزيز النفس ، وعلاوة على ذلك فهو غريب عن هذه  
الأمكان فيما يبدو . وإذا أدرك الصبيان كل ذلك ، راحا بطمأنه  
غير بائلين بالبعد أو الصبر . في البداية كان عليهما أن  
يعرفا ما هو الطعام المفضل لدى الطائر الأخضر . فأخذا يعمدان  
إلى الغابة بالتناوب حبوب الحنطة والقمح وبذور عباد الشمس ،  
وكسرة الخبز ، والعدس ، وطحين الشوفان . وسرعان ما اتضح  
أن الشح الأخضر يفضل البذور . ولسوء الحظ فقد كانت  
العقرب والعصافير والقرف أيضاً من كبار عشاق البذور .  
فتبادل التوايمن الحراسة لطرد هواة السطو . ولم يكن ذلك  
بالأم الهين ! فقد حاولا بالصراخ والصفير والقفز الجنوني  
إبعاد اللصوص ، غير أن الطائر الأخضر كان يعتز هذا الهيجان  
مزعجاً ضده فيبتعد عن موضع الطعام .

وتهاوت تماماً أسس حياة التوايمن المنتظمة والمتنوعة .  
لم يعد لديهما وقت للمقارنة ولعب الشطرنج والانشغال بجهاز  
الراديو القديم . أصبحت حياتهما محصورة فقط في نطاق  
المدرسة والدروس والطائر الأخضر ، علماً بأن المدرسة



والدوس أصبحت فى عداد الواجبات العنسية ، بينما كان الطائر الأخضر ذو الرأس الأحمر هوى القلب . وكان بافلوف على استعداد لأن يبذل أعجابه بفروسية ولديه فى خدمة كليهما لو كان هذا الحلم ممكن التحقيق ، ولكن هذا التفانى كان يتهدد عبثا على بدعة وهذيان . . .

— هلا أريتم إياكما هذا الطائر ؟

قالت الأم ذات مرة من أعماق هدوئها البارد . ولكن بافلوف أدرك بحدسه المستنقظ قلتها .

وقال الأخ الأكبر ببساطة :

— لا مانع .

فى تلك اللحظة آمن بافلوف أو كاد بوجود الطائر الأخضر ذى الرأس الأحمر فى الواقع . ولكن عندما ساروا فى صف واحد على درب الغابة ، وعندما شغلوا نقطة المراقبة تحت الصنوبريات ، أصبح على يقين تام بأن شيئا لن يحدث . ومع ذلك كان تحليل أى عتقى ، وصرخات الزرياب الحلقيية ، التى تنذر الغاية بوجود غرباء ، وخفق الشرفف بين الغمامل العارية ، وصسيس الأوراق الجافة على الأرض وقد حركتها الريح . . . كل ذلك كان يجعله ينتفض تشوقا وأمالا .

وهكذا أمضوا عدة ساعات فى انتظار بلا طائل . وكان التوأمان مهوومين حزنين ، لكن لم يبدأ أبدا أنهما يرتكبان أو مخرجان . ورغم أنهما كانا عادة لبقين حساسين ، فقد أمعنا فى لعبتهما الكريهة الى حد الخشونة .

وقال لهما بافلوف فى قسوة :

— حسنا ، لقد حققنا ما كنتما تريدان ، وجعلتماني آمن بوجود هذا الطائر . اما الآن فكفى ، المزجة أصبحت كذبة ، كذبة حققاء بلا معنى .

شعب الأخ الأكبر وقال مبتعجا :

— أنت احمق !

وردد الأصغر :

— انت احمق يا بابا !

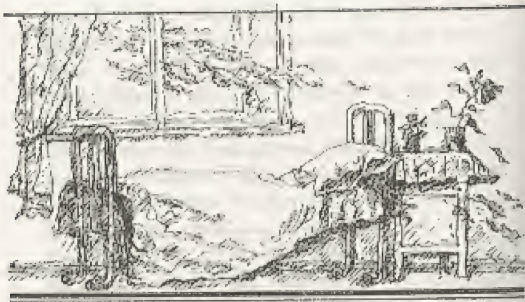
وانفجر باكيا .

احس بافلوف بالألم حتى فى هذه اللحظة ، وهو يتذكر ما حدث . وقد زاد من ألمه أنه يسير الآن على ذلك الدرب الذى فقد فيه قلبي ولديه . ما هى ذى الفسحة اياما ، وما هى ذى الصنوبرية المحترقة ، وما هو ذا بيت النبل ، وما هى ذى الصنوبرية الأخرى ، وما هى ذى الغبراء . وفى الشمس الساطعة ذاب الحبيب الجليدي فأصبح كل شيء براقا مبللا : أبر الصنوبر ، وقواعد الجدوع والعشب الأخضر الجامد . وعلى فصوص شجرة جلس عصفور نافثسا ريشه ، مدورا مثل كرة زعرادية بنية .

... حصل بافلوف على اللبن فى كوريتوفو وعاد ادراجيه .

وبعد ان تجاوز خط نقل الكهرباء ، وأوشك على بلوغ غابة الصنوبر ، أحس انه فى الضنن ان يعود من نفس الطريق ، نذار حوله ، مارا بغابة يتولا خفيفة ، ولسب ما فات من لقاء البتولا الرطب رائحة ملابس مفسولة ، وفى الهواء الساكن لم تهتز ورقة واحدة ، ومع ذلك كانت الغيضة مفروشة بطبقة كثيفة من الأوراق الذابلة الصفراء . وبجوار جذور شجر لاح شيء ساطع الخضرة . اقترب بافلوف منه وحرك بسن حدائه تلك الكومة الطرية من الريش الأخضر خضرة ساطعة والخفيف الى درجة ان عدة ريشات منها طارت فى الهواء من ملاصقة قديمه . فى هذه الكومة الساطعة الغرائبية لاحت ريشات رفيعة مستطيلة حمراء كأنها قطرات دم قانية . يبدو ان الكاسر الذى انقض على الطائر الأخضر ذى الرأس الأحمر لم يترك منه عظما او لحم ، وخلف فقط حلته الجميلة غير الصالحة للأكل بجوار الجذور ، أو ربما هى الريح التى جمعت الريش المتبعثر على الأوراق المتحللة بجوار الجذور . . .

امتلا قلب بافلوف بالفرحة والمعاناة . فلأول مرة آمن الآن بأن التوأمين صبيان قويان ، سيتغلبان دون جهد على الضعف البسيط فى قصصهما الصدري ، ويشبان قوين طبيين بركن اليهما . ولكن لماذا لم يستطع لا هو ولا زوجته أن يرتفعا الى مستوى الإيمان البسيط بالمعجزة التى تكشفت لانيهما ؟ لماذا نفقت الأم يدها من الأمر ببساطة ، أما هو



### سوف تعيشين

صعد الى الطابق الثالث حيث قسم النساء الباطني في مضعد شحن واسع كثير الضحك ، يستع لجمل تقاليد المرضى وعزبة قدور الطعام . وكانت عاملة المضعد عجوزا رعييلة المنظر ، ذات وجه ملحم غاص بالشامات المشعرة . وصدر لا يحاط به ، محشور في رداء المستشفى بل ومزقه عند خياطة الاكام . وكان المضعد يتجاوز محطات الوقوف في كل مرة ، فتسد العجوز ذراعا صغيرة لتعيده الى اسفل ، وهي تنسبه قائلة : « ايها الشيطان ! » وكأنه حصان جافل .

خفض كرافتسوف بصره كأنما يشعر من حوله انه لا يرى المرضى الرافدين في عتابرهم خلف الابواب الزجاجية ، ولا المستكفين منهم في الطرقات في ارواب قصيرة لا تزرر عند الصدر فوق القمصان الداخلية ، ومرت بسرعة الى العنبر الذي نزل فيه آله . غير ان جميع تفاصيل حياة المستشفى كانت تنقل الي وعيه بصورة ما . كان بالفعل يسعى جامعا الى غضى

فقد فذب نفسه واساء الى ابنييه بعجزه اليائس عن تقمص ايمانهما ؟

كان من المحتمل ان يصل التوامان الى هذا الموضع من الغابة بحثا عن الطائر الاخضر ، ففتش بافلوف حتى وجد غصنا مدببا ، وحفر به حفرة غير عميقة في التربة اللينة عند السطح والصلبة من الداخل بسبب التسقيع ، ودفن الريش وقد غطاه بالاوراق العطنة . واخذ بافلوف معه ريشة حمراء ، لانه كان بحاجة الى دليل مادي بعد ان رزع في ابنييه عدم الثقة بانساءته اليهما .

قال لابنييه بعد عودته الى البيت :

— لقد رايت طائركما . كان متوجها الى الجنوب . وسقطت

منه ريشة ، ها هي ذى .

تناول التوام الاكبر الريشة بحرص ، وغرورها على خده ، ثم اعطاما لآخيه ، ففكر هذا نفس الحركة .

وسأل الاصغر حالهما :

— ترى هل سيصل ؟

— كان يطير عاليا ، بقوة والنسياب ، حتما سيصل .

بصره كى لا يرى شيئا ، ولكنه رأى الأسرة المغطاة ببطانيات ومادية قديمة ، والمتأضد الصغيرة وعليها المشروبات وقواوير الأدوية وبقايا الطعام والكتب والمجلات ، وأراعى قضا الحاجة ، الفارغة والملاى ، وأتى تطل دائما من تحت الأسرة ، ورأى المريضات من شتى الأعمار ، وكُن في معظمهن عجائز ، والقليلات متوسطات السن ، أما الشابات فكان نادرات . بوجه ترابية ونظرات كابية من عيون مرهقة - فقد كان هذا القسم مخصصا للحالات الصعبة - نساء مستقرئات يعنى فى آلامهن ومخاوفهن وآمالهن وشكوكهن ، بحيث كفن عن الاحساس بأى خجل ، ولم يعدن يبالين بمظهرهن فى أعين الزوار . وفى العنبر المجاور لعنبر والدته وقدت امرأة كبيرة الجسم ، فى حوالى الخمسين ، برأس أشيب صغير ملقى على الوسادة ، وهى تمانى منذ عدة أيام فى حالة بين الموت والحياة . وكان جلد وجهها المسود مشدودا بقسوة على وجنتيها وفيها المنفرج الذى بدا وكأنه لا يتنفس . وانزلت البطانية وتجمعت عند قدميها ، وانحسر قميصها متجمعا فى كومة . ومن عند عنقها اللوزى الغامق المعروف دب الصبا فى جسدها بصورة غريبة فبدا مرمرى فى بياضه وامتلانه وجوده المهيّب . وأحس كراقتسوف وكأنه ارتكب اثما أو فعلة سيئة إذ وقع نظره على الجبال التمثالى لهذا الجسد المعذب ، فأسرع بتجاوز العنبر . كانت أمه تصاب دائما بالارتياح كلما جاء . تنسج عينها الرماذيتان المائلتان الى الزرق ، والمثلتان أصبجتا بلا لون ، بينما تهتدل زاويتا فيها ، وتروح يديا اليسرى تعصر قبة القميص فى تشنج . وكان كراقتسوف يدرك العبالة فى هذا الارتياح : فقد كانت أمه تريد ان تقلل له ان مجيئه مفاجأة تامة لها ، وأنه ليس هناك ما يستدعى حضوره على الإطلاق . فيقول لها مجاريا :

- كلا ، كلا ، كل شئ على ما يرام . . . كل ما هناك انى

وجدت ساعة فراغ . . .

وكان كراقتسوف يعيد «ساعة الفراغ» هذه كل يوم ولكنه ظل يتظاهر دوما بأنها مضى صدقة ، لانه كان يعلم أن أمه

بنفس الدرجة لا تريد الاخلال بنظام حياته المألوف والمعسوب بالذقيقة ، وفى الوقت نفسه تخشى الا يزورها ابنتها . غير انها تعرف انه لا يستطيع ان لا يأتى . نعم ، تعرف هذا ، ولكنها مع ذلك تخشى الا يأتى اليوم ، فتشعر بالوخضة وتتعذب . . . جلس كراقتسوف على مقعد متهالِك هائل بطلا ، زيتى أبيض ، وطوق ركبتيه يديه النحيلتين ، وهو يتمايل قليلا ، وجهها نحو أمه وجهها مستغيلا ضيقا عند الصدفين ، وابتسم ابتسامة ضعيفة غير واثقة . وردت أمه ايضا بابتسامة فيها نوع من التآمر الماكر . لم يكونا متآمرين على حياة أحد آخر ، كما يحدث أحيانا بين شخصين يجب كل منهما الآخر حبا مفرطا ، غير ان ما بينهما كان ملكا لهما وحدهما ولا يمكن ان يتناطراهما فيه أحد .

وسألت أمه :

- متى ينقلونى الى عنبر عادى ؟

- لا توجد هناك أماكن .

- مستحيل ان اصدق . المرضى هنا يأتون ويذهبون .

- اعتبرى نفسك معاقبة . كان عليك ان تلمى الفراش لان تحلتى محل المرضية الليلية .

- ولكنها كانت تذاكر للامتحانات ، ورسبت المسكينة فى امتحان الفيزياء . كانت هذه ثانى مرة ترسب فيها .

- وهل يصح النهوض من الفراش وخياطة الجرح حديثه ؟ ادعى ثمن ذلك من وحدتك .

- انا لا أضع أبدا من الوحدة ، لكنى اشعر بالحرج ،

فحالتى ليست من السوء بحيث تستدعى وضعى فى عنبر منفرد .

ضغلت كراقتسوف بأصابعه على ركبتيه بشدة . لقد

استأصلوا من جسدها قطعة بنجم التفاحة ، والآن يسלטون

على جسمها المسكين اشعة اكس . وليس معروفا بعد ماذا

يبنى لها المستقبل . ربما استدعى الامر عملية اخرى ، بينما

أمه فى الثامنة والسبعين ، وقليها مستهلك ومصاب بذبحة .

وقالت أمه بالحاج :

- ولكنك لم تطلب وضعي في غير منفرد ؟ أليس كذلك ؟

- إلى .

الا تفهم انه حقا الى اى مدى ترسخت فيه مبادئها الحياتية ؟ لا ينبغي ان تطلب ابدا . لا تأخذ الا ما هو مقرر للجميع ، لا تشمتع بأى امتيازات ، خذ دورك فى جميع الطوابير ، لا تشتر التذاكر الا من الشباك العمومي ، احب عملك فى حد ذاته لا من اجل المنفعة التى يمكن ان يعود بها عليك . وبفضل ذلك ظل ، وقد تجاوز الخمسين من عمره ، مجرد قائم بأعمال مدير معهد ابحاث علمية ، لانه رفض رفضا قاطعا ان يمنحه شهادة الدكتوراة تقديرا لمجموع مؤلفاته . ومع ذلك فقد شكك كرافتسوف فى ان وضع امه فى غير منفرد حدث صدفة ، بل لأن اسمه كان يعنى شيئا لأولئك الذين سمعوا عن ذلك المجال العلمى الضيق . البعيد عن الاضواء ، والذي كان يعمل فيه . لكنه كان منا عاجزا عن فعل شئ . ، التواضع بعده مثل النفاق ، بيد ان امه ، حفيدة أحد النواز الشعبيين ، لم تكن تقبل المساومات ، حتى ولو كانت من باب اللباقة او وليدة التسامح ازاء الضعف البشرى أو الارهاق . لزما الصمت . وراحت امه تأكل العنب الذى حمله اليها فى كيس وكانها غفلت عن وجوده . كانت تقطع الحبة من العنقود ، وتضعها فى فمها ، وتغفلطها بلسانها على سقف الحلق ثم تضمضها ببدا ، وتركيز وشبه عيوس . وبعد ذلك تزدريها بصوت مسمع . وفكر فى ان السرور كما لو كان قد ابرز هرم امه . فليست المأساة فى التجاعيد والبتع السوداء على الخدين والجبين وليست فى الزائدة اللحمية على البطن الاعلى التى تشبه بذرة البن ، وليست فى النمش الكثيف والقاتم فى اليدين النحيلتين الدقيقتين ، وليست فى شيب الشعر الذى رق واصبح خفيفا ، وانما المأساة فى هرم روجها . ما كانت قبلا لتسمح لنفسها بان تلتهم الطعام بهذا الاستغراق وهذا الثهم . وعموما فلم تكن فى السابق تأكل الا قليلا ، بل

ولم تكن تأكل وانما تذوق الطعام وهى تعدد فى المطبخ ، انه لا يستطيع ان يتذكر اسمه وهى تتلفذ بالطعام او حتى تضعفه . كان يكتفيها القليل من الوقود لكى تشتعل . كانت قصيرة ، نحيلة ، وقد حافظت حتى الكبر على حدة ووضوح ايمائها وسرعة ونفخة حركاتها ومشيتها ، ولم تسمح لثواب الدهر ان تخرجها من مملكة العواطف السامية . اما الآن فقد نسيت كل شئ فى الوجود ، حتى ابنها ، وراحت تستمتع بهم وعلى طريقة العجائز « بالحاجة الحولة » .

كان يدرى سبب ازعاجه الذى يكاد يبلغ حد الحق : لقد كان يخاف اى تحول فى حالة امه ، اى انحراف بسبب عن مألوف صورتها ، ففى سنها يكون الثبات وحده افضل النعم ، فورا كل تبدل يكن العرض او الهرم . رات الأم نمو ابنها ونضجه ، وتحول الشربة الى انسان . اما هو فقد وهبت له امه مكتملة ، هكذا كانت وهكذا ستنقى . بالطبع كانت تجرى فيها حياة داخلية خاصة ، وتحدث لها تبدلات معينة ، ولكنه لم يرها . ولم يشعر بها ، كما لم يلحظ ايضا حتى وقت قريب تحطم فشرتها الخارجية . لم يلحظه لان امه دخلت مرحلة الشيخوخة دون خسائر ، او تقريبا دون خسائر . . دخلت اليها بطولات ناعمة وبرأس مرفوع عاليا . صحيح انه هو ايضا شاخ ، رشاش كل ما حوله ، اذ اصبح العالم القريب كله اكبر سنا ونضجا ، وجمد على هذه الصورة التى لا تخلو أبدا من قيعة . غير ان المسافة بينه وبين امه ظلت كما هى ، الامر الذى كفل ثبات صورتها . ثم بدا وكأنها عجلت امه بدخول الشيخوخة الحقيقية دخولا نهائيا بلا رجعة لكنه لم يلحظ ذلك ، لم يلحظ هرمها الا عندما رآها على فراش المرض فى المستشفى .

ضمت امه بنفس الشراهة تلثم العنب حبة اى حبة من ذلك العنقود الثقيل الملء ، المغلى بطيخة رقيقة اشبه بالبرد . فماذا لو كانت تفعل ذلك لضرورة ؟ ضرورة تقتضيها عملية الشفاء ؟ . . . انها لا تشعر بميل الى العنب ، لكنها تعبر نفسها على ابتلاعه ، وعصره بلسانها ، ونضغه بدأب ، لكى يصبح الخير الموجود فى عصيره خيرا فى دمها ، عندئذ يمكن ان ينظر



الى هذا الاستغراق في الاكل من زاوية اخرى : ليس من السهل على شخص متقدم في السن ومريض ان يقوم حتى بهذا الجهد البسيط . وشعر كرافتسوف بالامتنان لانه على هذا الجهد الذي تبذله من اجل نفسها .

كان اكثر ما يشغله كرافتسوف في اخرج ايام مرضها ان لا يكون قد بقى لديها شيء من القوى لتقاوم به المرض وقد الفت طوال حياتها ان تنفقها بلا كلل عليه ، وعلى صحتها وقوته ، ورجولته ، ومسيره ، ونجاحه في الدراسة ، وتدبير امور أسرته . وبنت له امه عزلا ، في مواجهة ضعيفا ، في مواجهة خطر الموت . ولكنها تحملت برابطة جاش فادرة اكتشاف المرض فيها ، وجميع نصائح الاطباء المتناقضة تماما ، والعملية الجراحية ، وتلك اللحظات المؤلمة على طاولة العمليات ، حيث عانت عذابا كعذاب محاكم التفتيش ، عندما كانوا يعززون تحليليا للورم المستاصل ليجددوا هل يستاصلون جزءا اكبر ام يخيطون الجرح ، ثم ذلك النبا المياغت - بعد اسبوعين من الفرحة - بان نتائج المزرعة ايجابية لكل ما هو ايجابي في القلب سمى ، ولا يد من عملية اى اخرى اكبر ويتخدير كامل ، ثم التحول الاخير في الاحداث ، عندما اتضح ان هناك خطأ في تحليل نتائج المزرعة ، وبدلا من العملية فرروا لها دورة علاج بالاشعة .

غير ان ما ادمشه واسعده ليس شجاعة امه ، فهي قد عاشت حياتها كلها في جليد ، دون شكوى او اثنين مهما واجهت من مشاق ، وانما وجود قوى خفية ما لديها . لقد ساعدت على نجاح العملية الجراحية . ففي القلب تجري كثير من الامور وفق الهندس ، وبالتخصين ، او على اساس التعاديل المززعج التي يختلف تقييمها من طبيب لآخر ، مثلها مثل رسوم القلب وكشوف الاشعة . وهذه الاخيرة تبدو اشبه باللوحات التجريدية التي يرى فيها كل شخص ما يتفق وجهاز التلقين لديه ومزاجه . والمريض هو الذي يعالج نفسه الى حد كبير بإرادته وعقله وتسميته بالحياة ويقدرته على التركيز . وكانت امه تمتلك كل ذلك . وعلاوة على ذلك كان لديها شيء آخر :

لم يكن بوسعها ان تترك ابنها الكبير لتصاريف القدر . كانت تعلم ان احدا لن يعوضه عن امه العجز ، لا زوجته التي يعيها بهدوء وإخلاص ، ولا ابنته التي ترد على حنان أبيها بتعاطف به نزعة أهمال ، ولا تلك الحفنة من الاشخاص الذين كان يحترهم ويسمهم اصدقاء ، لغياب الاصدقاء الحقيقيين الذين استشهدوا في الحرب . هكذا سارت حياتهم ، وما كان بوسعهم سوى ان يخمن ان كان ذلك سعادة ام مصيبة . وقبل مرض امه لم يكن يعتبر الامر لا هذا ولا ذلك . فهل الهواء سعادة ؟ لا بد انه كذلك ، ولكنه لا ينطرق الى ذهن احد من الاحياء ان يصبح بتأثر : «يا لها من سعادة ان يكون هناك هواء !» ، ذلك اساس الوجود . صحيح ان الشخص المغفل من قبل خالق او سراديب تحت الأرض ، أو من تحت انقاض منزل متهاير يترك فجأة ان استنشاق الهواء سعادة لا تضاهيها سعادة . هكذا ادرك هو تضايك جوهره بعوهر امه كسعادة عظيمة وعصية عظيمة عندما أصبحت بين الحياة والموت .

«هيا يا امي ، هيا ، ابدلي جهدي ! . . . - رد كرافتسوف في سره وهو ينظر كيف تلتهم عقود العنب . . . هزت شجرة الدردار الباسقة خلف النافذة غصنا ، زكائنا ارادت ان تلقي في العنبر بحزمة من الاوراق مصفرة ولكنها بعد قوية سميكة متشبثة بأعوادها . ولم تنفصل ورقة واحدة عن الغصن . فهز الدردار بعنف كانها يصير على رايه . واخيرا انفصلت ورقة واحدة عن الغصن ، صفراء بعروق خضراء ، مصابة ببقع متفتحة ، وتأرجحت وهي تطير الى العنبر وتستقر على المتضعدة الصغيرة . وعلى النور هذا الدردار واستكن .

ونذكر كرافتسوف انه ظن هذه الشجرة في البداية زيزفونية ، ثم اعتبرها شجرة ليق ، ولم يظن الا مؤخرا الى انها من معارفه القدامى . ففي فناء منزلهم بحي زاموسكاريتشيه نت اشجار دردار ضخمة كانت تعمل بذواتها فرق قياب كنيسة بياتنيستكايا . وفي الايام الاخيرة تذكر اسماء جميع انواع الشجر الاخرى والتمائل والاعتساب في حديقة المستشفى

الطبيعية ، تعرف عليها فجأة بعد غيبة طويلة في وسط حياة المدينة ، ودون إرشاد من أحد .

أما هي التي علمته أسماء جميع الأشجار والخمائل والأزهار والأعشاب والنباتات ، وجميع الحيوانات والطيور والأسماك والزواحف والحشرات . اهتمت مبكرا بأن يتشبأ ابنها في عالم له اسماءؤه ، لا أن يعيش وسط مجهولات غامضة .

ومع ذلك ، لماذا تذكر فجأة كل شيء من جديد وعرفه ؟ ما الذي أيقظ الذكرى وكيف ؟ لقد حدث هذا في الوقت الذي ماتت فيه تقريبا ذاكرته الميكانيكية ، فصار ينسى رقم هاتفه المنزل ، ويخلط أسماء معارفه وزملائه في العمل ويعتبر الأربعة جمعة . وإذا استثنينا المتاعب الحياتية والإحراجات التي كان يسببها له هذا السنيان ، فإن كرافتسوف عموما لم يأس كثيرا على فقدانه هذا النوع الأدنى من أنواع الذاكرة ، لأن ذاكرته التخيلية كادت تصبح أقوى من ذي قبل ، وكان يدرك أن تذكره لأسماء سكان هذا العالم غير مرتبط أبدا بالذاكرة الميكانيكية ، بل بشيء أهم وأعقب بكثير ، بل ربما بأهم وأعظم ما في جوهره . . .

وتناهى صوت أمه :

— هل تذكر حلبة التزحلق ؟ كان الصبي لا يجيد التزحلق أبدا . يغطو بهذا التزحلق على الجليد كما تغطو البطة ، ثم يلتهم كعكة ضخمة بعد ذلك .

وابتسم كرافتسوف وقال :

— كيف لا اذكر ! كعكة مزخرفة ، شامقة ، بنكهة عسل . وغير طازجة بعض الشيء .

وقالت أمه بمرح :

— اعتقد أن فرحة الكبرى كانت في هذه الكعكة وليس في التزحلق ! كم هو جميل أننا تعرفنا هؤلاء الناس . ما أن تتذكرهم حتى يضر الدفء القلب !

تورد خداهما الغائران ، وظفر البريق في عينيها . وتهضمت

جالسة على الوسائد منتقبة في جلستها ، فمادت كما كانت فيما مضى .

تحدثا عن معرفتهما اللذين مرا سريعا في حياتهم عندهما كان كرافتسوف صغيرا لما يدخل المدرسة بعد ، وكان ذلك الصبي من عمره تقريبا ، ولكنه كان تلميذا . وكان يعامل كرافتسوف معاملة الصديق الأكبر القوي والحكيم ، والمسؤول عن سلامته والمحافظة عليه . وينس الصورة كان يبسط حمايته القروسية على أمه ، تلك المرأة الشابة الجميلة ، التي تبدو أشبه بأخته الأكبر منها بأمه . وكانت الأم والابن متشابهين . . . بشعر أسود وعيون عسليه ، وبشرة سمراء متوردة .

نعم ، كانا يرهما الآن أمامه ، ويحس بانقاسهما النقية النظرة . ومع ذلك . . . هل كان لهماذين الشخصين وجود حقيقي ، أم هما من صنع الخيال ، أو بالأحرى تكونت صورتها ، كما في لوحة الفسيفساء ، من شظايا الواقع والأوهام ؟ فلتحاول إذن أن تعرف كيف تنشأ الحكايات الخيالية التي تغلف حياة كل أسرة بظباب الأساطير .

تحدثت عنهما أمه في اليوم الذي أجريت لها فيه العملية . سألتها بنبرة كان فيها ضراعة : «هل تذكرهما ؟» . وعلى الفور تذكر كرافتسوف ، بفرحة دهشته هو نفسه ، ذينك الشخصين الساحرين . الساحرين في كل شيء : في مظهرهما ، وفي الطريقة التي كانا يعاملان بها بعضهما البعض . بحرية وركنة واحترام . وكيف كانا يفرحان بكل شيء . بالمعارف الجدد ، وبالنزعة ، وبأكوام الثلج ، وبالتبول . ظهرا فجأة فائرقا كعبد بهيج ، ثم أفلا كما يافل العيد . . . سريعا ومبكرا ، قبل أن يروى الغليل .

كانت أمه المتحفظة في مرضها ، كما في أيام العافية ، تنتشى بحورية غير عادية عندما يأتي ذكر هذا الزوج . وبالمنااسبة ، فهي التي سميت الأم وأبناها «زوجا» ، رغم أن العرف لم يجز بذلك . وكانت الحرارة تدب في قلب كرافتسوف عندما يتذكر هو أمه شتى التفاصيل الصغيرة لتعارفهم التفسير .

ان كل هذه الاشياء الحياتية الرقيقة ما كان يوسمها ان تعنى شيئا للغرباء ، ولكنها بالنسبة لهما عامرة بالاهمية والعمق ، وكانت الام تذكر اكثر مما يذكر ابنها ، بل اكثر حتى مما كان يوسمها ان تذكر ، ولكن كرافتسوف لسبب ما لم تدعشه سبعة اطلالها الغريبة .

ومع ذلك فمن اين ظهر هذا الزوج الرقيق واين اختفى ؟ . . . ولماذا لم يترك اى اثر مرئى لظهوره ؟ لا رقم هاتف فى المفكرة القديمة ، ولا بطاقة بريد ، ولا اى شئ من النثریات ، ولا تذكارا لو هدية . ولماذا بعد هذا الاقتراب يختلف فجأة والى الايد ؟ لم تقع مشاجرة ولم توجه اهانة ، ولم يحدث سوء تفاهم بينهم . أمن الجائر انهما رجلا من موسكو ، وهذا كل ما هناك ؟ هذا هو الاقرب الى الاحتمال ، فلماذا اذن لم يكن لقاء اخير ووداع ، او حديث هاتقى على الاقل ؟ اذن فهو رجيل مفاجئ ، بحيث لم تكن هناك فرصة للوداع او حزم الحقائق . . هذا هو التعليل الوحيد ، رغم انه مشكوك فيه . وقد يبدو انه ليس هناك ما هو اسهل من ان يسأل امه عن ذلك ، امه التى تذكر الكثير . ولكن كرافتسوف يعرف انه لن يسألها ، اما اليوم فقد اتضح له ، لأول مرة ، لماذا لن يسألها .

لقد رثته امه فى كنف البرودة ، ولسم ير أباه الذى استشهد فى الحرب الاعلى . ولم تكن امه تحب الحديث عن ابنه . لكنها كانت مستعدة فى الوقت نفسه للاجابة على اى سؤال من اسئلة ابنها . وكانت تعجب برقة واقتضاب كما فى الاستثمارات . اما هو فلم يكن بحاجة الى بيانات الاستثمارات ، كان بحاجة الى شئ آخر تماما ، وشيئا تأكد من انه لن يحصل من امه على هذا الشئ الآخر ، لم يعد يسألها عن ابنه . لقد تولت الام كامل المسؤولية عن ابنها ولم تكن بحاجة الى تأييد معنوى من الأب الراحل . ولم يستطع كرافتسوف ان يعرف مكانة ابنه فى قلبها . كان يخيل اليه احيانا ان يتابع امه قد جفت من هول الضيعة التى لم تستطع ان تغلب عليها حتى النهاية ، وحيانا اخرى كان يخيل اليه ان امه لم تحب أباه ،

وكانت تريد ان يكون لها طفل ، ودون ان تعلم ما يخفيه لها القدر كانت مستعدة لان تربيته وحدها . وكان الاب يدعى كيريل اليكسييفيتش ، واسم عائلته اسوكين . اما كرافتسوف فكان يحمل اسم عائلة امه واما اسم الابوة فكان عاندا لابيه ولور كان هذا ممكنا لاعطته الام اسم ابنيها .

ومع ذلك كانت الام تخشى ان تقاثر شخصية ابنها لغياب العنصر الجالى ، فربت كرافتسوف تربية اسبرطية . فعند ان وعى نفسه واليكاء والشكرى محرمان عليه . وتعلم ان يعيش بميون جافة . ولم ير هو نفسه امه باكية ابدا . حتى عندما رحل الى الجبهة لم تفقد رباطة جأشها . قالت له فقط : « مع السلامة يا بنى ، لا تنس الرسائل » ولم توصله الى الباب . ولم تتطلع من النافذة . لم تقبله امه ابدا ، حتى وهو صغير حتى عندما كانت تهنئه بعيد ميلاده . كانت تشد على يده بقوة وتسليه الهدية . مائة عام من الصمت . تلك كانت حياتها المشحونة فى الغربة الصغيرة جدا بمنزل قديم فى حى زاهوسكفارييتشي . لم يكن ذلك صمت جفاف ولا ميالة ، بل صمت جب قوى للغاية ، جب بالغ القوة ، يخشى ان تؤدى مظاهر الضعف والنشافة والدعوى الى هلاك الابن الحبيب . لو كان الاب معها لصارت الام ربما مغتلفة . ولما لم يكن هناك معادل للعنصر النسائى الرقيق فقد أصبحت الام صلبة كالحديد .

لم يكن كرافتسوف يعد نفسه محروما على الاطلاق . بالطبع كان يرى ان علاقات رفاقه بأهلهم مختلفة ، ولكنه لم يحدسهم ، بل كان ينظر الى حناهم بشئ من الاستعزاز . كان يشعر بأن حياته مع امه طريفة بلا حدود . اذ كانت تفتح العالم امام عينيه بلا كلل . . . فى الطبيعة ، وفى الكتب ، وفى الفن ، وفى الاشخاص المحيطين باسم والراحلين ، وفى التاريخ ، وفى الجغرافيا ، وفى الآثار ، وترى فيه الاحساس بالكيونة العالمية لا الوجود المعيشى . وكان يدعشه كيف تعرف امه كل ذلك وهى التى لم تكن المدرسة الثانوية . وتعمل مترجمة خصوص تقنية .

وأيا كانت مادة الحديث بينه وبين أمه ، سواء عما عايشاه أو قرآه ، وإيا كان العمل الذي يقومان به معا ، سواء تنظيف الغرفة قبيل أعياد مايو ، أم فلاحه حديقة المنزل ، أم تعليم الفلر ، أم جمع حاجياته استعدادا لداء الخدمة العسكرية . . . كان يجري بينهما حوار غير مسموع ، يسود بالواقع اليومى إلى درجة الحياة العليا . ومع ذلك ظلت المانة عام من الصمت هي قسمتهما . كم كبتا في نفسيهما من حنان وكس كلمات بانسة ، حقا ولا لزوم لها ولا غنى عنها صمتا عنها ، وكمن من دموع جمدا ، وكمن من خفقات روحية أخمداها !

وربما لم يحسا أبدا بحرمانهما بهذا الوضوح مثلما أحستا به عند ظهور صديقة أمه أيام المدرسة مع ابنتها الذي كان يكبر كرافتسوف قليلا . نعم بالطلع ، كان هذان الشخصان موجودين في الواقع . . . الأم والأبن بشعرهما الأسود وغيرتهما العسلية وجهيهما الملوحين . . . اللذين أسراهما بطيئتهما المرحلة وإطلاقتهما الروح الكامل . قضوا معا يوما بأكمله ، وشاهدوا فيلما ، وعبسا «الفرسان الثلاثة» بطولة دوجلاس فيربنكس ، ثم شربوا بعد ذلك الشاي مع صرعى التوت ، وقبلوا صفحات «قصص البارون مونيوارن» المصورة . ثم وقف كرافتسوف مع أمه على بسطة السلم يتابعان بنظراتهما الضيفين وهما يشبان في بئر السلم المتلكمة العميقة . ولم يحدث شئ بعدها ، فقد سافرت الأم مع ابنتها إلى موطنهما في الشرق الأقصى . . .

وهما همسا يظهران من جديد في هذا العنبر ، بعد اشد الساعات رهبة في حياة كرافتسوف ، الذي خاض الحرب جنديا في المشاة ، وبالتالي فليس بحاجة إلى الهبوط للجحيم ليعرف ما معنى الرهبة .

أمه هي التي بادرت بالحديث عنهما . والتقط كرافتسوف الخيط . . . فراحا يصنعان بشغف وأندفاع صورة ذلك الزوج الرقيق ، ويتذكران كلماتهما وفرحاتهما ، وضحكهما الرنان الخفيف ، وكيف كانا يحبان بعضهما البعض ، وكما كانا طبييين بشوشين ، مفتوحى القلب للآخرين . وكلمتا أوغلا في التذكر

انهالت الذكريات أكثر ، وكانت تلك اسعد لحظات حياتهما ، لانهما لم يكونا يتحدثان أبدا عن اناس بعيدين ، بل عن نفسيهما ، وعما حدث بالفعل وعما لم يحدث . قالا الآن ما تراكم خلال قرن من الصمت ، وقد حملا للآخرين في خجل كل ما لم يقوله ، كل الاشياء الرقيقة والبانسة والمكبوتة ، والتي ظلت مع ذلك حية تحت غطاء السنين . . .

خلال ذلك اطلت ممرضة العنبر عدة مرات ، ورغم انها لم تقبل شيئا فقد ادرك كرافتسوف ان عليه ان ينصرف . ومع كل ما فيه من كياسة وحرص على عدم ازعاج الآخرين بوجوده ، فقد كان يتأخر في كل مرة عن الانصراف حتى يوشكوا ان يطردوه من العنبر طردا . اما في هذه المرة فقد تحلى عاملو المستشفى بصبر نادر .

وعندما نهض قالت أمه بنفس الحيوية والانشراح :  
- غدا لن نلتقى في الغالب ، سيضعوننى مرة أخرى على طاولة العمليات .

- كيف هذا ؟ . . . - لم يشعر كرافتسوف بأى خوف وقد خدمته نيرتها المرحة .

- عندي نرف . ليس في الأمر أى خطورة ، كل ما هناك انهم تجاوزوا الحد في جرعة الادوية المنشطة . هذه ليست حتى عملية ، لا تقلق . . .

وهما هو في الطرفة من جديد ، تجاوز الجسد المرمى شبه العارى برأسه الذي يبدو وكأنه رأس من طين ركب على الجسد ، ووجد نفسه في البرودة الرطبة لبسطة السلم . وهبط ركضا على الدرجات المتأكله ، فاحتوته الحديقة المتلغفة بالمشاء في احضان خريفها . وبعد ان خرج من البوابة فبلغ طرف فضاء تتسع لم يصبح ميدانا بعد ، عندما فقط ادرك ان الحديقة ايضا ، بأشجار النيقب والدردار والزيوفون ، «شبهة برائحة المستشفى الراضية» .

وقال كرافتسوف في نفسه وهو يتطلع الى زرقاء السماء الخفيفة فوق الفضاء - الميدان : «لو كنت من المؤمنين لكان من الأسهل علي ان اصدق بتكرار معجزة «سارة» التوراتية مع



أما من أن أومن بتفاوت الألباء المعهود . فبماذا لو أنها تتعرض  
لضربة أخرى لنفس العلة ؟ العلة أيا لها من كلمة ناعمة  
مترهلة ! هذه ليست علة بل كابوس البشرية ، والطالع الذي  
ولدنا جميعا تحته . . . وإذا نحن نتحدث ثانية على الدرب  
المعروف إلى القاع ، إلى الجحيم ؟ . . .

لماذا لا يصرخ ؟ لماذا لا تنقل شفتاه بصرخة اليأس ؟  
ولماذا تبقى عيناه جافتين ؟ الكثيرون يمزون بجوارحه فلا  
يستوعق انتباه أحد . وهذا يعني أن وجهه هادئ تماما . بيد  
أن جميع المارة صادفوا الوجه . وهم خارجون من المستشفى  
أو ذاهبون إليه ، وبالتقرب من هذا المكان محطلة سكة حديدية ،  
حيث يفترقون لأجل طويل أو قصير ، وخلف المحطة مقابر ،  
حيث يفترقون إلى الأبد . فإذا ما نظرت إلى المارة خيل إليك  
أن العالم خلو من الناس . وترأي له فجأة أن أصواتا حادة  
رهيبية تشبه الأنين والشبهات والوعيل تنشق الخلفية الصوتية  
المألوفة والمستكنة كالبود ، لسواحي المدينة . كانت تلك  
أصوات الألم الخفية ، وسمع بينها صوته . . . صرخة مخنوقة  
من فم ملهق المشتكين . . .

لماذا يبدو جميعا غير مستعدين للموت ، لو أننا لموت  
الأقربين إلى هذا الحد المنفجل ؟ . . . إن الموت لا يمكن ولا  
ينبغي أن يكون مأساة من حيث أنه شيء طبيعي وحتمي . يبدو  
أن العلة في أننا لا نعيش حتى نصف البعده المقررة . انسا  
جميعا نرحل مبكرا للغاية ، قبل أن نستكمل صورتنا الأرضية  
ودون أن نحقق ذواتنا حتى النهاية في العمل والإبداع والحب ،  
حتى دون أن ندرك جيدا معنى وجودنا . أن موتنا هو موت  
أطفال ومراهقين وقتيان ، ومن النادر أن يكون موت بالغين ،  
ولا يكون أبدا موت شيخوخة إلا في اندر الاستثناءات ، فانا لا  
استطيع أن أسلم برحيل أمي الشابة ابنة الثامنة والسبعين ،  
أذ لم تشجع بعد من الكلام والنظر إلى بعضها البعض والارتواء  
من بعضها البعض . لم نكد نعرف حتى نفترق . . . هذا ظلم  
صارخ رهيب !

وفكر كرافتسوف : إن الإنسان ما زال في البداية . نحن

ما زلنا في أولى مراحل وجودنا . . البدني والخلقي والذهني ،  
إننا نصاب بالذهول من نجاح الرباعين في رفع ستمائة  
وخمسين كيلوجراما في الارتفاع الثلاث ، مع أنه من المفروض  
أن يرفع الإنسان هذا الوزن في رفعة واحدة لو تعلم كيف  
يستغلض القوة الكامنة فيه كلها . لقد رايت شابا مصابا  
بالشيزوفرينيا ، كان تحيلا ضامن الصدر ، يتشاجر في عرس  
ببيت أحد رجال الأطباء . لقد حورت ثوبة الجنون كل مخزون  
القوى البشرية الحقيقية في جسد هذا الفتى الضئيل فأخذ يلقي  
برجال الأطباء المعالة ، وكانهم ققط صغيرة . . .

وصل كرافتسوف إلى جسر العبور المقام فوق السمكة  
الحديدية . كانت هنا محطة لقطارات البضاعة ، وراحت قاطرات  
الحركة تليث وهي تدفع مجموعات من عربات البضاعة الفارغة  
والمشحونة ، وتطلق قبل كل حركة إلى الأمام وإلى الخلف  
صفارات رقيقة تمسرق نياط القلب . وتحت تاتيسر هذه  
الصفارات ، رائحة الدخان الغائقة والدف ، المنبعثة من الخط  
الحديدي . أنهالت عليه الطفولة . لا ذكريات الطفولة ، بل  
الطفولة ذاتها تدفقت إلى لوجتي الكنبين الوزيلتين وإلى صدره  
المكتوم الانفاس . وإلى أطراف أصابعه التي دب فيها بعض  
الخدر . أحسّ بجسده الطفلي وشوقه الطفولي إلى أمه ، فقد  
كانت رائحة المازوت ومخلفات الخبز تذكرا دائما  
بالفرق .

لقد أعاد إليه مرض أمه الطبيعة والأسماء التي يحيلها  
العالم المزدحم إلى ، وطفولته وبكارة الاحاسيس المستهلكة .  
لقد كانت حياته خلال عشرات السنين الأخيرة سينة شحيجة .  
لم يسمع إلى أن يكون عبقريا ، وظل فقط يراوح في مكانه على  
شبهة الحقيقة ، دون أن يتقدم نحوها خطوة واحدة .  
التخصص المهني الضيق هو نهاية العلم الحقيقي . وكان لا بد  
أن تصيبه ضربة هائلة ، تخرجه عن مداره المألوف ، وتعيد  
إلى ذاته صغيرا ، إلى ذاته الراجعة . ذاته المصعوقة من مرأى  
التضباب المبللة أو التردار العجوز . . . لكي يؤدي الغاية  
التي جاء من أجلها إلى الدنيا . لقد توصل إلى ذلك الاكتشاف

الرئيسى الذى بدأ لكثير من ذوى العقول النابغة مستجيلا .  
اكتشف علّة الوجود الاولى ، بداية البدايات ، وجد الاجابة  
على السؤال الذى يعذب الطفل الصغير والحكيم العجوز : من  
اين جاء كل شىء ؟ لم يأتسه الجواب فى تجريدات المعادلات  
الرياضية ، بل فى ايسر الكلمات المفهومة لكل انسان . ولم  
يصله اكتشافه بقدر ما اذهلته بساطته ووضوح ما كان يبدو  
وكأنه سر الاسرار . كانت الاجابة فى متناول الجميع ، ولم  
يكن ثمة ما يثير الدهشة سوى بلادة التفكير الانسانى العاجز  
عن التحرر من أسر الصيغ المعتادة .

وهل نحن نفهم ان قدماء المصريين كانوا يعيشون فى عالم  
ذى بعدين ، بينما لم يعرف الاغريق القدماء مفهوم الزمن ؟  
عندما يعلن عن اكتشافه ستصاحب البشرية بصدمة اقوى من  
الانفجار الذرى . ولكن الاجيال التالية سوف تستغرب وتستعجب  
من اسلافها وكيف امكنهم ان يعيشوا وهم لا يدركون جوهر  
الوجود .

ولو لا مرض امه لما كان هناك اى اكتشاف . ان المعاناة  
تتضمن قوة ابداع هائلة . وقد ايقظت فيه امه بمرضها هذه  
القوة المبدعة . وكانها هى قد فطنت منذ امد بعيد ، بقراسة  
حبها ، الى انه لا يتحرك فى اى اتجاه ، بل يدعى - ذون قصد -  
حركة الفكر . ان التربية فى كثف البرودة ، مع كل ما تكلفه  
من مزايى الصلابة المشكوك فيها ، تحمل فى طياتها خطر تجديد  
يتابع الالهام والتجلى . وعندئذ اقمعت الام على عمل عظيم من  
اعمال الحب لتثقف ابنها .

والآن ، وبعد ان انقذت ابنها من اجل العمل والابداع  
والتفكير ، تزيد ان تعيش . آمن العقول انه غير قادر على  
رد الجميل لاهم بعمل عظيم مثل عملها ؟ لا يجب ان تترك لتواجه  
المرض وحدها بقواها المبهكة .

وفكر كرافتسوف : «الآن جاء دورى ، سوف تغلب على  
الموت معا ، يبقى فقط ان نؤمن كل حين ، كل ايماننا ، كل  
احتياجنا الى بعضنا البعض وكل استحالة حياتنا بدون بعضنا

البعض ، كل ذكرى الماضى ، وكل مغزى الحاضر ، والاهم ،  
كل مغزى المستقبل» .

- سوف تعيشين يا ماما . . . - قال كرافتسوف بصوت  
مسموع فى الخسق المتلبد الرطب الذى اخفى الضبابان وبرج  
المياه والعربات ، وكانها كان يوسع امه ان تسمعه .

وبعد ان عبر كرافتسوف الجسر الحديدى التفت . على  
زاوية صغيرة ، فوق اشجار الدردار العتيقة ، لاح سطح  
المستشفى الداكن فردد كانها يردد رقية او صلاة او امرا :  
- سوف تعيشين يا ماما . . .

استيقظت زوجة كرافتسوف فى وسط الليل وقد داهمها  
قلبي غريب . لم يكن زوجها بجوارها . ولم تشعل الضوء فقد  
رأته على الفور واقفا يقامته الطويلة النحيلة عند النافذة . كان  
يعانى فى الفتسرة الاخيرة من الارق ، لكنه لم يكن يعترف  
بالحبوب المنومة ، وقف فى ردائه البشكير القديم وهو لا  
يحول بصره عن النافذة المظلمة . وخيل اليها ، ربما بسبب  
النعاس ان رأسه يرسل اشعاعات خضراء ضعيفة ، وكان الهواء  
مشبعاً بالاذون مثلما اثر عاصفة رعدية قوية ، فأتى عاصفة  
يمكن ان تهب الآن وسط هذا الخريف الكئيب ؟ واطلقت  
ذفرة ثم اغمضت عينيها .

وظل كرافتسوف واقفا بجوار النافذة شاحذا قواه ضد  
الموت . . .



## كيف تم شراء الغابة

(رواية)

توقف جفوتوف فجأة ، رافعا رأسه الثقيل ، جانبا ، كحصان  
كاد مضطلم بسمياج البيت . فمن نوافذ الطابق الثاني المواربة  
تردد من جديد صوت ربة الدار الغليظ العميق ، الذي كان  
المعزف يطفئ عليه أحيانا :

لن يدرك إلا من عرف

حينئذ اللقيا

كم تعذبت

وكم تتعذب . . .

كانت هذه الكلمات وهذا الدخن قد علقست بأذني  
جفوتوف خلال الأيام العاضية ، ولكنه لم يلاحظ إلا الآن أن  
ربة الدار تغنى عن نفسها وكأنها رجل : « كم تعذبت » . وقال  
في نفسه إن هذا صحيح . فقد كانت السيدة ناديجدا

فيلاديتوفنا تشبه الرجل حقا بطبعها ، وعودها الجاف القوي ،  
ووجهها القاسي الملامح ، وصوتها ، وطريقتها في تصريف  
الأعمال بغفرتها السديدة وتعديدها القوي لجوعه الأمر .  
ولكن صوتها ، الغليظ بالنسبة لامرأة ، كان فيه نبرة  
رفيعة ، الأمر الذي لم يكن جفوتوف يظن أنه كان يجب  
الاصوات « الباهة » ، وفي سنوات صباه كان هو نفسه يغنى  
بصوت باهق نقي طازج في جوقة المنشدين بالكنيسة .  
لكنه أصيب فيما بعد بنزلة برد نسى زوره ففجّ صوته ،  
علاوة على أنه أصبح في شغل شاقف عن الغناء . وعلى العموم  
فلم يزعه صوت المغنية بقدر ما أزعجته هذه الاغنية  
المكررة يوما بعد يوم ، والتي كان وكيل الأعمال فاسيل  
سرجيفتش يسميها « رومانسة » . ترددت خلف النوافذ  
العالية شبه المفتوحة نظرا لدخول بحرارة أكتوبر غير  
العادية ، عندما عاد صبي المراسلة من مكتب البريد .

كانت السيدة تنتظر رسالة ما ، ولكن الرسالة لم  
تصل . وفي البداية لم يلق جفوتوف بالا إلى هذا الأمر بحكم  
العادة التي تاصيلت فيه مع السنين ، عادة التفكير في أموره  
وحدها والتفصل من هموم الآخرين ، كان قد اتفق مع وكيل  
أعمال السيدة فون ميك - الذي سبق أن تعامل معه بما فيه  
فائدة للطرفين - فأسرع بمقابلة قريبته « زاترايزوفكا » ،  
ولكنه علم عندما سمعته أن السيدة « معتلة المزاج » وأن  
الحديث الذي كان يسعى إليه قد تأجل إلى أن تحين فرصة  
أفضل . ولم يدعشه ذلك وبالطبع لم يش قلقه . لقد اعتاد  
جفوتوف خلال ربع القرن الذي أمضاه في عقد الصفقات  
الشخصية : شراء الغابات والأراضي ، والضياع المهملية أو  
المفلسة ، والأروش الصغيرة التي لا تدر دخلا والمعامل  
الغاسرة ، اعتاد طبايع اللجباء وعلية القوم المتقلبة الغريبة ،  
وكان يعرف أن أنجح وسيلة لمقاومة نزواتهم هي الصبر  
والجلد .

تحويل للتسمية الصحيحة « رومانس » وهو لون من الألاني  
العلمية كان منتشرا في القرن التاسع عشر . **البحري** .

صحيح ان ناديجدا فيلاريتوفنا بدت له مختلفة عنهم ، فقد كانت صريخة ، حازمة ، متمسكة بوعدها . وليس عبثا ان اطلقوا عليها في عالم رجال الاعمال «رجل في ثورة» . ولكن الظاهر ان الرجل في ثورة ليس رجلا حقيقيا . ففي هذه المرة كان سلوكها غير عملي على الاطلاق . بالطبع ليس هو ، جوتوف ، الا عظمة سوداء ، عبداً من عبيد الارض الاثنان بالامس التريب . وأين هو من آل فون ميك وملايينهم . ولكن لو حاله التوفيق في هذه الصنفلة ، فربما تخطى فون ميك ذاتها . والشئ المهم - وقد داعبت هذه الفكرة روح جوتوف العجمة وودعتها بصورة غريبة - انه سيبحث مكسبا لا بأس به من مد السلك الحديدية ، اي من ذلك العمل الذي عاد على المرحوم المهندس فون ميك بملايينه في زمن قصير بصورة خرافية . صحيح ان جوتوف لم يكن يتوى مد الخط الحديدي بنفسه ، فوضعه لا يؤمله لتولى مثل هذا المشروع الكبير . فلم يكن يقرأ الا بجهد . ولا يجيد من الكتابة سوى التوقيع ، ولكنه في المقابل كان ملما بالحساب بصورة رائعة . وعموما فليس مد السلك الحديدية بالأمر العويص ، ولكن الحصول على امتياز المشروع في بترسبرج شئ آخر . من اجل ذلك ينبغي ان تكون لا ايفان جوتوف الفلاح ، بل فون ميك النبيل ، او شريكه فون ديرفيلز . لا بأس ، تكلمنا فلنكلم القضاة لنأخذ نصيبنا ولكن ذلك يتطلب قيل كل شئ شراء الغابسة . وليس اي غابة ، بل غابة ناديجدا فيلاريتوفنا ، القريبة من ذلك المكان الذي سيس الخط الجديد عيسره . وينبغي شراؤها اليوم ، قبل ان يتسرب لها المشروع الى أحد آخر ، بما في ذلك فون ميك نفسه ، قبل ان تنفذ أسعار الخشب الى أعلى من أعلى مستوية .

لم تكن قيمة غابة فون ميك تكمن في قريتها من مكان المشروع القادم فحسب ، بل في تميزها بميزة خاصة . إذ كانت غابة في عز أوائها ، منتقاة الاشجار ، جذيرة بأن تصنع منها صواري السفن لا قلنكات القضاة ! بل انك لن

تجد غابة مثله لا في المحافظة كلها ، بل في جميع الاراضي المجاورة بأسرها . وجلب الخشب من مكان بعيد يعنى فقدان نصف المكسب . فاذا أضفنا الى ذلك الرشوة الضخمة مقابل العطاء ، فان هذه الصنفلة الخرافية المكسب - التي لا يترأى عليها الا في الاحلام - تصبح قليلة الدخل . وتسبب من الجهود والمشاكل ما يجعل من الافضل الاستغناء عنها . كلا ، ينبغي شراء غابة فون ميك ، خاصة وقد طلبت فيها ، سعراً متساهلاً للغاية . ذلك بفضل جهود الوكيل فاسيلي سرجيفتش . كسان السعر معتدلا الى درجة ان ايفان بروكوفيتش جوتوف ، وقد قضى يوما او يومين يستمع الى «الرومانسة» المؤثرة ، عرض من نفسه زيادة طفيفة على السعر ، كما وعد الوكيل بزيادة مكافاته . ولم يكن ذلك راجعا الى فقدان صبره بل لأن كل يوم يمر كانت له قيمته . كان يخشى المنافسة ، وخشى ما يخشاه ان تعرف فون ميك نفسها بأمر المشروع . وفي نهاية الاسبوع بدأ يرتاب جدوا في ان تكون شائعة ما قد تسربت الى علمها . ربما كانت الرسالة المنتظرة مجرد ذريعة لكسب الوقت والتحرر عن الامر ، وربما كانت المسألة أبسط من ذلك ، إذ كان على الرسالة ان توضح الامور فيما يتعلق بالغابة .

صحيح ان الوكيل فاسيلي سرجيفتش غمغم بكلمات ما عن شئون قلبية لصاحبة الدار ، ولكن جوتوف لم يمر أهمية تلكامته . لم يكن يجب التفرقة الفارغة عن مسائل لا تخصه ، وعموما لم يكن يجب سماع الشائعات الملتفة عن الناس ، فلم يحض عام على وفاة زوج ناديجدا فيلاريتوفنا ، كارل فيودوروفتش فون ميك المجيد ، الذي جمعت هذه الثروة الخيالية ، وليس من الجائز لها ان تفكر في أحد غيره ، وهل من الممكن ان يوجد من يضاهي المرحوم ! لا يوجد ، اللهم الا شريكه فون ديرفيلز . كما أنها ليست في سن تسمح لها بذلك ، فهي تقترب من الخمسين ، ولديها اسرة ضيعة ، وبشأنها ، لا حصر لها . كلا ، ليس ما تفوه به الوكيل سوى حماقة . ولكن ماذا لو أنها ليست حماقة ابداً ، بل



مكراً ؟ اليس من الجائز أنه يقرر به بالاتفاق مع سيده ؟ وفي تلك الاثناء تحاول هي الاتفاق مع أحد غيره ، او تكون ، وهذا هو الاسوأ ، قد اتصلت سرّاً بمهندس السكك الحديدية ؟ الطيور على اشكالها قطع . وربما تضم فون ميك رائحة التضببان من على بعد مائة فرسخ . فكل ثروتها ، وكل أموالها تفوح منها رائحة قطران الفلنكات والزفت ودخان القاطرات .

انظر في المدي . . لا استطيع  
وتنظم العيون .  
قيم احبتي ؟  
أين تراه ؟ . . بعدت خطاه . .

لم يكن في صوتها خداع . تردد صافيا ، قويا ، حزينا . وقرر جفوتوف في نفسه انها تحسن الى زوجها الراحل . السادة والاربعة هي فترة الازدهار الاخير في عمر المرأة . . . ولكن هذه الفكرة لم تحمل له الاطمئنان المنشود . بقيت اذن الرسالة ، الرسالة الغامضة . التي كانوا لا ينتظرون جهور ساعي البريد بها فيرسلون كل صباح الى مكتب البريد بالصبي الاحمر الشعر والامش الوجسه فانكا ، ابن النامية والحاجب . كانت الرسالة تثير قلقه . ان كارل فيودوروفتش لن يرسل باخباره من العالم الآخر ، وخاصة عن طريق البريد ، وای اخبار من العالم الآخر يمكن ان تنتظرها هذه الارملة الترية بمثل هذا القلق والالم ؟ من الصعب ان يتصور ان ارملة كارل فيودوروفتش يمكن ان يميل قلبها الى شخص آخر بعد هذا الزوج الذي لا ينسى . اوه ، يا لسواد المياه ! . .

قطع جفوتوف الفناء وخرج من البوابة . وامتد «بولغار القيامة» امامه ملتويا ، مغطى بالاوراق المذمبة . كانت الاوراق تجثم في الهواء وتسقط على الأرض التي لم تزل خضراء العشب وعلى الدروب المليسة . وعيق الجو برائحة غريبة على المدينة ، رائحة الاوراق والعشب والترتبة

الساخنة ، وسبغت خيوط عنكبوت في الهواء وسبت وجه جفوتوف بريق . وانغض عينيه فاختفى من امامه تماما كل ما له صلة بالمدينة ، فاحت رائحة الأرض والعشب والقابة بقوة . وفي وهي جفوتوف شبه المخدر تمالىست حسيورات غابته الساحة المستقيمة . يا إلهي ، ليس هناك غابات كهذه في وسط روسيا كله . أين أنت يا غابات الماضي ؟ لم يبق غير اشجار نغرة وشجيرات وليدة تشرع في الجفاف والذبول قبل ان تبلغ نضجها . اوه ، اي غابة تنتظره على آخر مسن الجور ، غابة عملاقة ، حسناء ، حلم ، وهذا هو عن الاوان لقطها ونشرها الى فلنكات ! . . .

«سأزيد سرجيفيتش خمس «بجعات» اخرى علاوه على اتفاقنا الاخير وليحدد لي اليوم حالا» وعاد مسرع السيد - قرر جفوتوف وهو يمسح من على وجهه خيوط العنكبوت اللزجة الناعمة . وأمس كأنما انزاح عن صدره حمل ثقيل . فعندما تقدم على الاتفاق يصيح كل شيء سهلاً ، متاحاً . وعاد جفوتوف الى الفناء . على فحة زيرفونة عجوز صاح بصوت زجاجي حاد لقلق أزرق لسم يهاجر بعد الى البلاد الدافئة ، وكان يعود كل ربيع الى هذه الشجرة ذاتها كما يقولون . وهر جفوتوف يجذر بعيدا عن الزيرفونة حتى لا يثير عليه النقلق . فهذا الطائر الكريه ، اذا لم يرق له شيء ما ، ينفذك من أعلى بسائل لزج لا تستطيع له بعد ذلك نفساً او كشفاً . لقد قلبت شمس الصيف المستمرة حتى الآن كل ما في الطبيعة ، فازدهرت اشجار الكرز من جديد في عبق الفناء . كذلك يبدو ان الانفجاس يشك ان يتفجج ثانية ، وظهوت بين الاعشاب ازهار صينية ميكرة صفراء وزرقاء . اما النعام فانه يهدل هديلاً صاخو الشهوة يكاد يسم الاذان . لقد شملت الفوضى الكون ، فازعج هذا جفوتوف كما يزعجه كل خروج عن التواعد . قيم يفكر العملي

\* اي خمس ورقات مالية من فئة المائة روبل في روسيا القيصرية . المحرر .

القدير ؟ إذا كنت قد وضعت القوانين فلتعمل على أن يتبعوها ! . .

وبعد توجيه هذه الملاحظة للرب توجه جغوتوف الى الجناح الذي كان ينزل فيه الوكيل عند حضوره الى موسكو . اما أسرته فقيت في اوكرانيا ، بالقرب من املاك فون ميك الرئيسية . كان فاسيلي سرجييفتش يتناول طعامه في مطعم الغد ، بالرغم من حقه في تناول طعام السادة . ولما كان يتحدر من الطبقة الوسطى لسكان المدينة فقد اوسع بالاطعمة الروسية البسيطة كحساء الكرنب بالفطر والعصيدة والبطاطس المهروسة بالفرن . . . وكانت الطاهية ، ام حامل الرسائل فانكا ، تعد الطعام بصورة رائعة . ولهذا فقد كان جغوتوف ايضا يتغذى في مطعم الغد رغم كل محاولات الوكيل لثنيه عن ذلك ، ولكن ساعة الغداء كانت ما تزال بعيدة ، فراح جغوتوف يفكر اين يبحث عن فاسيلي سرجييفتش ، واذا بقاعته الطويلة المهيبة تثيق فجأة عند حظيرة المركبات . لم يخرج الوكيل ممن هناك ولم يمر عبر الغداء ، والا للمح جغوتوف قبلا . كانت هذه القفزة السحرية على الظهور من الهواء ، كالصقور ، لدى هذا الرجل الضخم الواضح الاناقة تفعل الكثيرين .

كان الوكيل يرتدي سترة طويلة من جوخ انجليزى غامسق وسروالا من نفس القماش يتدلى على قنطرة حذاءه الجلدي الطويل ، وصديريا بصف واحد وبأزرار تصفه الى الصدر ، وقصيصا من تسجيح بالغ الرقة ، ورباط عنق حريريا اسود . صورة طبق الاصل لنيل من نيلاء موسكو ! وعندهما راي جغوتوف ابتسم وجهه الممتلئ الخلق المائل الى الطول ، بساقيه الغريزيين الكتفائين ، وتقدم لملاقاة التاجر ، وقد باعد قليلا بين ذراعيه البفتين الناعمتي اليدين ، وهتف الوكيل من بعيد مبتسما يفرح :

- صباح الخير يا ايفان بروكوفيتش الموقر !  
لم يكن ثمة اذى زرف في ابتسامته الصريحة وحر كته السحجة الباشة . كان بالفعل يحترم ايفان بروكوفيتش ممن

صميم قلبه الذي وإن لم يكن منزها فهو ليس بحاقدا ابدا . ونظر الوكيل الى قامة الضيف الغليظة القصيرة الخرقاء ، المكتسية رداء طويلا حتى عرفويه بشبه القفطان في تفصيله ، والى مندبل رقبته الباتسنة السود من العرق ، والى عمرته العالية السوداء التي تكسل رأسا كبيرا كالقدر ، غائصة بين الكتفين ، فازداد اعجابا به حتى ملا صدره . وقال فاسيلي سرجييفتش في نفسه : يا إلهي ، لم يكن يلبس على هذا النحو سوى بانعي الخمر في الحانات في ايام صباي ! لو قدرنا قيمة كل ما عليه ممن ملابس لما بلغت قيمة هذا المصنوع بالتوصية . اما في منزله فيو يخطر فسي قيص مزركش من تسجيح يدوي مسدل وسروال مسطوط ، مثل اسطى من اسطوات موسكو . فماذا اساور انا الى جانب . بكل عظمة ظهري ؟ بوسعه أن يطويني كالورقة ويدسني في جيبه . ممن زمان جمع مئات الألوف ، وهما هو يسعى الى البليون . اما انا فامك ، واتحاي ، وادور كنور في ساقية . واتلوى واتلص دون أن اجمع ما يكفي ولو للبدء بمشروع خاص صغير ! مع أن الله . على ما يبدو ، لم يخل عني بالعقل أو حسن المنظر . وهينى حاسة معرفة الناس ، ومع ذلك . . فانظر ماذا يعني أن تبدأ من الصفر . كان المرحوم والذي يدير عمله جيدا ، ولكنه أقلس في النهاية وترك أسرته معمة . اما والد جغوتوف ، وأن مات عبدا ممن عبيد الأرض ، فقد اوصى لكل من ابنايه الاربعة بنزوة ، فدارت عجلتهم . بالطبع ايفان بروكوفيتش اسطر من ابنته واقدار منهم بكثير ، وقد خلقتهم بعيدا وراء ظهره ، رغم انه الوحيد بينهم الذي لم يترك بيته الريفي وينتقل الى المدينة . وهكذا ظل مقبعا في «قصر» أبيه ذي الارضية الترابية والجزر الغائق والرائحة العفنة والصراخ . بينما يمسك ثلاث ضياع رائعة ، وفي احدها قصر سادة حقيقي باعمدة ، ولكنه لا يتعجل الانتقال الى هناك بأسرته الكثيرة العدد . وربما بلغ جغوتوف ما بلغه من فجاج لانه لم يفره المسكن الفخم ، ولا الملابس العصرية . ولا الخمر المعتقة او «غيرها من اباطيل الدنيا» كما تغنى السيدة ناديجدا فيلاريتوفنا في وومانسة

رائعة وضع موسيقاها الموسيقار الموسكوفى تشايكوفسكى  
الذى اكتشفته هى مؤرخاً .

اقرب جغوتوف من الوكيل ، ونزع عمرته ودسها تحت  
ابله ، واخرج من جيبه قطاذه المتيق منديلا جريزياً . مسح  
به جبينه الذى دب فيه الصلغ وبقيت فيه شعرات خفيفة  
فاتحة . ثم دس المتديل وارتنى العمرة تاركاً على مقدمتها  
اللامعة اثر بصمات اصابعه الداخسن المتلاشى . ثم قرب  
وجهه العريض الوجنتين ، الاسمر ، الواسع المسام من اذن  
الوكيل ولفظ بضحكلمات بصوت ابح متحشرج .

وبعد الوكيل بين يديه الناعمتين المعتشى بهما ، واللتين  
كان يتعصهما يوماً في الخلل ليحافظ على بياضهما النبل ، وقال :  
- يا إلهى ، ماذا تقول يا ايفان بروكوفيتش الكريم !  
سأذهب ، طبعاً سأذهب ، ولكن صدقنى ، لن تكون هناك  
فائدة من سعي . إننا لا نطاول لزيد السعر ، صدقنى هنا  
سيد جغوتوف ! ان اهم شئ عندى هو ثقتك بى . وأمل الا  
تكون هذه هى المرة الأخيرة التى . . .

فقاطعه جغوتوف :

- طيب ، دعنا لا نتطلع الى ما سيكون غداً . هيسا  
نسوي حساب اليوم . لا أظن انها قضت عقلها . فلتشرح  
لها كما ينبغي ، قل لها ان المشتري لا يستطيع الانتظار  
اكثر من ذلك ، فاعماله متعطلة ، وأحواله واقعة ، واسرته  
وحدها هناك ، وإبناؤه يكون .

- كل هذا قلته اى اليوم الثانى بعد عودتهما من  
إيطاليا . وبالأس اسألت الموضوع ، ولكن جوابها  
واحد : لا وقت عندى الآن للغاية .

فقال جغوتوف باقتضاب ودون أن يرفع صوته :

- اذهب ، لعل الله يشعلنا برحمته .

تهد فاسيل سرجيفيتش مهموما . كان حريصاً على منصبه  
كوكيل اعمال ريخى أن يثير غضب السيدة ، ولكنه كان  
يقدر وضع ايفان بروكوفيتش ، ويقدر وضعه هو أيضاً ،  
اذ أن تتاح له فرصة مثل هذه . بالنسبة لبروكوفيتش ربحاً

تستحق فرصة أخرى ، بل وعلى الأرجح ستستخرج . حتى لو  
كانت اقل ربحاً من هذه . فسوف يحصل على نصيبه على اى  
حال . أما هو ، فاسيل سرجيفيتش ، فمن المستبعد ان تهيه  
الحياة مثل هذه البديدة مرة ثانية . وسواء أراد ام لم يرد  
فعليه أن يذهب . . .

تثقل الوكيل خلال عمره بين أماكن كثيرة . ولم تكن  
حياته نى اى مكان أفضل ولا اصعب مما هى عليه لدى فون  
ميك . كان راتبه ومعيشته أفضل بما لا يقاس ، كما أن ثقة  
السيدة الحكيمه كانت تغض الطرف فى صمت عن تلك  
الجباية المتواضعة التى يقتطعها الوكيل من دخل الضيعة  
لحسابه الخاص . كان هذا يناسبها ، وكان فاسيل  
سرجيفيتش يعرف انه طالما لم يتخط الحدود ، فيوسعه ان  
يكون مطمئناً . وكان يقدر راحة البال مثلما يقدر النقود .  
وفى حقيقة الامر فما كان ليقدّر النقود الا لأنها تضمن راحة  
البال اكثر من اى وسيلة أخرى . غير انه كان لدى فون ميك  
الكثير من الشواذ الغريبة الصغيرة التى كانت تنغص حياة  
القائمين على خدمتها بأشد ما تفعل العظام الكبيرة أحياناً .

كانت تطالب لا الخدم والوصيفات فحسب ، بل ومدير المنزل  
والوكيل نفسه بأن يسيروا بخطوات لا وقع لها . ومعاذ الله  
أن يند عن خطواتك اى وقع ، ناعيك عن أن يتروذ ديبها .  
صحيح ان السلام والطراقت وجميع الغرف ، ما عدا القاعة ،  
كانت مغطاة بالسجاد الشريفة والأسطلة الطويلة التى  
تخفف وقع الخطوات ، ولكن أليس من الجائز أن يصر النعل  
أويقتى الهواء فى رقة الحذاء ، عدا انه من السهل ان تزل  
القدم عن البساط فتطأ الارضية الباركيه أو درجات السلم  
البولطية . وكان سمع ناديبدا فيلايتروفنا حاد الرهافة .  
كانت تسمع أضعف هسيس عبر الجدران والأبواب ، فيتجهد  
فكها الأسفل على الفور . وعندئذ لا تحاول أن تتوجه إليها  
بتقرير أو رجاء أو خبر هام . وكان يشير جنوبها بصفة خاصة  
صوت اصطفاق الأبواب . فكان ينبغي فتح الأبواب وغلقها  
بعث لا يند عنها صرير بعوضة . وحسب قول الوصيفات

فقد كان تنظيف غرفتها غذاءها ما بعده من عذاب ، وقد نجا فاسيل سرجييفتش من هذه المصائب بفضل منصبه ، إذ كان يقضى معظم الوقت مثقلاً ، ولم يكن مقيماً بصفة دائمة بجوار ناديجدا فيلاريوتوفنا ، بيد أن كثيراً من الممنوعات كانت تسلمه هو أيضاً ، ممنوع أن يتنفس بصوت عالٍ ، أو يشرب بآلئه ، أو يسلم ، أو يمشط ، أو يصدر هدير عن أمعائه ، أو تفوح منه رائحة حساء الكرنب ، أو البصل ، أو العجين المخبوز ، أو الزيت النباتي ، أو البيرة - ناهيك عن المشروبات الكحولية ، أو التبغ أو الكهف - والمقصود بذلك أي رجز قد يعلق بك من حيث لا تدري ، فيلتفت أنف ناديجدا فيلاريوتوفنا المرمف راحته على الفور . وكان القائلون على خدمتها لا يتفكرون ينظفون أفواههم ، ويمضغون الياسيتيليا المنعشة أو الأعشاب الزكية ، ويتعطرون بالكلوتيا التي كانت الفراشة تصرفها لهم شهوياً . وقد تبدو مثل هذه الأشياء بسيطة ، تافهة ، وماذا تكون هذه الأمور الفارغة بالنسبة لهؤلاء الخدم ، أقنان الأسس ، الذين ذاقوا الجلد بالسياط والعصى وتحطيم الأسنان بالكلمات ، ومع ذلك فلم يكن الخدم يكونون طويلاً عند ناديجدا فيلاريوتوفنا ، رغم أنها نادراً ما كانت تطرد أحداً ، اللهم إلا إذا ارتكب معصية نكراً ، كالسرقة أو غواية الوصيفات أو السكر والغريفة . وإنما كانوا يهربون لأن اعصاب هؤلاء الخدم عبيد الأسس ، كانت ضعيفة لا تتحمل هذا التوتر المستمر ، فكانوا يضعون بالراتب الممتاز لكي يحتفظوا بأهوائهم وعاداتهم بل ولمجرد فراغ البال ، أما في جوف الأمر فمن أجل أن يحتفظوا بشخصياتهم . لكن فاسيل سرجييفتش لم يكن مستعداً للتضحية بمركره وراتبه ، إذ كان يقامر مقامرة كبيرة ، فأذعن للنظام العديدي دون تذمر . عندما اقترب فاسيل سرجييفتش من الدرج الأسود المظفي من القناء إلى مخدع السادة ، شهد قامته فاحس باستجابة العضلات المرنة وقوة المفصل ، وحرك قدميه عدة مرات ليلبثها ، وفرقع بأصابعه متخلصاً من الضوضاء

الزائدة المحتملة في الجسم ، ودس في يمه قطعة ياسيتيليا ومضغها بعناية ، ثم أضفى على وجهه تعبير احترام رزين وعلى قامته حياة المهابة ، وتسلسل من الباب وكأنه روح أو شبح ، دون أن يحرك تقريباً مصراعى الباب العواردين ، وصعد أو بالأحرى سما إلى الطابق الثاني ، وأصاح إلى الهدوء الذي كان محسوساً يملأ هذا البيت الكبير الجميل كله ، قسمع هسيساً ضعيفاً في الصالون الصغير الذي كان يقوم فيه معزف السيدة المنفل ، المصنوع من خشب الورد - وخمن أكثر مما سمع صوت غطاء المعزف وهو يفتح بركة . نعم ، إنها ناديجدا فيلاريوتوفنا تنوى أن تعزف من جديد . لا يبقى أمامه سوى شيء واحد : أن يتجسد في مكانه دون حركة . وهذا ما فعله فاسيل سرجييفتش ، ومع ذلك فقد جعلته نغمة عالية مفاجئة تنتفض بشدة ، ولأم نفسه على ضعف اعصابه ، ثم تحول مرة ثانية إلى تمثال ، ولكن المعزف صمت بعد النغمة الثانية ، ثم صفق الغطاء بشدة ، ومن جديد لم يستطع الزكيل أن يكبت الرغبة . والجدير بالذكر أن ناديجدا فيلاريوتوفنا كانت تبيع لنفسها أي صخب . ودلله سمعه المتوتر على أن ناديجدا فيلاريوتوفنا قد مضت إلى غرفة مكتبها ، فسلم فاسيل سرجييفتش أمره إلى الله في سره ، وانزلق على الطرقة وخربش بظفره باب المكتب .

- ادخل ! . . . - تردد صوت فون ميك العاد الناقد الصير . . . كانت واقفة إلى النافذة ، ممسكة بطيات قميص الستائر السميك بأصابعها الطويلة النحيفة المخصوصة الظافر ، ولم تلتفت إلى الداخل وهي تعلم من هو الأمر الذي لم يشك فيه الزكيل إطلاقاً ، كان الخدم يقولون أن ناديجدا فيلاريوتوفنا "تري يظهرها" .

- اسمحي لي أن ابغلك . . . بخصوص . . . السيد جفوتوف .

- أي جفوتوف ؟ - قالت ناديجدا فيلاريوتوفنا بصوت



بعيد غير مأوف ، وكان في نغمة صوتها شيء جعل قلب الوكيل المهوم ينشأ لحظة بدقصة قلبي طيبة نحو هذا الإنسان الغريب عنه .

— لقد سبق أن ابلغت سعادتك . . . الذي يريد أن يشترى الغاية . انه يعرض الآن آخر سعر . . . ويرجو أن يملك انه بعد ذلك . . .

— اخرج — قالت فون ميك وكأنها استقلت شيئا .  
لم يفهم الوكيل فسأل :

— ماذا ؟

— اخرج من هنا ! — قالت ناديجدا فيلاريوفنا بصوتها المألوف القوي .

وانسحب الوكيل متراجعا وخرج . . .

وفكرت ناديجدا فيلاريوفنا وكأنها تستيقظ من حلم :  
« عم ! يتحدث . . . غابة . . . أي غابة ؟ أه ، الغابة . . . يا إلهي ، وما شأنني بالغابة . . . كم هو وحيد كل من يحيا في هذه الدنيا . طالما تسير اموره جيدا فهو عزيز على الجميع ومرغوب فيه . خاصة اذا كان قادرا على منح الآخرين التقود وسبل الراحة والاعتماد والرعاية وكل منفعة . عندئذ يحيطه الاقارب والاغراب بالتدليل ، ولكن عندما تسوء حاله ، ويدركه الاضطراب والحيرة وعذاب الروح ، عندما يصبح قلبه مشغولا بعذابه الخاص ، عندما لا تمتد يده بالاحسان ، يصبح وحيدا ، في الفراغ ، يتحول عنه حتى الاطفال ، المفعمون بأنانية الطفولة ، ويفقد اهتمام الاقارب ومن يدعون بالاصدقاء . أسوأ انواع الطغيان ، وحتى الخدم ، الذين لا يخدمونك الا بالدرجة التي يجبرونك بها على خدمتهم . الا يعرف هذا الوكيل اللص والمرتشى اننى لا استطيع ، ولا أريد . ان افكر في الاعمال ، وفي غابة ما يريد ان يبيعها برخص التراب لمعتال آخر ، لكى يضع في جيبيه رتبة دسمة ؟ ومع ذلك يلج عليّ الحاحا غريبا منذ ذلك اليوم المشؤم الذي عدت فيه من المستشفى فلم أجد رسائل . حسنا ، دعيك منه ، هذا النافخ ! . . . وما شأنني به اذا

كانت نحلي يوليا ، ابنتي وصديقتي ، لا تدخل عليّ دائرة خواني ، مادة يد العون ، واذا كانت ميلوتسكا الصغيرة تنظر اليّ بمعنى ذئب ! ربما كانت تفوح من المعذبين رائحة خاصة تجعل الكائنات الحية الأخرى ، حتى قنينة الادراك مثل ميلوتسكا ابنة الاربعه اعوام ، تشم منها العنابية ومرض الروح . فتبتعد عن المصداق في تقزز وخشية ؟ . . . اين اختفت كل اولئك الغادات والوصيفات والعريسات والحاضنات اللواتي كن يملأن المكان ؟ ذبن مثل العقارب مع أول صيحة للذئك . احتقا تتبدى صيحة الاله المحبوسة في الصدر وفي الحلق بهذا الوضوح ، لدرجة انها نقلت الى قلوبهن الضميلة المطورة ؟ . . .

« بيوتي ايليتش ، يا صديقي العزيز ، ماذا فعلت بي ؟ وبفئسك ! . . . » قالت في سرها مخاطبة صورة تشايكوفسكى الصغيرة التي رسمها على الخزف رسام الممنعات الماهر سيفاستيانوف من بلدة مستيرا . كان وجه بيوتر ايليتش المرسوم بخطوط دقيقة في اطار لحية ونظما المشيب تهتل بزورق يكاد يكون ملائكيًا . بشرة وردية رقيقة ، وشفتان قانيتان ، وعينان لامعتان بالزرقة ، تتدفقان حيوية وفي الوقت نفسه مرهقتان ، لا تعرف ان كانت نظرتهما راجية أم مذنبه . . . هذا الوجه ظل على الهامه وروعه حتى تحت ريشة رسام مستيرا الحاذق « الضميلة » . مثل هذا الوجه كان ينبغي ان يعمله ذلك الانسان الذي اُلف كونه شرتو البياض الاول « فرانسيسكا دا ريميني » ، اللذين يجسمان بين العاطفة المشبوبة والحزن ، بين الاعجاب والتنبؤ بالهلاك . ولكن مالها والمظهر الخارجى لخالق هذه الموسيقى ! فعنى لو كان قبيحا ، أسود الوجه ، أحول ، أجدب ، لفسا كان اعتجافيا به وتبجيلها وحبا السامى الملهم له اقل درجة . وفجأة دفعها قوة ما بعيدا عن النافخة . ولم تشأ ان تعترف

\* فاننا نرى نيمفولية استوحاها تشايكوفسكى من الكوميديا الإلهية « لاداتي » - (التشيد الخامس من الجيجي) « الهروب » .

لنفسها بأنها تدرك قوة ومغزى هذه الدفعة التي جعلتها تقطع الغرفة ، وتفتح باب الصالون الصغير على مصراعيه ، وتمز عبره في مسار متعرج غريب ، وهي تنعكس في مرايا وزجاج الأبواب العالية المسند عليها قماش الستائر السميك من الناحية الأخرى ، وترى نفسها في هذه الانعكاسات كضربة فرشاة قوية أو تداخلًا بين المساحات اللونية ، أو بقعًا ملونة ، وذلك حسب المكان الذي كان يتعكس فيه قولها الطويل المستقيم ، في فستان منزل أخضر فاتح زهردي ، نصفه السفلي مرسل من الأمام ، ومشدود في تكسرات من الخلف . وكان الحزام ذو الأبريز المعدني يساعد على استقامة عودها المائل إلى النحول . وكانت تعرف كيف تبدو ، وتحسن ذلك بجسدها أكثر مما تراه في انعكاساتها المرعزعة المتواترة على الأسطح الصقيلة . وجدت أمام العزف ، وكان عليها أن تقرب وجهها تماما من غطاءه اللامع لترى وجهها يرم نحوها منه . رأت جبينًا عاليًا صافياً ، مسننه تعجيدتان أفقيتان خفيفتان ، وخدين شاحبين ، وفمًا ضيقًا دقيقًا الشفتين ، وفكا سفليًا غير مكتمل ، لا يتناسب والوجه الكبير ، وعينين كالفتاح . . . سوداوين ، تقبعان هادئتين واستعيتين في مجرى مظللين ، عينين براقيتين بديعتين لا تكادان تبصران ، كان عليهما ، لكي تبصرا الشيء ، أن تبتلعاه تقريبا . هاتان العينان اللتان لا فائدة منهما تقريباً ، كانتا راغبتين ، وهما اللتان اتقدتا وجه ناديجدا فيلاريثوفنا وسميتهما به .

كان ما تنقله هاتان العينان لصاحبتها عن العالم المحيط جد قليل ، مما جعل حواسها ، وخاصة السمع ، تبلغ حداً مذهشاً من الرهافة لتعرضها عن هذا النقص . وكانت الطليعة هي التي وهبتها ملكة السمع المزهف بالطبع ، ولكن فون ميك نمته إلى هذا الحد من الدقة ، ليس بالدرجة الأولى عن طريق ممارسة الموسيقى بقدر ما هو عن طريق الأصابع الدالة المتوترة إلى أصوات العالم وضحيفه ، إلى تلك الخلفية الصوتية غير الممسوسة من قبل ، والتي يستقبلها

السمع العادي على أنها الهدوء . إلى هذا الفراغ الزائف ترسل موسيقى الكرن أمواجها ، وهذه الموسيقى هي التي كانت ناديجدا فيلاريثوفنا تسمعها . السمع بالذات هو الذي منح ناديجدا فيلاريثوفنا هذا الكمال النادر للقدرة على تلقى الحياة . فقد كانت الأصوات تحتوي على الصورة واللون . لم تكن فون ميك ترى العالم مجرد المعالم وساطح الألوان إلا من خلال العوينات . أما بالعين المجردة فما كانت الأشياء المحيطة بها لتبدو إلا ملقعة بضمباب وجيد اللون ، مثلما ترى لوحات كارايف . وهكذا كانت ترى في الموسيقى وضوح شطوط العالم المحيط واشكاله وألوانه ، تراها لا رؤية ذهنية مجردة بل بعين داخلية صافية وحادة البصر . اليس لهذا السبب كانت تضع دائماً بلملاً إلى الموسيقى ؟ فيعد وقاة زوجها وتحملها من معظم الواجبات تجاه المجتمع الراقي ، علات البيت بالموسيقى باقتناء فرقة موسيقية صغيرة ولكنها مختارة بدق رائع ، ولم تكن الفرقة تكف عن العزف إلا في ساعات راحة ناديجدا فيلاريثوفنا ونومها ومزاولة شئون البيت ، أما في غير ذلك من الأوقات فكانت تصاحبها في كل ما يشغل يومها : في القراءة ، وفي أحلامها ، وفي أحاديثها مع بناتها وأبنائها ، وفي قياسها لفساتيها ، وفي شغل الأبرة ، وحتى أثناء الرمي بالمسدس ، هذه الهواية التي كانت تحمل لها شحنة صوتية فعنص ، لأنها لم تكن تصيب الهدف أبداً .

ومنذ زمن قريب تقلص برنامج الفرقة ، الذي كان متنوعاً للغاية ، وأصبحت لا تعرف إلا تشايكوفسكي وحده تقريباً . أما في الأيام الأخيرة فقد صممت الفرقة تماماً ، إذ أصبحت ناديجدا فيلاريثوفنا لا تلتقي سماع الموسيقى ، سوى تلك الأصوات المفاجئة العشوية والخطئية ، التي كانت تنطلق فجأة من حلقها أو من تحت أصابعها ، التي بدا وكأنها تريد سحبها على مفاتيح العزف .

وما هي أصابعها قد امتدت الآن من تلقاء نفسها إلى العاج المائل إلى الصغرة ، ثم تقلصت بصورة غريبة ، كأنها

تريد ان تطبق على عنق الموسيقى التي كانت على وشك ان  
تولد .

لن يدرك الا من عرف  
حينئذ اللقي  
كم تعبدت . . .

اندفعت الدموع الى عيني ناديجدا فيلاريتوفنا ، قالت  
براسها الى الوراء ، وظلت واقفة هكذا في وضع «الضارعة»  
في لوحة لوقا كراناخ حتى ارتدت دموعها عائدة ، مبللة فقط  
زوايا العينين . كانت الخطوات المترددة في الطريقة اشبه  
بحفيف السنونو ، ومع ذلك سمعتها ناديجدا فيلاريتوفنا  
وعرفت على الفور ، فاستقامت ، وعدلت راسها على جيدها  
الطويل البستقي ، ولم تلتفت عندما فتح الباب دون صوت .  
وكاننا نردد صفيح جسد طائر يشق الهواء ، وضمت كتفيها  
ذراعان نحيلتان داخلتان .

— ماما ، اعذريني على تطفل ، ولكنك غثيت بحرقه  
الى حد انني لم . . . اتحمل . . . انت لم تقني ابدا هكذا !  
ماذا بك يا ماما الحبيبة ؟ هناك مصاب الم بك ، صارحين  
كم احبك ! . . .

احبك ! . . . استجاب قلب ناديجدا فيلاريتوفنا المعذب  
وغير اليذكر لذاته . . . لهذه الكلمة فورا ، واستدارت نحو  
يوليا وقبلتها في جبينها بتائر . كانتا متشابهتين الى حد  
كبير ، ولكن قسما الام انعكست في وجه يوليا في صورة  
مخففة باهتة ، سواء عيوبيا . — فقد كان ذهن يوليا اكثر  
استدارة وانثوية . — مازياها — فقد تحولت عينا الام  
السوداوين لدى يوليا الى مجرد عيني جميلتين وليس الى  
تبعين إلهيتين .

— هل انت بصحة طيبة يا ماما ؟

— بكامل صحتي . . . هو الصداق المعهود . . .  
ولاول مرة بعد وفاة زوجها احست ناديجدا فيلاريتوفنا  
بالرغبة في الاعتماد على ذراع احد ما — ما يقلقني . . . كلا ،

ما يعذبني ، هو مصير تشايكوفسكي . لا يهدأ لي بال !

فسألها يوليا بصوت خافت :

— اتحبينه الى هذا الحد يا ماما ؟

— ليس ذلك الحب الذي يدور بينك . فذلك الحب  
استنفدته لآخر فطرة مع آبيك — وكانت صادقة وهي تقول  
ذلك — انني اعبد تشايكوفسكي ، ابحله ، واشفق عليه .  
قفي ذلك الحب الآخر ينبغي ان ارى المحب حبيبه ويكون  
لعه ، اما انا فليست بخاصة الى ان ارى تشايكوفسكي ،  
يكفيني فقط ان اعرف انه بخير ، لا يشعر بخوف ، وان  
موسيقاه ستستمر ، هذه الموسيقى التي توهي متعبة لا  
يضاهاها شيء . احواله الآن سيئة ، انني اعرف ذلك . . .  
اعرفه بقلبي .

وسالت يوليا بخذر :

— وهل كتب اليك انه . . . ان احواله سيئة ؟

— كلا . آخر رسالة وصلت من اسبوعين . وكنت قد  
نبأته عن السيمفونية الرابعة ، عن سيمفونيتنا . . .  
ونبذ صوتها .

تناولت يوليا يدما فقبلتها . ولاحظت ياسي ان بشرة  
امها الناعمة الرقيقة بدأت تغشوش . . . آه يا ماما  
المسكينة ! . . .

تنازلت ناديجدا فيلاريتوفنا نفسها ، وظل صوتها وحده  
متواترا بالفعال مكموم :

— هذه الرسالة هي ازوع واعمى ما كتب عن  
الموسيقى . ساعطيك اياها لتقرئها ، كلها عن الموسيقى .  
ولا كلمة عن نفسه او تلاميذه . تواضع مذهل ، خارق 1 .  
ولمعت عيناها السوداوان — ان في ذلك حتى عدم لباقة منه  
تجاه صديق مثل . اذ يجب ان يجعل ألمه الهى ، وعذابه  
عذابى ، ويلواه بلوى . . .

— قد تكونين مخطئة يا ماما ، وليست احواله سيئة الى  
هذا الحد ؟

— انا لا اخطئ — قالت ناديجدا فيلاريتوفنا بثيرة شبيهة

غاضبة - انا اعرف اكل ما يجرى له بالضبط كما لو كان ذلك يجرى لي .

- ماما ، اريد ان اسألك المعو على حديث سابق بيننا . . . لم اكن محقة . لقد اسبأت' الظن بالسيد تشايكوفسكى . . . ربما كنت اغار منه عليك . سامحني يا ماما . انه رجل محترم ، مستقيم للغاية . . .

كان تشايكوفسكى منذ فترة قد طلب في إحدى رسائله السماح له باهداء السيمفونية الرابعة الى ناديجدا فيلاريتوفنا . وقد قرأت هي ويوليا الرسالة معا ممسكتين بها من اطرافها . وهتفت ناديجدا فيلاريتوفنا : «انه يهدي الي' السيمفونية الرابعة !» فلاحظت ابنتها بلهجة باردة وقد قرأت الرسالة الى النهاية : «انه يسألك سلفه يا ماما !» - هذه اول مرة انال فيها مثل هذا التبرؤ !» - «لماذا ، الكبريون طلبوا منك سلفات» - «انا افسدت عن السيمفونية» - «وانا اتحدث عن المال» - «انت لا تفقهين شيئا يا بنيتي . السيد تشايكوفسكى يوليئ' ثقة عظيمة بهذا الطلب التافه وشرقا عظيما باهدائه موسيقاه الي' . والان دعيني !» .

تذكرت ناديجدا فيلاريتوفنا حرقيا ذلك الحديث التافه ، الذي كان بعيدا عن ذرى الجبال التي حلقت فيها روحهينا بالقرب من روح تشايكوفسكى ، بحيث لم يكن ممكنا ان يفضيها او يؤلمها . لكن ألمتها كلمات يوليا : «انه رجل محترم ، مستقيم للغاية» . امكنذا يقال عن تشايكوفسكى . . . مرة اخرى لم تفقهى شيئا في السيد تشايكوفسكى يا بنيتي ! - قالت فون ميك . باستثناء - كل هذه الكلمات البائسة تصلح لعامة الناس . السيد تشايكوفسكى لا يمكن قياسه بالمقاييس العادية ، انه عبقري ! - وصويت نحو ابنتها للحظة خاطفة يريق عينيها السوداوين الرائعتين غير المصتربتين تقريبا ، وخربت من الغرفة . . .

. . . المذهل انه حتى يوليا ، يوليا القريبة منها بكل ذرة فيها ، لم تترك الشيء الرئيس ، وبجانب الاسى تحركت في

نفس ناديجدا فيلاريتوفنا نشوة خفية باكتشافها الهائل ، لا احد يفهم تشايكوفسكى ، ولم يفهمه احد ، حتى فيكولاى روبشتين اخلص اصدقائه . ولم يجرؤ سواها . هي ناديجدا فيلاريتوفنا فون ميك ، على اطلاق صفة العظيم على تشايكوفسكى . وهي التي اكتشفت فيه العبقري . لقد رأت في استاد كونسرفتوار موسكو المتواضع ، الذي يضجع مؤلفات موسيقية ، عبقريا ايضا هي باخ وموتسارت وبتوفن . ولم تكن تلك نزوة او بدعة لراعية فن ثرية ، تبيع لنفسها بطلها المستبد الجامع ان تعاقب وتعفر ، وتعلق وتخسف . كلا ، لم يكن كله سوى ضوآب السمع الموسيقى والروحى الذى لا يخطئ . كانت ناديجدا فيلاريتوفنا تعرف عن ثقة ان تشايكوفسكى ، عاجلا ام آجلا ، ولكن في حياته من كل يد . سيعطى بالاعتراف العالمى ، وسيصبح شيئا كما لم يشتهر اى موسيقار روسى آخر . ولن تقل شهرته عن شهرة موتسارت . كان ذلك بالنسبة لها واضحا الى حد انها دهشت لصمم المحيطين به اكثر مما ازدهت بفراستها . ولكنها لم تسمح لاحد بان يخدس بشئونها الغريبة . لم يكن يعلم ذلك سوى روح كارل فيودوروفتش فون ميك . لم تكن ناديجدا فيلاريتوفنا تؤمن بالله ، بل بخلود الروح . وكان تشايكوفسكى مكسبها العظيم ، مثلما كانت سكة حديد كورسك - كيف مكسبها للمهندس فون ميك الشاب ، المتوقد ، السريع الشحوب ، مكسبها عاد عليه بأول ملايينه . آنذاك اوضح ان هذا الفرخ الصغير ابعد نظرا واكثر فطنة وذكاء وحزما وعوية من ذئاب عجائز مجربة ، فجاز بالعازة الكبرى . وما هي ذى الآن ، هذه السيدة ذات الغرائب ، كما كانوا يسوونها في المجتمع الراقى ، والعاشقة المتحمسة للموسيقى ، تستشف ما لم يستشفه الاخوان روبشتين الشهيران ، ولا لاروش العالم بكل شيء ، ولا ستاسسوف نفسه ، ولا بالاكريف البعيد النظر ، ولا الجنرال الموسيقار كيزى . لقد تارت من كارل فيودوروفتش فون ميك لكرامتها التي كانت تزج تحت ضغط احساسه بالتفوق عليها طوال



حياتهما المشتركة ، رغم انه هو نفسه ، ربما لم يكن يسعى الى ذلك . لقد كان هو كل شيء ، وكانت هي لا شيء . فامام غلبة انجازاته العملية كان كل شيء آخر يفقد قيمته ويصبح لعبة وتزجية للوقت ، يصبح «عالما صغيرا» . ذلك الملجأ البائس للضعفاء وللخاشعين في الفن والحياة العملية . وعموما فليس هناك ما هو اكثر جعورا وغشا من جهود الهواة المضيئة . ان لا تعود الطافة الروحية المبذولة بأى مردود تقريبا . اما راعى الفن فيبدو افضل بكثير ، رغم ما فى هذا الدور من بعض الاحساس بالنقص . ولكن التاريخ يعرف أمثلة كاد الراعى فيها ان يصبح على مستوى واحد مع من يرعاه . ويدون تواضع كاذب يمكنها ان تقول ان القليلين هم الذين اظهروا ما اظهرته من بعد نظر . ذلك لانه من الاسهل كثيرا ان تعلى قدر شخص غير معروف . من أن تفعل ذلك مع شخص سيات سمعته . ولا داعى حتى لتذكر الفشل المبدؤ ، والمبتصف الى حذ ما . لأوبرات تشايكوفسكى ، ان أعماله السيسفونية ، وكذلك عزوفات الغريب قد نالت من السباب والتهمك والبسخرات اكثر بكثير مما حظيت به من مديح . وقد وصفه صديق صباه لاروش على صفحات المجلات «بالصغير» و«البائس» ، فلم يغضب بيوتر ايليتش منه . صحيح ان مؤلفاته يعرفها نيكولاى روبنشتين ، وهذا أمر له قيمته . ولكن اليس روبنشتين هو الذى انكر كونشترتو البيانو الأول المهدى اليه ، أعظم اعمال تشايكوفسكى ؟ واذن فلم يفهم روبنشتين القيمة الحقيقية لهذه الهدية العظيمة الى بكل هذه البراءة . ثم ان استعابة تشايكوفسكى لها بهذا الاستعداد وتلك الفرحة المعذبة ، تؤكد انه مرهق الى حد الاعياء من عدم فهمهم له ، وانه يدرك حقه فى ان يكون مفهوما و«مكتشفا» . لقد اجتازا معا المسافة الفاصلة بينهما . فما أبعد الشقة بين البشر . ولكن من ذا الذى يستطيع ان يقيس المسافة والهوة بين استاذ كونسرفتوار فقير غير معترف به وبين أرملة مليونير ؟ لقد أصبحا متجاورين فى لبح البحر وبسرعة

الخطر ، وتعاقت روحاهما ، ولكنهما قرزا ألا يلتقيا لقاء العين أبدا .

بدا لها رائعا ان بيوتر ايليتش طلب منها سلفة على الفور تقريبا . فجميع من كانت الاقدار تجمعهم بعائلة فون ميك ، كانوا عاجلا أم آجلا يطرقون موضوع النقود . معظمهم كان يفعل ذلك عاجلا ، وكان هؤلاء اشخاصا محترمين ، صرحاء . اما الخطر الاكبر فكان يشتمل فى اولئك المنتظرين ساعتهم المواتية ، وكانهم متربصون فى كمين لاختتام الضربة . وكثيرا ما كانت العلاقة بهم تنتهى بالقطيعة ، لان المبلغ الذى يطمع فيه المتواضع الضيور ، كان يفوق كثيرا حدود السخاء المعقول لماديجدا فيلاريتوفنا وسماحتهمها . اما تشايكوفسكى فقد سألها سلفة على الفور ، سلفة كبيرة حقا ولكنها معقولة تماما ، وبذلك لم يأسر فؤاد ناديجدا فيلاريتوفنا فحسب ، بل سهل عليها ما تعتزم القيام به ، اذ كانت تثرى تقرير معاش له ، لتحرره من هموم لقمة العيش . كانت أمورها المالية تخضع لنظام صارم - وعلاوة على ذلك فلم تكن تسعى الى اخفاء رعايتها لتشايكوفسكى . ومن ثم أدرجت النفقات على المؤسقات تحت بند فى الميزانية باسم : «الموسيقى» . وكان هذا البند يشمل الاتفاق على الفرقة الموسيقية المنزلية ، وعلى عازف الكمان الشنساب باخولسكى الذى التحق بالعمل منذ فترة قريبة . وكان مخصصا لباخولسكى دور كذلك الذى كان يؤديه يوسف هايدن \* الشهير فى قصر الامين استرجازى . وعموما فلم يكن باخولسكى مطالبا بتأليف الموسيقى ، بل كان يكفى ان يعد جميع مؤلفات استاذه بيوتر ايليتش تشايكوفسكى لتعزفها الفرقة المنزلية الصغيرة .

وما ان بدأت الحياة تدب فى قلبها حتى هزها نيا زواج تشايكوفسكى . بالطبع هو حر فى التصرف كما يعمل له . فلم يكن فى اتفاقهما غير المكتوب بند خاص بعدم الزواج ، \* يوسف هايدن (١٧٣٢-١٨٠٩) = موسيقار نمساوى ، واحد مؤسس المدرسة الموسيقية الكلاسيكية فى فيينا . المهرج .

وعموما فلا شأن لها بعباية الموسيقى الخاصة ، والتي يقال انها كحياة النساك . ولم تنسب اليه الشائعات سوى حب قصير قاشل للسطرية الإيطالية ديزيرية دارتو ، التي اهداها رومانوس «في الحفلة الصاخبة» . ولم تربط الالسنه اسم بيوتر ايليتش بأي امرأة أخرى . بالطبع لم تكن ناديجدا فيلاريتوفنا تجمع الشائعات ، لكن الشائعات ، مثلها مثل الروائح ، تتسرب عبر جميع الحواجز ، بغض النظر عن ارادتنا بل وغمنا عنها . وهكذا عرفت بأمر علاقته بديزيرية ، بهذا الحب المشبوب والقطيعه المفاجئة غير المعهومة ، رغم انها في ذلك الزمن البعيد لم تكن قد بدأت تهتم بتشايكوفسكى وكانت لامبالية . اذا العطرية . وقد سمعت بأمر انطونيا ايفانوفنا ميلوكوفنا قبل ان يغلطها بيوتر ايليتش نفسه بغزمه على الزواج .

كانت انطونيا ايفانوفنا هي التي بادرت بالكتابة الى تشايكوفسكى . ولم يكن بوسع ناديجدا فيلاريتوفنا ، اذا ارادت ان تكون صادقة مع نفسها ، ان تدنيهها على هذا التصرف الجريء للغاية بالنسبة لفتاة . فلو انطلقنا من هذه النظرة المرافية لما كان من اللائق للارملة ايضا ان تبادر بالكتابة الى رجل غريب أعرب . ولم تكن الارملة تجعل اطلاقا من تصرفها هذا . لقد ظهرت انطونيا ايفانوفنا في الوقت الذي كان بيوتر ايليتش يعلم فيه بموضوع اوبرا جديدة . وبدأ يوجه انظاره نحو «يفجينى انجين» \* ، واذا برسالة هذه الفتاة التي كانت تتردد على دروس الموسيقى ، والتي عرضت نفسها على تشايكوفسكى بنفس الطهر والبرائة والضميمة التي عرضت بهيئا قاتلانا نفسها على انجين في رواية بوشكين ، اذا بهذه الرسالة تعطى بيوتر ايليتش المفتاح لهذه الاوبرا التي اطلق عليها لاروش السليط اللسان على الفور اسم «انجيل قاتلانا» .

\* «يفجينى انجين» رواية شعرية للشاعر الروسي الكبير الكسندر بوشكين ، وقد حولها تشايكوفسكى الى واحدة من اشهر اوبراته .  
المعرب .

كان ا «يفجينى انجين» مغزى خاص في علاقة ناديجدا فيلاريتوفنا بتشايكوفسكى . فذات مرة اعترفت له في إحدى رسائلها بأنها لا تحب بوشكين وتحب بيساريف \* ، واعربت عن أملها بأن يتحرر ، هو تشايكوفسكى ، من أسر «الرومانسية البائسة ويرقى الى النرى التمس للروح الانسانية» . وعنهما صديقها العزيز تعنيفا شديدا . فقد أحزنه بشدة وأدهشته واستخطه ان تعجب ناديجدا فيلاريتوفنا ، ولها هذا الحب الموسيقى النادر ، بيساريف ، الذي يسوى بين حب الموسيقى وحب الخيار المبلج ، ويضع بيتهوفن على قدم المساواة مع طاهى مطعم دوسوا ورغم ان هذه الضربة كانت قوية ومفاجئة ، اذا كان الصديق العزيز مثالا للبقاة والرفافة ، فقد أحست ناديجدا فيلاريتوفنا ، بعد ان أفاقت من هذه الصدمة الخفيفة ، بالفرحة بل وبالفرور من هذا التقرير . فقد أدركت ان تشايكوفسكى تحدث اليها لأول مرة بصراحة وجدية ودون مواربة . كما يتحدث المرء عن أهم شيء لديه مع شخص يحترمه . وكان هذا رائعا منه ، هذا الانسان الفش كالزجاج ، والذي الجاته الضرورة العنيفة الى طلب العون من معجبة ثرية . لكن بيوتر ايليتش كان يرفض بحسبهم اى تنازل عنهما يتعلق الامر بالمبدأ . كان لا يطيع اى مساس بالفن ، ولذا رفض بيساريف ولم يتسامح مع مراسلته في شطحاتها العدمية هذه .

وقد جعل ناديجدا فيلاريتوفنا تشكك لأول مرة في ان ليزمنتوف هو الشاعر الوحيد بين شعراء المدرسة الرومانسية الجدير بالاعتراف ، افلا تسمع حقا مونيقي شعر بوشكين ، أم انها تشكك وراء الموضوع ، وراء ضلال العصر الشائع ومروجه بيساريف ؟ وقالت ناديجدا فيلاريتوفنا في نفسها باغيا : يا إلهي ، وما دخل بوشكين هنا ؟ ان بيوتر ايليتش

\* ديمتري بيساريف (١٨٤٠-١٨٦٨) ناقد ادبى من الديمقراطيين الثوريين ، اثناء تقدير ابداع بوشكين رغم دقاعه عن الواقعية ووقوفه ضد نظرية «الفن للفن» . المعرب .

يحول كل ما تمسه أصابعه الى موسيقى . ولقد سلمت  
«يفيجنى انيجين» من زمان ، ولم اسلم فقط ، بل انتظر  
الاوبرا على آخر من البحر ، مثلما انتظر كل ما يخرج من بين  
يديه . وسلمت بهذا الزواج الاحمدى ، طالما ستتولد عنه  
موسيقى الهية جديدة . . .

الشيء الذى آلم ناديجدا فيلاريتوفنا ، بل وجرحها ، ان  
بيوتر ايليتش لم يظلمها على ظروفه هذه الا متأخراً . كان  
يكتب لها الرسائل ، ويسألها سلباً ، ويحدث عن  
الموسيقى ، وعن اوبراه القادمة ، دون ان يشير بكلمة  
واحدة الى ما كان وثيق الارتباط بالابوبرا ، وما جعله ،  
حسب شهادة غازف الكمان كوتيك ، يعدم ، كالسائر فى  
نومه ، بيت بوشكين : «قد صار مثلي الاعلى : شئون البيت ،  
قدر الحساء وليكن كبيراً» . لا يا صديقي العزيز ، ما هكذا  
يفعلون ! اما كان برسك ان تشير الى ذلك ولو تلميحاً ،  
ولو لتجنب شخصاً مخلصاً لك العرج لملاحظته الخالية من  
اللباقة حول «تقامة موضوع يفيجنى انيجين» ؟ بالفتة يخون  
الاصدقاء من الاخطاء . وانت لم تحم صديقك .

على اثر تلك الرسالة المنحوسة علمت بعزم بيوتر  
ايليتش على الزواج فجعلت من عدم لياقتها غير المتصور  
ذاك . وهل حقاً أحسست بالخل ؟ . ربما كانت تشعر فى  
اعماق قلبها بالبهجة ، لأنها استطاعت - ولو بصورة غير  
مباشرة - ان تعرب عن رأيها الحقيقى فى اختيار بيوتر  
ايليتش ، هذا الاختيار الخلقى بمساعد رئيس قلم فى إحدى  
الدوائر ، لا بعقري . الفرنسيون يقولون ليس مهماً ان  
زجاجة تشرب ، المهم ان تسكر . بيد انه على البرء ان يراعى  
الذوق حتى فى اختيار الزجاجة . ولكن ربما كان هذا شيء  
آخر ؟ . . . ان جوة ، وجان جاك روسو ، وامثالهما من  
الشخصيات المعقدة . . . بحاجة فى خضم الحياة اليومية الى  
ركيزة بسيطة قوية مضبوطة . ولكن انطونيا ايفانوفنا ،  
فيما يبدو ، شيء مختلف ، اكثر تعقيداً ، فهي جميلة ، واذا  
لم تكن جميلة بالمعنى السامى الذى اتفق على تضمينه هذا

المفهوم ، فهي حلوة ، جذابة . لقد قال الاستاذ لالچى ، الذى  
درست انطونيا ايفانوفنا الموسيقى على يديه فترة قصيرة ،  
رداً على طلب تشايكوفسكى بأن يرسم لها الاستاذ صورة  
شقوية ، قال باقتضاب ووضوح : «حقاً !» . ثم اضاف مع  
ذلك فى دفقة نزاهة : «ولكنها حقاً وسيمية !» . لقد روى  
كوتيك العزيز حتى هذه الواقعة ، وهو يظن انه يرضى بذلك  
ناديجدا فيلاريتوفنا . احقاً يعتقد كوتيك ، هو والآخرين  
جميعاً ، انها ترى فى ميلوكوفا انقائه منافسة لها ؟ وفيه  
المنافسة ؟ ان السيدة فون ميك لا تلمح فى قلب  
تشايكوفسكى ویده ، وانما هي بحاجة الى روحه ، التى تبذل  
اسمى متعة فى الدنيا ، وهذا ما لا تقوى اى ميلوكوفا على  
انتزاعه منها . احقاً هو كذلك ؟ . . . لقد درست انطونيا  
ايفانوفنا الموسيقى ، واذا فليست غريبة تماماً على عالم  
تشايكوفسكى . يا إلهي ، لعل اذا وقع اختيارها على  
تشايكوفسكى وحده من بين جميع عذاب مونكو ، وما  
اكثرهم . وكانت تعرف بالطبع ان بيوتر ايليتش ليس غنياً  
ابداً ، وانه من شبه المستحيل ان تعيش اسرته على راتبه  
من الكونسرتواز والموارد العارضة من طبع مؤلفاته  
الموسيقية . فحتى وهو بمفرده كان بيوتر ايليتش يعجز عن  
تدبير معيشته . فويل كان بإمكان انطونيا ايفانوفنا ان تنبأ  
برعاية فون ميك له ؟ كلا بالطبع ! ومع ذلك كتبت الى  
تشايكوفسكى تبرج يخبرها له كاتسان وكوسميلاز . لقد  
كلدت بصورة هزلية سلوك ناديجدا فيلاريتوفنا نفسها دون  
ان تدري بذلك طبعاً . صحيح ان ناديجدا فيلاريتوفنا لم  
تعرض نفسها على موسيقارها الحبيب ، وكيف تجرؤ على عرض  
مثل هذه البضاعة ؟ . . . ولدى ورود هذا الغابر الى ذهنها  
أحست بشفتيها الجافتين تتقلصان الماء وتقرآن . . . جسد  
إفراة فى السادسة والاربعين أنجبت اجد عشر طفلًا . . . كلا ،  
انها لم تفكر فى شيء كهذا ابداً ! - ولم هذه القسورة على  
النفس ؟ - قاطعت ناديجدا فيلاريتوفنا نفسها فى افكارها -  
الانسان يفكر فى اى شيء يخامر له ، وقد يورغل بافكاره فى

مجرمات يستحق عليهن ، أقل ما يستحق ، الصليب ، أو الشنق ، أو الحرق حيا ، أو ربطه حتى آخر عمره بالمشيرة \* . لو ان الناس حوكموا على افكارهم لما نجى احد من الشنق في الغالب ، حتى النساء القديسون ، فما بالك بامرأة خاطئة تميل الى السيخوخة ، في فترة «الصيف الهندي» العظيمة ، كما يقال عن تلك المرحلة العزينة لآخر ازدهار في عمر المرأة ، والتي لا شيء بعدها سوى الفراغ والمعمق وبرودة الاحتضار .

ومضت ناديجدا فيلاريتوفنا تقنع نفسها : ومع ذلك ، وبكل صدق ، فلم اكن ابغى من بيوتر ايليتش أى شيء سوى الموسيقى ، ولكن الموسيقى لا تنفصل عن الانسان ، واذا كنت لا ابغى سوى الموسيقى ، فلماذا اذن سمعيت الى مراسلة الموسيقار ؟ واذن فانا بحاجة الى الانسان ايضا . نعم الى الانسان ، الانسان بمعنى الكلمة ، لا الزوج ولا الحبيب ، ولا داعي في غمرة اذلال الذات لان اضع نفسي على قدم المساواة مع فتاة من هي زاموسكفاريشنيه \* . تدعى انطونينا ايفانوفنا ميلوكوفا ، وهل يحق لي ان اتشكك في نزاهة انطونينا ايفانوفنا وتوايها ؟ نعم ، اننى لا اثق بها ، لا اثق ببراعة هذه الاندفاع التي جعلتها تكتب لرجل وحيد غريب ، ولكنه جنبا مشهور . نعم ، لا اثق ! ثم ان الفتاة المقتربة من الثلاثين هي فتاة ناضجة للغاية ، ولا بد انها مجربة ، «بائرة» كما يقولون عندى في غرفة الخدم . لقد كنت تعرفين يا انطونينا ايفانوفنا الى من تكلمين ! رغم انك لم تكوني تعرفين قدره الحقيقي ولا تفهمين موسيقاه . لقد ادركت ان بعض الشواهد التي لا تكاد تلتقط في رسائل بيوتر ايليتش ان هذه الدارسة السابقة للموسيقى لا تعرف حتى موسيقى تشايكوفسكى ، واذا كانت قد سمعتها فانها

\* المشهرة هي آلة خشبية كانت توضع فيها يد المتهم واعتقه للتشهير به علنا ، **المهرب** .

\* \* \* حتى شعبي في موسكو كان يسكنه التجار والعمال . **المهرب** .

سمعتها دون وعي ، دون احتراق ، دون ان تعرض بها ، ولكنك كنت تعرفين انك تغالطين انسانا ساذجا ، لا خبرة له بكيد النساء ، غير محصن ضد الدماء او التحايل الرخيص الذي يوسع أى رجل متوسط الخبرة ان يكشفه بسهولة ويهزأ به . لقد خدعت بوضاعة وفظاظة طفلا كبيرا فجررتك اليك ، ثم تصنعت ، متأخرا جدا وبرود ، خجل العذارى ومحاولة الانحصار . اما هو ، المسكين ، فصدق انهم سيثرون على جثتك الباردة في القنات عند المستنقع ، او في نهر موسكـو مقابل «دير العذارى» ، وهو ما يبدو اكثر شاعرية ، واذا امتلا قلبه بالايمان والشفقة ، وخاب امله في اوبراه التي تسلبت انت اليها ببراعة شيطانية ، ومدفوعا فوق ذلك بخوف أسرته من ان يصبح وحيدا هالما في المستقبل . فقد ضحي بيوتر ايليتش بنفسه ارضيها ، لانائيتك وبسبب حساسيته المفرطة وموقفه النبيل من الجنس الضعيف .

وفي محاولة يائسة اخيرة للنجاة ، اذ اهترت كل الاسس النبيلة عندما رأى نفسه مهددا بان يصبح على مقربة من امرأة سمينة ، سوتية ، مليحة وجشعة ، راح المسكين يتنعم بان طبعه صعب لا يحتمل ، وكم هو عصبي سريع التهيج ومنظر . وصور نفسه شطخنا جها ، عيوسا ، منزلا وحادا على البشر ، يكاد يكون طاغية ، وعلاوة على ذلك لا يملك قرشا في جيبه ، ولكنك انت ، يا صاحبة الروح الخساسة ، التي حكمت على نفسها بالهلاك بسبب لقاء برى ، واحد ، لم تحركي ساكنا ازاء هذه الخدمة البائسة ، وصمدت صمود بطل اسبرطى ، وتحللت باللامبالاة كطبيب بمستشفى الجذام يصغى الى مريض يشكو الزكام . كيف لا وانت لا تطعمين الا في رعاية هذه الروح الوحيدة والسهر عليها . الا فلتعلمي ان بيوتر ايليتش ليس وحيدا كما تصورين . ان لديه اقربا ، بينهم برقة ، اما شقيقته ساشنا ليو يعيها ، ولديه تلاميذ ، ولديه حام قرى هو نيكولاى رزنيشستين ، ولديه صديق مستعد ان يحميه من كل الشرور



والبلایا والهولوم ، مستعد ان يجعل حياته صافية هنيئة ، مستعد ان يزيل من طريقه اى حجر ولو صغير ، بل وان يعبد بجسده الطريق اذا تطلب الامر ! . . . ولكن ما قيمة بيت الأهل ، وما قيمة الأخ ، وماذا يكون المعلم والتلاميذ ، وماذا يكون الأصدقاء امام امرأة أصبح يدعوها فى افكاره زوجته !

المسألة اذن ليست فى ميلوكرفا ، ليست فى هذه التافهة ، المسألة انك خدعتنى يا صديقى العزيز . لا لانك اردت ان تخدعنى ، بل لانك انت نفسك خدعت . نعم ، نعم ! . . . الناس يصلون انفسهم بأنهم يعرفون الآخرين على حقيقتهم . وهذا لا يحدث الا فى بعض الحالات النادرة ، عندما يسترشد الشخص الذى ندعى معرفته برغبات سطحية مباشرة ويسعى الى اهداف عملية فجأة ، ولكن هذا لا يعنى فى الحقيقة «رؤية الناس على حقيقتهم» ، بل رؤية جانب واحد ، صغير ، مهما كان مهماً . وما عدا ذلك يبقى مستورا . وعموما فمعرفه كل منا للآخر ضعيفة بصوره مدعشه . ولا ينطبق هذا على البعيدين عنا فحسب . اننا لا نعرف اقرب الناس إلينا ، اولئك الذين همنا أمرهم اعظم الاهتمام ، وتراهم كل يوم ، ونرقهم بوعسى وبغير وعى لاننا بامس الحاجة الى معرفتهم . الآباء لا يعرفون ابناهم ، والابناء لا يعرفون آباءهم ، والزوج لا يعرف زوجته التى ينام معها ربع قرن فى سرير واحد ، والزوجة لا تعرف زوجها ، والعشيق لا تعرف عشيقها ولا العشيق عشيقته ، ولا يسعيان الى معرفة احدهما الآخر ، والا كذا عن كونها عشيقين ، والمؤسسون لا يعرفون رؤسائهم ، والرؤساء ينسب الدرجه لا يعرفون مؤسسيهم ، ان اهم ما فى الانسان مخبأ فى اعماق سحيقة لا تبلغها اشعة الضوء . ولكن الإهم يا صديقى العزيز اننا لا نعرف انفسنا مثلما لا نعرف الآخرين . ولست غاضبه من خداعك غير المقصود . . . خداع النفس . لقد تناسيت شهامة الرجال فاعترفت لى فى رسائلك ان زوجتك تكاد تثير فيك التفوق البهيمى ، رغم انك

لم تذكر هذه الكلمات . أما فى الحقيقة . . . فانت تشعر نحوها ان لم يكن يشغف فبرغبة تبلغ مبلغ الشغف ، اليس كذلك ؟ . . .

كانت ناديجدا فيلاريتوفنا تغرق فى أسى بفراسيتها ، وبقدرتها على قراءة ما بين السطور واستخراج الحقيقة من قعر البشر السحيقة ، بينما لم تكن لافكارها واستنتاجاتها اى صلة بتشايكوفسكى . لم يخطر ببالها ابدا ولم تحس بأساة هذا الانسان الذى اراد ان يحيا حياة عادية ويصبح مثل الجميع ، فاقنعت بانسا بان هذا السبيل محرم عليه .

كانت روح ناديجدا فيلاريتوفنا الجياشة الصارمة فى احكامها ، والتي صليها صمت تشايكوفسكى على آلة التعذيب ، فى الوقت الذى كان عليه ان يتحدث اليها ، كانت بين خيارين ، فاما ان تحكم عليه بالادانة لخداعه حكمنا نهائيا ، واما ان تخف عنه تماما . وقالت فى نفسها : «هو نفسه كان مخدوعا فى حقيقة عواطفه نحو انطونينا ايفانوفنا فخدعتنى دون قصد» . . . وكان ذلك اشبه بحكم البراءة . ومع ذلك كان ثمة شئ ما لا تستطيع ان تغفره لبيوت ايليتش . ولم يكن هذا الشئ صسته العالي ، فقد يكون وراءه مرض ، أو فاجعة ، أو مصيبة ، أو شئ خطير آخر مجهول لها مژتا . . .

لا يستطيع ان اغفر لك يا بيوت ايليتش انك ايقظت فيك كثيرا من الانوثة التى ودعتها من زمان . واذ شئت الصراخ ، فقد ايقظت في ما لم احسه من حيالى السابقة مع زوجي . وعموما فانا اكره الاحكام القاطعة . انما لم اخن كارل فيودوروفتش ابدا ، ولكن حتى هذا التاكيد الذى لا مراء فيه هو مئصف الى حد معين . لقد خئت كارل فيودوروفتش مرات لا تحصى . ولكني خنته معه هو نفسه . وهذه خلية فى الحقيقة ، اذا اردنا الا نخدع ضائنا . رعى هذا فلا يستطيع ان يؤكد اننى لم اغر على زوجي المرحوم . صحيح انه لم يفعل صراحة ما يستوجب الغيرة . ومع ذلك كنت اغار عليه ، لامن العمل والمشاغل التى كانت تستولى عليه كله

تقريباً فحسب ، بل ومن النساء الجميلات الشابات . وكان يكفى فقط ان تطول نظرته قليلا ، أو تتغير نبرته أو يختلج جفنه لكى تشتعل الغيرة فى قلبه . فانا عموما غيورة . كنت اغار على ابنائى من المرضعات والحاضنات والمربيات ، من رفاههم ورفيقاتهم فى اللعب ، ومن بعضهم على بعض ، ومن ايهم خاصة ، وحتى من الحيوانات ، كالكلاب والقطط والخيول . ولكن غيرنى لم تكن ابداً وضيفة . كنت امتدح المرأة التى جذبت أنظار زوجي ، ولا احاول العكس من قدرها ، ولا التى بملاحظة عارضة بخصوص حوالها أو رائحة فمها الكريهة ، أو غيرها من اللذائذ التى تسحق بها الزوجات الغيورات . أما الآن فقد انحدرت الى حد سماع القليل والتألم عن انطونينا ايلفونفا ، رغم انى لم ارها رؤية العين ، والى حد التلوه بعبارة لازعة فى حقها . ولا يهم هنا ان هذه العبارات لن تبلغ سمعها ابداً ، هذا اسوأ . . . لقد فكرت فيها بصورة سيئة ، ذليلة ، ناقصة ، وتمنيت لها السوء . وإذا لم يكن هناك من يعلم بذلك فانا اعلم ولا اغفر لنفسى . وما زلت اكرهها ، انى اخاف هذه الأنثى . هذه الحمقاء ، البلهاء ، الجاهلة ، شبه الحيوان . اخافها كامرأة ، ولا اغفر لك هذا يا بيوتر ايليتش . انا نفسى لا ادري من أين اتانى كل هذا البغض وهذه الغسرة . لقد انتهت حياتى كامرأة بموت كارل فيدوروفتش ، فانسجبت من المجتمع ، وأصبحت حياتى هى البيت والأولاد ودروسهم ولعبهم وهدوهم . ولم اترك لنفسى سوى الموسيقى ، وفيها رعت عالم عواطفى السابق . وكنت سعيدة لا ارثى لشيء الا لوفاة زوجى العزيز المبكرة . وفجأة اذا بامرأة غيورة ، حادثة ، حسود ، باغضة ، منفرة فى عذاها ، تقترح على هدوتى وصفائى ، وهذه المرأة هى أنا . يا إلهى ، أي خزي ! عجوز ا جدة ! ابنتى الكبرى تتردد على المجتمع الراقي من زمان ، وابنتى الأكبر حقوقي . وفى شعري خصلت شيئا ، ويشترى فقدت نوعيتها ، وأصبحت جافة قاسية . لقد نسيت متى كنت امرأة ، متى كنت انكشف على زوجي وانجب له الاطفال .

كانت الطبيعة سخيفة معي ، فقد صرت أمًا إحدى عشرة مرة . كانت جد سخيفة جيف نيمي قبل الأول . . . فكرت بفعل "مهاجى" ، وعلى الفور ألهمت خديها حمرة خجل لا يطاق . لا ينقصها الآن الا ان تتأفف من الطبيعة على اعظم عبثة من هياتها ، على منحها الحياة لكل هذه المخلوقات الرائعة . ولماذا تعتبر نفسها عجوزا ؟ لم تقض خمس سنوات على مولد ميلوتشكا ، ابنتها الصغرى ، التى اثار اهتمام بيوتر ايليتش البالغ . كان ميل الموسيقار والصغيرة الى بعضهما البعض ، هذا الميل المتبادل وغير المفهوم ، مؤثرا ومثيرا . كانت ميلوتشكا تتأمل صورة بيوتر ايليتش طويلا ، وفى آخر المطاف اهدتها أمها شيء من الأسف صورة الموسيقار وعليها اهداء ، موجه بالطبع الى أمها لا الى الطفلة . وذات مرة كانت تكتب رسالة الى صديقها العزيز فسماتها ابنتها : «الى من تكتبين ؟» - «الى السيد تشايكوفسكى» - «ولماذا تكتبين اليه طوال الوقت ؟» - «لأنى احب السيد تشايكوفسكى !» - «فلماذا اذن لا تكتبين الى ملك بافاريا ، السنت تحبته هو الآخر ؟» - «قالته ميلوتشكا ابنة الاربعة اعوام بشيرة معقدة أربكت ناديجدا فيلاريتوفنا الى حد ما . بالطبع ادرت الام بعد لحظة انها هى التى تخيلت هذه الثمرة المعقدة ، أما فى الحقيقة فلم يكن هناك سوى السذاجة الطفولية الساحرة . كانت ناديجدا فيلاريتوفنا قد ذكرت ذات مرة امام ميلوتشكا انها تحب ملك بافاريا لموقفه من الموسيقى والموسميين ، وحفظت ذاكرة الطفلة العادة هذه العبارة ، والغريب ان بيوتر ايليتش ، الذى كتبت له عن هذه النادرة المضحكة والمؤثرة من نوادر ابنتها ، قد لاذ بضمت مطبق ردا على ذلك . وضعت بائنها تريد الآن فوراً ان ترى ميلوتشكا ، هذه الرابطة الخفية بشبابها القريب ، القريب جدا ، وميلوتشكا القوية ، الوافرة البدن ، العنيفة ، الجيلة .

عندما دخلت ناديجدا فيلاريتوفنا غرفة الاطفال ، اسرعت ميلوتشكا بوضع صورة بيوتر ايليتش على الطاولة الصغيرة .

فترأى ناديجدا فيلاريوتوفنا شيء غريب في ان ابنتها الصغرى كانت هي الأخرى على اتصال بتشايكوفسكى في هذه اللحظة . ترى ماذا يحمل مثل هذا التوارد الغريب ، الفرحة ام الشقاء ؟ لقد كانت ناديجدا فيلاريوتوفنا متطيرة مثل كتييسر . من الملحين .

— هل كنت تتاملين صورة السيد تشايكوفسكى يا صغيرتى ؟ ما أروع وجهه ، اليس كذلك ؟

فأجابت الطفلة وهى تنظر الى امها مقلبة الجبين :

— بلى يا ماما .

ورفعت ناديجدا فيلاريوتوفنا الصورة الى عينيهما للحظة ، ثم وضعتها ثانية على الطاولة . واحسنت ميلوتشكا بارتياح شديد عندما أدركت ان امها لم تلاحظ الثوب الصغيرة فى عيني الموسيقار من اثر غرز الدبوس . اذ كانت ميلوتشكا قد فرغت لتوها من طبق الانتقام الرهيب بقفا عيني بيوتر ايلييتش .

— هل تعجبين السيد تشايكوفسكى ؟

— جدا . . . — اجابت الطفلة بثبات وبرود اعصاب :

— احببه يا صغيرتى . انه شخص رائع ، نادر ! وموسيقار عظيم .

فأسرعت ميلوتشكا تعاهد امها :

— ما أنذا احبه .

وقبلتها ناديجدا فيلاريوتوفنا فى جبينها ومفرق شعرها ، فسميت بتبقيتها ذلك المخلوق الرقيق العطر ، الذى كان ايضا رمزاً لصباها الممتد ، وخرجت من الغرفة داهية العينين .

... فى طريق عودتها الى غرفتها نظرت الى الفناء المعمور بنور القمر . بدا هذا الفناء الموسكوفى البسيط بخيائل البنفسج الداوية ، والذباب الجفاف على الجدار المصمت للمنزل المجاور ، وبخلائف المركبات والحلب . بدا فى ضوء القمر الفضى الاحتفالى ، الضخم بصورة غير معهودة ، اشبه بفناء ايطالى ساكن يغلفه العزن والاسرار ، وبجوار

خيملة بنفسج فارسى ذابلة لم تسقط اوراقها بعد جلس رجلاى على الاركة يشادلان حديثا خافتا . كان احدهما يدخن ، فيرسم اليه سيجارته الاحمر اقواساً ناعمة فى يد غير مرئية . وخصمت فون ميك من هذه الحركات الناعمة المصاحبة للكلام ان المتحدث هو وكيلها . اما صاحبه الآخر فلم يكن ظاهراً ولا معروفاً لها . واحسنت بفتة بوخزة حسد لهذين الرجلين الغاليين البال ، اللذين لا شأن لهما بضموعها وعذابهما وشكوكها وقلقها . لقد خرجا ليدخنا ويشتررا فى هذا المساء الدافئ من اماسى خريف وادع . وبعد ان يشبعوا تشيخيا ويعبوا من روائح الاعشاب المتحللة والارض الدافئة ويصغيا الى اصوات الموسيقى البعيدة المتلاشية لهذه المدينة الضخمة ، سيأويان فى مدور الى فراشهما ، فيغيبان فى نوم عميق حتى الصباح ، بينما لن تنام سوى الاقيل الفجر ، عندما تتبدى ملامح الستائر متفشحة بالرماد ، نوام قصيرا لا يروى الغليل .

كانت ناديجدا فيلاريوتوفنا مخطئة فى تفكيرها بخصوص الرجلين الجالسين فى الفناء . اذ لم يكن الجالسان تحت البنفسج الفارسى يشعران بالسكينة او فراغ البال . كانا جد خلقين ، وكان ما يشغلها هو نفس ما يثير قلق ناديجدا فيلاريوتوفنا .

— احبنا لم تشأ حتى ان تصغى اليك ؟ — سال جفوتوف بصوته الثقيل — ربما كان هناك سبب آخر لاستياثنا ؟

الست تمكر علي يا فاسيل سرجييفيتش ؟

— حرام عليك ان تطن ذلك مجرد ظن لا ان تقولها يا اينان بروكوفيتش ! — قال الوكيل باسى صادق — ليست هذه اول سنة نتعامل فيها على ما اظن . وما غرضي من شذاعك ؟ اقول لك واكرر : انها حزينه لان مرعيها ، السيد تشايكوفسكى ، لا يكتب لها .

— مرعيها ؟ ماذا تعنى ؟ . . . ما صلته بها ؟ علاقة ود ام شيء آخر ؟

— لا صلة . انه موسيقار ، يكتب موسيقى ،

فقال جفوتوف بدهشة :

— اهي حقا تكتب ؟ كنت اظنها تلحنى أو تعزف .

لم تثر سذاجة جفوتوف لدى الوكيل احساساً بالتفوق عليه ولا ثانية واحدة ، بل فكر بتأثر : «يا إلهى ، انه حتى لا يعرف ان الموسيقى تكتب ! هيأته كقراءة الطبيب ، ويعيش مع الهمائم فى دار واحدة ، ولكنه يستطيع أن يمزقنى بسنن واحدة ، انا وزوجتى الحبيبة والوالدى التلاميذ ، كما تحن العرسة رقبة عصفور . من أنا بالقياس اليه ؟ صغر على السمائل » . واجاب باستفاضة وزرارة :

— الموسيقى ينبغى أولاً أن تؤلف وتدوّن بالعلامات فى النوت ، وبعد ذلك فلتلحن أو تعزف أو ترقص كما تشاء . — وما هى الموسيقى التى ألفتها ؟

— كل أنواعها . الموسيقى الدينية : «الموجم التائب» و«مزامير داود» والموسيقى الدنيوية : «سارت الفتاة فسى القفاز» و«البرغوث» و«تسكن حمامتى الزقاة» و«الشمس الصغيرة» . . .

عند فاسيل سرجييفتش جميع المؤلفات الموسيقية الهامة المعروفة له ، والتي قد يكون جفوتوف سمع بها ، وكان يعتبر أن قسماً من هذه الاعمال العظيمة على الأقل لابد وان يكون من تأليف تشايفكوفسكى بالفعل ، والا فلا مبرر اذن لسلوك ناديه ناديه فيلاريتوفنا وغطرسية الموسيقار .

— يا سلام ! . . . دهش جفوتوف ، لكنه استقبله بلهجة صارمة — ولماذا لا يكتب الى السيدة ؟ أتعزف سيدة هامة مثلها !

— هو ايضا جنرال . . . ولكنه — وهنا خفض فاسيل سرجييفتش صوته وكأنه يخشى أن يكون للليل اذان — يغتنى فى القمار كل ما يملك ، وسيدتنا خصصت له معاشاً من أجل ذلك . اتري يا إيفان بروكوفيتش الموقر كم انا صريح معك ومفتوح القلب . او علمت السيدة بما قلته عن مرعيتها فسأقعد وظيفتى .

تحير أن إيفان بروكوفيتش بدأ وكأنه لم يسمع هذه الاعتراقات ، اذ كان يدير فى رأسه التقييل والكبير كالقدر فكرة ما . وتوصل اليها :

— طالما الأمر هكذا . . طالما تقول الحقيقة ، فسسوف تصل الرسالة . ان يصمد طويلا ، وسيكتب . ولكن متى ؟ تلك هى المسألة .

فتنهذ الوكيل وقال :

— نعم . . . ها نحن ايضا ننتظر . كل صباح نبعث الصبى الى البريد اذ لا نستطيع انتظار الساعى . وبطيس الصغير الى هناك كالطير ويعود مفرجاً ساقه وهو يبكي من بعيد .

فسأل جفوتوف شارداً :

— سأنرج قليلا .

— لأنه حينما سيضرب على قفاه اذ عاد شاوريا . . . مع انه ، فى الحقيقة ، لا ذنب له — قال الوكيل مصدراً حكماً عادلاً ، ثم اطلقا عقب السجارة فى الارض — اظن ان الوقت حان لنفهام ؟

فقال جفوتوف :

— سأنرج قليلا .

— ولم لا تمشى فى المدينة ؟ — قال الوكيل بحيوية — انها مدينة كبيرة ! لدينا هنا غير بعيد ، فى شارع تروبنايا ، شتى الملاهى وامكن الطرب والحانات ، بل ومطاعم حقيقية بالشمبانيا والشتطائر والكافيار . وكل المسائل الاخرى اذا ما رغبت . . . وعاد يخفض صوته الى درجة الهمس قائلاً : — وبخيرية تامة ، وهناك بيوت خاصة يعنى . . . يمكنك ان تستأجر غرفة ، بمنتهى الاحترام . عندك مثلاً دار المايوشين ، فى شارع سريينكا . . . ثياب صبيات وسيدات متزوجات ، واجناناً من النساء الرقيات .

فسأله جفوتوف عابساً :

— ومن أين عرفت ؟ أم تراك أرددت عليها ؟ ربما تريد صاحبتي ؟



— أنا لا استطيع . . هنا تعرفني حتى الكلاب . أما أنت  
فلست من هنا ، أنت زجل حر . . .  
فقال جغوتوف بلهجة قاطعة :  
— لا رغبة عندي ! سأقف قليلا خارج البوابة .  
فانحنى الوكيل قائلا :  
— كما تشاء .

. . . خرج ايفان بروكوفيتش من البوابة . وهبت ريح  
قوية ، وان تكن دافئة ، فحركت لهب المصابيح الغازية مما  
جعل ظلال المنازل والأشجار والأسوار تتراقص في حركة  
دائبة على ارض الشوارع الحجرية وعلى بلاط الأرصفة . واخذت  
الظلال ترتطم الى هذه الجهة تارة ، وإلى الجهة الثانية تارة  
أخرى وتتكاثر فوق بعضها البعض وتتداخل وتنفصل ، تبدأ  
وكان الشوارع نفسه يتأرجح على أمواج الليل . ولم يعجب  
ايفان بروكوفيتش هذا السلوك الطائش للشوارع فزاوخته  
تماما أي رغبة في التعرف على هذه المدينة الكبيرة والمزينة ،  
التي اجتمعت فيها كل هذه الثروات ، وكسل هذا الفهم  
والسليم ، حيث تعقد يوميا صفقات لا يحصى لها ، حيث يباع  
ويشتري كل شيء ، حيث يشتعل الضوء طوال الليل وتعرف  
الموسيقى ويسيل النهر انواراً ، حيث تتبدد في القمار ثروات  
طائلة ، وحيث تتوقف أمور التجارة والمعاملات على بضعة  
أسطر لم يرسلها جنرال موسيقار مقام الى السيدة حساسة  
عشيده ، أرملة أمهر وإجرا رجل أعمال في الأبراطورية  
الروسية . فأي شيطان دفعه هو ، جغوتوف ، الرجل المتزوج ،  
رب الأسرة ، التقى ، المعروف بدقته وصرامته في الأعمال ،  
الى وكر الشياطين هذا ؟ أفلا يحسن به ان يصفق على كل  
شيء ويرحل عائدا الى داره ؟ فما أكثر الأعمال الأخرى ، ولن  
تستطيع جمع كل النقود ، ينبغي ان تترك شيئا للآخرين  
أيضا . اذا خسرت هنا ، فستكسب هناك . . . ثم ما الذي  
خسره هنا ؟ حسنا ، فليكن قد أهدر أسبوعاً ، ولكنه في  
المقابل شاهد موسكو عندما استقل عربة من محطة كازان الى  
بوليفار للقيامه ، وسيكون بوسعه ان يحدث زوجته عن زلّين

الاجراس ، وعن كثرة الكنائس والسبلان الذهبية هنا ، عن  
الخبز المنتفخ الذي يخبزونه وغرابة ملابس الناس في موسكو .  
وماذا لو انه ذهب بالفعل الى دار ماليوشين في سريتينكا ،  
ليقتي الليلة هناك مع أرملة أحد الموظفين او الضباط ثم  
ينطلق عائدا مع برودة الصباح ؟ ولكن اشجار البوليفار  
القصيرة لاحت في الظلام قريبة تكاد تلمسها اليد وهي تفسر  
يمينا ويسارا ، فبدت له من جديد اشجار غابة باسقة  
عبلانة ، غابة يملكها عن استحقاق .  
وقرر ايفان بروكوفيتش في نفسه : « كلا ، سأنتظر يوما  
آخر ، فربما كتب لها هذا العازف ، وبعدها قد تتوضح  
الأمور . . . » .

. . . من نافذتها كانت يوليا تستطيع دائما ان تعرف هل  
اطلق النور في غرفة امها ام لا . وفي ذلك النساء نهضت من  
فراشها عدة مرات فلقا على امها ، ورات الضوء مشتتلا هناك  
حتى بعد منتصف الليل . ولكن البيت كان محكوما بقواعد لا  
يجوز مخالفتها ولو بدافع ارق شاعر الحب . فلم تكن تاذيжда  
فيلاريتوفنا تطيق ان يدخل عليها أحد غرفة نومها . ولم يرها  
أحد وهي مشبعة اثر الاستيقاظ سري وصيفة المخدم . اما  
بقية أهل البيت ، بمن فيهم هيدوتشكا الصغيرة ، فلم تكن  
تظهر امامهم الا في كامل زينتها ، وفكرت يوليا وهي تحمر  
خجلا : « وكيف كانت مسح أبي ؟ لا بد ان الظلام كسان  
يسعها . . . » .

اقتعت يوليا القبيحة نفسها منذ زمن بعيد باستئصاله  
الزواج السعيد بالنسبة لها . كما ان نفسها الآية النقية  
ولفتت امكانية الزواج عن غير حب . وفكرت باذعان : « لست  
وحدي في هذا الوضع . يبدو ان الحرب حكمة في وجود  
وعيدات ابتدأت امثالي . ربما ينبغي ان يكون تحت يده فاض  
حب ، يتصرف فيه حسب مشيئته » . بيد ان يوليا لم تلتق من  
السماء بعد ما يشير اليها بأن تهب حبيها للمعذبين ، بل كانت  
حتى لا تعرف بوضوح اين يوجد هؤلاء المعذبون ، الذين بدوا  
لها في صورة شعاع « هور بتروفسكي » الوقحين ، ومن ثم

فقد سكبت دقا روحها كله على أمها . لم تكن تحب أمها  
وتعجب بها فحسب ، بل كانت أحيانا تشفق عليها بعنف ،  
وتفكر دائما فيها . وفي القوة التي تعيا بها روحها وبدنها  
وقدرتها على بلوغ غاية التطرف في كل الأمور . ولم يكن  
العازف الشاب باخولسكي يعجب يوليا أبدا . ومع ذلك كانت  
تحس باتباعها الفاسيا تحت وقع نظراته المستسلطة ، فتفكر  
بالاعجاب المقرون بالرغبة في ذلك الحب الذي حملته أمها  
في الحياة على كتفها المستقيمين . ولم يكن مسرود ذلك  
والاعجاب الى اقدم فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، بشجاعة  
ويوعى كامل ، على ربط مصيرها بمصير رجل بالغ تماما  
وليس بسيطا ، مثل كارل فون ميك ، كما لم يكن راجعا الى  
ان أمها وهبت الحياة لعشرة آخرين غير يوليا ، بل كان راجعا  
الى ذلك الحب والبهجة والرعاية والقلق التي افقتها على كل  
واحد منهم ، دون ان تفقد شيئا من شخصيتها ، دون ان  
تفقد شيئا من اهتماماتها الخاصة ، البعيدة عن الأسرة  
والأطفال ( ما أهدت هذه العبارة ، عندما يكون المقصود بها  
شخصا كاملا ) .

بعد وفاة الأب ازوت (ام فيما يشبه الدير الداخلي . فكل  
ما كانت تنفقه سابقا بسخاء وسعة على الحياة الخارجية وعلى  
الزوج ، أصبح الآن مخصصا للبيت والأطفال فقط . ولكن  
تشددهما البالغ ، وتسلطهما ، وميلها المفاجئ الى استئثار  
حظي\* ، جعل الحياة في البيت أشبه بجو البلاط في عهد  
الامبراطورة آنا إيوانوفنا\* . كما كشفت في نفسها فجأة عن  
نوع من العجاجة ، كانت هي ذاتها تسميها «ميزانثروپيا» .  
ولكن هذه الكلمة الأجنبية التي تنطوي على مزيج من الكآبة  
وخيبة الأمل والافتراق والأزواء ، تحولت في الواقع أروى  
الى شيء يحمل دوايح الاقضية المستبعدة القاسية سباليتشنيخا .

\* تميزت حياة البلاط في عهد الامبراطورة آنا إيوانوفنا  
( ١٦٦٣ - ١٧٤٠ ) بالسلطانة الاطلياء ( كان الكونت بيرون ، حظي  
الامبراطورة ، هو المسيطر الفعلي على الحكم ) وبالتشكل بالمعارفين  
والخوف من استبداد الامبراطورة . المعرب .

كانت يوليا ورغم حبها الشديد لأمها ، وربما نتيجة لهذا الحب ،  
تراهما على علاقتها ، دون الوان وردية . وما كان أسعدها بأن  
تري أمها تستحق من التناء أكثر بكثير مما تستحق من  
الادانة . وبعد ذلك «اختترعت» أمها لنفسها تشايفكوفسكي  
فزلت عنها الميزانثروپيا كائما لم تكن . وابستمت يوليا  
لجراتها هذه في التفكير . فقد كانت تعرف ان أمها لم «تخترع»  
تشايفكوفسكي بل التقت به لقاء الروح بالروح . ولكن يوليا قد  
راق لها ان تطلق العنان لأفكارها . ومن جديد عاد جو المرح  
والانطلاق والموسيقى الى البيت . ولم تكن يوليا اقرب من  
أمها في يوم من الأيام مثلما في «عهد تشايفكوفسكي» ،  
فشعرت لاراديا بالامتنان له على هذا التقارب ، رغم ان الغيرة  
كانت تتحرك في قلبها جنباً الى جنب مع المشاعر الطيبة .

كانت أمها تعطيها رسائل تشايفكوفسكي لثقتها ، وكثيرا  
ما تقرأها معا ، ومما تعرفان موسيقى تشايفكوفسكي وتغنيان  
اغاني الرومانس التي وضع موسيقاما ، وتتحدثان عنه .  
وسرعان ما كفت يوليا عن الغيرة من الوجود الدائم للشخص  
ثالث معها . فلم يكن حبها لأمها انانياً ، كما أنها عرفت بأمز  
الاتفاق المبرم بين أمها والموسيقار بالا لثقيا أبدا . وربما  
لو تجسد هذا الشبح الرقيق واسمح بجوار أمها كيانا حياً  
بكل جلاء خسرته الواقعية - بلحيته وشواربه - لما كان  
موقف يوليا منه متسامحاً كما هو الآن .

ومع ذلك فقد اهتز موقفها من تشايفكوفسكي بشدة في  
الآونة الأخيرة . قبل كل شيء شعرت يوليا بالامانة من ان  
بيوتر ايليتش ربط بصورة محرجة في رسالته بين عزمه على  
اهداء الميمفونية الرابعة الى ناديها فيلادوثوفنا وبين طلبه  
مالاً . فهذا الأمر أشبه بضقة تبادل . ولكن غضب أمها منها  
وتفكيرها الخاص اقتناعها بأن الموضوع اللين لهذا العرج انما  
يبرز ساحة بيوتر ايليتش ويدل على سذاجته التي تكاد  
تبلغ سذاجة الأطفال . ولذلك فقد كانت يوليا صادقة تماما  
عندما سألت أمها ان تسامحها على سوء ظنها بتشايفكوفسكي .  
صحيح أنها لم تحظ بالرضى ثانية اذا أباحت لنفسها ان تتحدث

عن تشايكوفسكى كانسان فان ، بينما هو ، كما ظهر ، إله لا تسرى عليه أحكام البشر . وإذا كان إليها حقاً ، فهو إذن إله قاس ، لأن روحاً سامية متحسنة قد أسلمت له أرمها بينما هو ما ينفك يلقي بها فى برائن اليأس العرة تلو المرة . . .

ففى البداية كان هذا الزواج الأحق ، ثم تبعه ذم عصبي يكاد يكون هستيرياً على ما فعل ، وبعد إشارة الضيق القصيرة التى حملت معها ملامح تشايكوفسكى السابق ، خالتي النعم ، تفجر الأسى المريع . من جديد ، ثم الإذعان المفاجئ للقدرة والاستعداد للتسليم بما حدث ، وأخيراً ما هو يغتفى فسى المجهول ، وظلمت أمها تنتظر شيئاً ما ، ولم تطلع يوليوا على آخر رسالة لتشايكوفسكى ، بل قالت فقط بصوت أصم إنها تمنى له السكينة طالما لم يوفق إلى بلوغ السعادة ، فالوئام السيسى أفضل من الخصام الفليب . وفى هذه العبارات المبتذلة ، الغريبة تماماً على ناديجدا فيلاريتوفنا ، تبثت دلائل الاضطراب الروحى . وحتى هذا لم يكن مخيفاً مئلاً هي مغيلة حالة الارتباك التى أصبحت فيها الآن . وقد بدأ هذا ما أن عادوا من إيطاليا وتجاوزوا عتبة البيت . كان البريد أول ما سادت عنه ناديجدا فيلاريتوفنا ، فحصلوا إليها كل الرسائل التى تجمعت أثناء غيابهم . وقلبت الرسائل على عجل ، وما أن اكتشفت عدم وجود رسالة من تشايكوفسكى ، حتى انهارت روحها على نحو يكاد يكون محسوساً ، ترى لماذا كانت هذه الرسالة مهمة لها إلى هذه الدرجة ؟ وعوفا ما الذى يمكن أن يكون فى حياة السيد تشايكوفسكى ، حتى يمس أمها بهذه الصورة المؤلمة ؟ أليست فى نهاية الأمر تهتم به اهتماماً موسيقياً محضاً ، وإذا كان اهتماماً ودياً فهو أيضاً من خلال الموسيقى . على العموم أمها دائماً ما تبلغ حد التطرف سراً ، فى دوماً أم بعضها . لقد أنزل تشايكوفسكى ضربة بكرامتها . إذ زج فى العلاقة بينهما بأمرأة سوقية حمقاء تافهة . وهذا شئ كرهه ، ولكنه ليس مهيناً أبداً . فليس هناك ما يهدد حياة بيوتر إيليتش وصحته على الإطلاق . وليس لمخاوف أمها وغداها أى أساس ، بل مبعثها فقط طبعها الجامع الجبار .

فالصورة التى اخترعتها للسيد تشايكوفسكى لم تقف على قدميها ، واتضح أن تشايكوفسكى الحقيقى أكثر تعقيداً وعكارة وفوضى بكثير . ولم تكن أمها تحتمل الاستقلالية المفرطة حتى لدى الأشخاص غير التابعين لها ، ومن هنا كان خلافها الدائم مع روبنشتين المتشدد . أما لدى الأشخاص التابعين لها - معنوا أم ماديا - فلم تكن تطبق هذه الاستقلالية أبداً . ذلك إذن هو السبب الحقيقى لعذاب أمها . . . هكذا قررت يوليوا فى نفسها وقد أوجعها قراسمتها هذه ، وتوصلت إلى قرار مشرف لروحها الطيبة : بأن تأخذ على عاتقها كل شئ . ستكتب هى نفسها إلى تشايكوفسكى حتى لو كان ذلك غير لائق . يبدو أن الأقدار حكمت عليه بأن يتلقى رسائل من نساء مجهولات . ستقول له شيئاً واحداً : لا تكن قاسياً ، وسيفهم ويسرد ، فتستعيد أمها لعبتها المحظومة . . .

. . . أخطأت يوليوا إذ ظنت أن ناديجدا فيلاريتوفنا تكابد الأرق . فقد غابت فى نوم مفاجئ كالانغماس ولم يكن هنسك متسع لاطفاء النور . لم يكن ذلك حتى نوما بل نوعاً من الوجود الجديد . وبكت فى العلم بدموع حقيقية وأحست بعيوونها المبللة ، وكانت تصرخ فتسمع صراخها . وكما لو كان يجرى لها فى هذا العلم كانت تحسه احساساً جسدياً ، وعندها استيقظت ظلت تشعر فى عظامها وعضلاتها بما كابدته .

بدت لها موسكو ، ذات مساء متأخر بارد ، رياح قارسة ومطر دقيق القطرات لاذع كالسياط ، وكان بيوتر إيليتش ، فى معظم أسود طويل بياقة مرفوعة وقبعة من الجوخ مسدلة بشدة على عينيه ، يجرها إلى جهة ما بقوة والحاج ضاغطة على مرفقها بلا كلفة . وشعرت ناديجدا خيالاريتوفنا بالمساعدة وبقدر من الزهبة لاندفاعته المسلسلة ، وأودت أن تعرف منه إلى أين هما ذاهبان ، ولكنها لم تعرف كيف تسأل ، وكانها نسيت كيف تلفظ الكلمات . أما بيوتر إيليتش ، وقد فطن إلى السؤال الذى لم يطرح ، فراح يردد بصبيحة : « ضرورى ! » « ضرورى ! » ، « ضرورى ! » - وأخيراً تمكنت من انتزاع الكلمات : « لماذا ضرورى ؟ » . ولكن مرافقها لم يرد عليها ،

وسرعان ما بلغا مباني عالية جمة كانت في الوقت نفسه كنائس ومسارح . وهناك كانوا يقيمون صلاة المساء ، ولكن القائمين عليها لم يكونوا قسسا بل مصليين ، وإمام المدخل كانت تباع تذاكر ، ولكن ذلك لم يثر دهشة ناديجدا فيلاريتوفنا التي كانت تتوقع شيئا مشابها ، بقدر ما عزز هواجسها المنفرة بالنساء . واكتشفت فجأة ان الكنائس صامتة ، والصمت المطبق يلف كل شيء ، «الاصوات ماتت !» - قال تشايكوفسكى بنفاد صبر وبهز من العصبية وقد خمن سؤالها مرة ثانية . «الا تعرفين حقا ان الاصوات ماتت ؟» . وكانت تعرف ذلك ، ولكنها لسبب ما اخفته عن تشايكوفسكى ، وعن نفسها . فقدت جميع الكينجيات والشيللوات والنايات والأبواق والقرنات اصواتها ، ولم يعد مفتاح معزف واحد يلد صوتا ، ولم تعد اى حنجرة تلد أغنية . ماتت الموسيقى لانه قد وقعت خيانة . ولم تستطع ان تتحدى اى خيانة هذه . لقد ماتت الموسيقى في بيوتر ايليتش ، ولهذا شمل الصمت كل ما حولها . ولان كل جوهري فقد شكله ظهرت تلك الكنائس - المسارح الرهيبة .

ولم تدمر عندما تمددت كتل المباني السوداء الضخمة وكأنها ذابت في الفضاء ، اما هما فقد وجدا نفسيهما بجوار مياه سوداء ثقيلة كالزيت . وعلى الفور عرفت فيها القناة - فرع نهر موسكو ، كما عرفت المكان : قرب بولشايا بوليكتا وراء الجسر الحجرى الصغير ، وعلى خلفية الغسق الذى اطبق فوراً تبدي واضحة الركن المدور لذلك البيت الغاص فى الأرض الذى يقال ان باجيتوف \* هو الذى بناه . كان كل ما هنا مألوفاً كما فى القفلة : برج الاطفاء العالى فى آخر الشارع ، والصيدلية فى البيت المواجه لبيت باجيتوف ، وفصباح الشارع على الناصية . وسارت نحوهما راهيتان بغطوة رجالية فظة ، وهما تكنسان الأرض الحجرية المبللة

\* فاسيل باجيتوف (١٧٣٧-١٧٩٩) معمارى روسى ، أحد مؤسسى المدرسة الروسية المعمارية الكلاسيكية ، المهرج .

بذيل مسوحهما الثقيلين المتسخين ، وكانت أيضاً تستميان الى عالم الواقع البائس ، مثلهما مثل مشوه الحرب الذى كان يحاول اشغال غليونيه بواسطة قذاحة شرر ، مخبئاً الفئيل الملهته تحت ذيل سترته . وفي الوقت نفسه كان كل ذلك : المطر والريح ، وبرك المياه ، والكورنيش ، والصيدلية ، والراهيتان ومشوه الحرب . رموزاً لوجود آخر ، بانس مقفر ، لم يبق فيه شيء يستحق من اجله الحياة . وفجأة اذعنت للمقدّر المحتوم ، وغذت الغطل فبلعت السلم الحجرى الهابط الى المياه قبل تشايكوفسكى . كان الماء يبتقي بصورة كريمة وكان النهر يخصص بشفتيه الغليظتين اثر الاستيقاظ . وكانت هناك اشياء تسبح فى المياه المظلمة المعركة العظيمة : قطع خشب ما ، وعلب معدنية فارغة ، وجثث حيوانات صغيرة ، وغيرها من قاذورات المدينة ، وهى تتقلب مندفعه مع التيار لكي تذهب فى البحر فى نهاية الرحلة .

تقدم بيوتر ايليتش المتخلف قليلا نحرهما بغطوة غريبة راعشة ، وكأنها اصابه تقلص عصبى ، ونزع قبعته وقفازيه ومدها اليها هى وعصاته ، ودهشت ناديجدا فيلاريتوفنا : لماذا يفعل هذا ، فقال لها بيوتر ايليتش بنفس اللهجة العصبية : «لا تعلمين حقا انه ينبغي تسليم القبعة والقفازات والعصن الى المشجب ؟» . فسالت ناديجدا فيلاريتوفنا بوجل وبلا معنى : «والمعلق ؟» ، فاجابها بيوتر ايليتش بعدة : «لسنا فى مسرح ! ليكن سلوكك مهذبا !» ، واندفع فجأة يهاجم كارل فيودوروفتش فون ميك ، الذى لم يكلف خاطره طوال هذه السنوات من الحياة المشتركة بان يعلم زوجته كيف يكون سلوكها وهى تشهد انتحارا . وقال متهمسا : «مهندس اوستقراطى !» ، واضاف بسخرية شيطانية «ارستقراطى الثانى !» . وفكرت ناديجدا فيلاريتوفنا فى أنه كان من الممكن ان يدع زوجها وشانه ، ولكنها بشكل عام كانت معجبة ببيوتر ايليتش فى هذه اللحظة ايما اعجاب ، اعجبها حتى فى تقريره المتطور وغير المبرر . للارستقراطيين ذوى الاصل الألمانى ، الذين ارتكبوا عفووات جسيمة فى تربية زوجاتهم ، كان بيوتر



إيليتش يبدو رائعة ، . أطول وأرق مما كانت تظنه ، وقامته  
أنحف وأدق ، ووجهه أحمر وأخشن . كانت فيه ملامح رجولة  
وظفر على الرغم مما ينطوى عليه العمل المقدم على ارتكابه من  
ضعف . وسحر ذلك ناديجدا فيلاريتوفنا الى درجة انها لم تحاول  
ان توقفه أو تشفيه عن عزمه .

اما بيوتر إيليتش فقد نزل الى النهر . وفي البداية جنس  
البياه يقدمه المعتلة حذاء لامعاً ، مثلما يفعل المستحقون  
الخالطون من نزول الماء ، ودمدم بشيء أشبه «إبر-ر-ر» .  
ثم راح يغوص تدريجياً الى عرقوبيه ، ثم الى ركبتيه ، فإلى  
فخذيه ، وما هما ذللاً المعطف الطويل يعومان حوله . وشعرت  
بلحمها ودمها كيف ترتفع البرودة القاتلة من قدميه الى بطنه  
فصدره . وضى بيوتر إيليتش متقدماً ابعد فأبعد وهو يغوص  
أعمق فأعمق ، مبيداً عنه الألواح العظيمة والزجاجات الفارغة  
وعلب الكارتون في تقزز . وهنا أدركت ناديجدا فيلاريتوفنا  
أخيراً ان بيوتر إيليتش سيغيب الى الأبد ، سيختفي تحت  
المياه ليطلق في مكان بعيد عن هنا ، وستجعله المياه السوداء  
اللامائية هو أيضاً الى البحر . فصرخت صرخة رهيبية حادة ،  
والتفت بيوتر إيليتش نحوها خائفاً وقال : «استكني ! الشرطة  
قد تسمعك !» ، ولكنها استمرت تصرخ حتى انقلبت صراخاً  
وراث ، وهي مستيقظة ، تشايفكوفسكى يسير نحوها ميلاً  
غاضباً . وقالت ناديجدا فيلاريتوفنا في نفسها : «لقد انقلبت»  
واستيقظت تماماً . ولم يبد لها الحلم غريباً الى هذا الحد .  
فقد كتب بيوتر إيليتش في رسائله عن عزمه على حل كبل  
العقد بالموت . وكتب كوليك العالم بكل الامور ان بيوتر  
إيليتش قد حاول ان يصاب ببرد حتى يموت ، ولذلك فقد  
غاض بالفاعل في نهر موسكو ليلاً حتى رقبته . فلماذا مرت  
ناديجدا فيلاريتوفنا على هذه السطور بتكثيرة شاردة متفرقة  
ولم تعرها بالا وهي التي تولى مثل هذا الاهتمام لكل ما يتعلق  
بتشايفكوفسكى ؟ كان ينبغي عليها أن ترى في هذا الغبر  
كناية عن الدرك الأسفل الذي بلغه صديقها المزين . وما كان  
ينبغي في هذه الحالة ان تلجأ الى التجريد ، بل تستكشف

الجوهر البسيط والعرب . تشايفكوفسكى لم يحاول أبداً ان  
يصاب ببرد في مياه نهر موسكو الدافئة ، بل أراد ان يغرق ،  
ويصفى كل حساباته مع الحياة الحقيرة . لكن شيئاً ما أخافه ،  
وجعله يسرع بالخروج الى الشاطئ . «صرختي هي التي  
منعتني - هكذا قررت ناديجدا فيلاريتوفنا - روحى هي التي  
صرخت ، روحى التي تشبه خفية . . .» .

سيستفعل فيما بعد ان صرخة ما هي التي أخافت بيوتر  
إيليتش بالفعل . فقد سطا الاشياء الكثيرون فسى هذه  
الشاحبة من المدينة على أحد المارة ، فصاح هذا عالياً  
مستنجدا بالشرطة . وكان بيوتر إيليتش يخشى الى حد  
الرعب جميع ممثلي السلطة ، وخاصة البوابين ورجال الدرك ،  
فانسرع بالخروج من المياه في الوقت الذي لم يكن يفصله  
فيه عن العدم سوى نصف خطوة . وعندما علمت ناديجدا  
فيلاريتوفنا بذلك أمنت تماماً بان تلك الصرخة المنقلبة كانت  
صرختها ، رغم انها دوت متعرجة من حنجرة عابر تعرض  
للسطر . فإذا كان الاله جوبيتر لم يتورع عن ان يتحول الى  
ثور من أجل بلوغ اغراضه الغرامية ، فلم لا تستخدم  
ناديجدا فيلاريتوفنا لغرضها الغيبي حنجرة أحد البسطاء ، لكي  
تنفذ تشايفكوفسكى . . .

فلما كان هذا الحلم الغريب ناديجدا فيلاريتوفنا بعض  
الشيء . كلا ، ان بيوتر إيليتش لم يبلغ قط في تقصير  
غذائه مع هذه المرأة . ولم يكن مخطئا إلا في اعتقاده  
بإمكانية العيش معها فترة أطول . اما في الزفاف فلم يكن  
ثمة مجال لاتعاض جديد . ولسوف يعود اذن الى صديقه  
الحقيقي . وستصل رسالة ، حتماً ستصل ، مع أول بريد  
قادم .

.. ثمة شخص آخر في هذا المنزل قضى ليلة سيئة ،  
دون ان يحمّل له الاستيقاظ عزاء . ذلك كان إيفان  
بروكوفيتش جفونوف . منعه من النوم تفكيره فسى ابنائه  
اخته الامللة الفقيرة ، الذين أوكل اليهم أعماله في شبابه .  
وظل طوال الليل يفكر بأسى وغضب : ترى كيف يسيرون

الاعمال هناك بدونه ؟ وكانت أعمال جفوتوف وممتلكاته كثيرة . . فلهذه في إحدى الضياع مزرعة خيول ، وفسي الأخرى ورشة قطران ، وفي الثالثة يجري بناء معمل نسيج ، وعلاوة على ذلك كان لديه ثلاث حانة . ولم يكن أبناء اخته يبداء ، فجميعهم ، الأربعة ، رجال كبار ، متزوجون ، وأفرو الأبدان ، بجهاء ضيقة ، ووجنات بارزة وعيون كالشقوق ، ورغم هيأتهم الوحشية كانوا يتميزون بخيست نادر . وكان إيفان بروتوكوفيتش يحكم قبضته الفولاذية عليهم ، شحيجا في مكافأاتهم ، ومع ذلك جمع كل منهم رأس مال يكفي للبدء بمشروع خاص . هذا بينما لم يكن يتركمهم بلا رقابة لاكثر من يومين أو ثلاثة . اما الآن فقد طالست غيبته اسبوعا الا يوما ، وفي مثل هذه المدة يستطيع حتى من هم اقل منهم شطارة تحقيق الكثير . بالطبع ان يصيبوه بخسارة مباشرة ، فليسوا بالاعبياء ، ولكنهم قد يستغلون هذه الغيبة فيدسولون انوفهم عميقا فيما لا يتنبهى ان يعرفوه . ففى عالم الاعمال كثيرا ما يحدث ان يتحول الشخص القريب ، صديق وشريك الامس ، الى منافس وعدو لدود ، وابناء اخته لا ضرر منهم طالما هم هكذا ، فلا ينبغي اذن ان يطلق ايديهم . ولذلك امر جفوتوف على ان يقبض الوكيل الى السيدة قبل وصول البريد . ففى الآن منتعشة بأمال الصباح ، وقسده شبعتم يوما ، ولم تجلس الى المعزف بعد ، واذا فقد يوفق ففى سعجه على اللور . انه يعرف كيف تجيد ناديجدا فيلايتوفنا حسم الامور بسرعة ودقة وحزم .

كان الوكيل يغشى الذهب خضية الموت ، ثم خطر له فيما بعد انه من الممكن ربط بيع الغابة بتصليح مصنع السكر ، الذى كتبت عنه ناديجدا فيلايتوفنا وهى بعد فى ايطاليا ، ثم تسميته تماما بعد عودتها مثلما نسيته كل ماعداه من امور لا تثل استعجالا . ورسم الوكيل علامة الصليب وتوجه الى جناح السادة .

اما جفوتوف فضى الى غرفة الخدم ، هناك كان يجلس

الصبي فانكا ، ابن الطاهية والعاجب ، هرمس \* هذا البيت ، الذى كانوا يرسلونه الى البريد كسل صباح دون انتظار للساعى الاعرج البطي . وكان هذا الصبي سريع الساقين ، نشيطا ومتعلما .

— لم تذهب بعد ؟

فاجاب الصبي :

— ابدأ يا سيد جفوتوف .

— اذا اضطرت رسالة مستحصل على ربع روبل — وعده جفوتوف ، ولسبب ما هدهد بقبضته الثقيلة الحمراء الفصح . اذهلت ضخامة المبلغ فانكا فقرر الا يجلس فسى خيول منتظرا رحمة القدر . فبطاقة الدخول الى الملبى حيث يعرضون عروس البحر تساوى عشرين كوبيكا . اما بالخمسة كوبيكات الباقية فيمكن شراء لدائن وحلوى مطاطية وسكريات . يا لها من فرصة ! . . . حصل من ابيه ، العزيز بسرائل الذهب ، على ورقة وجبر ، وانتهى جانبيا فى الفناء ، وشعده كل صفوفه الدوامية الثلاثة قدبج رسالة . سيسلم هذه الرسالة الى جفوتوف مقابل ربع الروبل ، وبعدها سيختفى عن نظر الناصر ان ان يرحل . وهذا فسى حالة اكتشاف السيدة فون ميك للتزوير . وما هو ما كتبه : «عزيزتى نادى ! ابلغكم فى بداية رسالتى اننى يعيز وبصحة طيبة واتمنى لكم مثل ما انا فيه . انا اولف مختلف انواع الموسيقى الجميلة وخاصة الدينية ولا لعب القمار الا قليلا وفسى صحبة ممتازة . ومن عندنا يهودنكم السلام ويتمنون لكم السعادة والغز فسى جيانكم . صديقكم العزيز السيد تشايكوفسكى » .

وطوى الورقة تصفين ودسها فى عبه . واعتد الطاقية فى رأسه وركض الى البريد ، فربما واتاه الخلق فجاء برسالة حقيقة من تشايكوفسكى ، واذا لم يكن فسيفلق رسالته هو

\* هرمس — رسول الالهة عند الاغريق وله الارض والتجارة والربح وحامي المسافرين ، يعامل الاله ميركوري عند الرومان ، الهعرب .

ويختصها . في الحقيقة لم يركض . فقد كان لديه متسع كاف من الوقت ، قضى على مهل فنى الشارع الملى بشتى المعريات . سار بخطوة كسلى بطيئة كما يستلجم جميع صبيان موسكو حتى عندما يقبل لهم : هيا ، رجل هنا والثانية هناك . وكان فانكا موسكوفيا حديثا ، فمنا عامين اخذ الحاجب ابنه من القرية وجاء به الى موسكو . سار الصبي صاعدا مع البوليفار المرتفع ، ومتنع نظايره بالجمام ، وتفرج على فلاح يجلد حصانه النحيل الذى يجر حمل حطب ويقف على ويتلوى مغالبا المرتفع الوعر ، وكاد الصبي يعض فى اثر موزع فواكه يحمل صندوق تفاح وكشرى بيضية وبرقوق مرمرى على رأسه . وتوقف بالقرب من شحادة عمياء ، وظل طويلا يحذف فى وقبى عينيه العميقين ، حيث يلوح شقان ضيقان دامعان ، محاولا ان يفهم هل هي حقلا لا ترى ام انها تتظاهر . واثناء وقوفه كانت قطع معدنية تتساقط برنين فى كور الشحادة . فقالت الشحادة بصوت غليظ : «ما لسلك تجملق ؟ امش فى سكتك !» فابتعد عنها وهو يحسب فى ذهنه المبلغ الذى ستجمعه فى اليوم اذا كان قد القى اليها ستة غروشات وكوبيك اثناء الدقائق الثلاث او الاربع التى وقفها بالقرب منها . وظهر ان المبلغ كبير الى درجة انه اعاد الحساب عدة مرات لكي يقتنع اختيارا بضخامة دخل هذه العجوز . وحتى لو طرحنا ايام الصفيح والمطر ، عندما تخلو الشوارع من المارة ، فان مهنة الاعمى هي اكسب مثلا من مهنة الخادم او الحاجب او الساعى . وكلها اكثر ملاءمة . . . اذ عليك ان تقف كالقيد ، وتقلب عينيك ، وتتشكى بصوت رفيع مستعطف . عندئذ تفقد كل رغبة فى التفرود .

بلغ فانكا بوابة سريتينكا ، حيث اصممه صخب الزحام وصري عربات الجر ووقع حوافر الخيل وطلقة الخناطين ، وقرقة البراميل المتدحرجة الى انبية خيمسور الاخوة بيرغوشكوف الواقعة خلف ناصية البوليفار مباشرة ، وصراخ باعة الحلويات والفواكه . وغاص فى الحشد كما يغوص فى بركة ، مبتهجا بالهياح الذى لا معنى له ، وكانها كان الجميع

تحت تأثير نشوة الخمر ، فانشى هو ايضا من الزحام والروائح والصخب ، ومن الثقة التى تملكته فجأة بأن ربح الروبل اصبح فى جيبه وسوف يرى عروس البحر وياكل الدنانير والمطاطة والسكريات حتى الشمع . ووصل الى البريد متملئا بهذه الثقة البهيجة ، ودخل المكتب المشيع برائحة الصمغ ، وعرف انه لا توجد رسائل للسيد فون ميك . وتخل هذه الصدمة الى لم يكن بسهولة فبحر غيصر طبيعى . وابتاع مطروفا وطابع بريد من ارض فنة يحصل صورة التاج القيصرى . وطلى قطعة تقود بالخبر وطبها عدة مرات على قصاصة صحيفة التقطها من الأرض ، ثم ختمها بالقطعة على طابع البريد ختما باصم اللون . وكتب العنوان حسب الأصول : «موسكو ، بوليفار القيامة ، الى صاحبة المعالي السيدة فون ميك فى دارها الخاصة» . وخيا الرسالة فى عبه وعاد ادراجها من نفس الطريق . . .

. . . اثناء غيابه طلرد الوكيل ثانية من مكتب السيدة فون ميك . كانت تبدو هذه المرة فى حالة الطف ، وكانت مستكنة ، مستغرقة فى ذاتها ، وكانها تقرر خفية مسألة هامة بالنسبة لها . ولم تسأل حتى عن البريد ، واشارت للوكيل ليجلس وجلست هي قبائله ، الى طاولة صغيرة من خشب مطعم . وبدا انها سعيدة اذ وجدت ما يشغلها عن افكارها ، كما ان منظر طاولة الكتابة التى وثقت عليها العديد من الاوراق الهامة ، انعش قلب فاسيل سرجيفيتش ، فانكب خطا لا يغتر . كان ينبغي ان يبدأ فوراً بشرح المسألة الرئيسية : الا ان الخطة الماكرة التى اقراها جنوتوف كانت مسيطرة عليه ، كما ان همة ناديجدا فيلاريوتوفنا كانت تشجع على التمهل ، فراح يتحدث عن تصنيع مصنع السكر . ولم يكن قد فرغ من هذا الامر عندما قالت ناديجدا فيلاريوتوفنا بارهاق وهدهو :

- حسنا يا سرجيفيتش ، انا اعرف هذا كله ، وكتبت لك بان تبدأ وأنا بعد فى الطريق . فلماذا تزعجنى بهذا مرة اخرى ؟ الا ترى اننى متعبسة ولا وقت عندي لك ؟ يا

إلى / أيم / هذه السنة في قلوب الناس : لم ؟ - قالت  
 بيرة هزت الوكيل حتى أعماق روحه وحركت النوع فسي  
 عينيه .  
 إن للبلوي الحقيقة قدرة على تخريك حتى أغلظ  
 القلوب . ولم يكن الوكيل من ذوى القلوب المتحجرة أبداً .  
 وقد بذل مجهوداً هائلاً ليكتب في نفسه ضعف العطف  
 الإنساني المحض على السيدة فون ميك ويضئ إلى قايته .  
 - اننى أتعجب من إعجاز سعادتك لانه قد جدّ ما  
 يستدعى المزيد من التفات . وفي ضوء هذه الظروف أرجو  
 ان تولوا اهتمامكم للعرض الذى تقدم به التاجر من الطبقة  
 الاولى السيد جفوتوف بخصوص شراء الغاية . . .  
 كانت ناديهدا فيلاريتوفنا قد كتبت من وقت طويل عن  
 سماع ما يقوله الوكيل وقد غاصت من جديد في ليلى  
 افكارها . لكن كلمة « الغاية » المألوفة ، التى ارتبطت فسي  
 توافق زمنى بحث بصمت تشايتكوسكى ، وبكل ما تعان به من عقاب ،  
 اشتريت جدار عدم اهتمامها وسقطت كثرارة في  
 قبو بارود .  
 - اخرج عيني هنا : - قالت وقتئذ عيها شخوب  
 السماع .  
 وخرج الوكيل ، وفي يده قلم قديمه عن الطرقة ،  
 ناسياً تماماً ان السيدة لا تطيق صوت احتكاك الاقلام ،  
 وتحول تفكيره الآن ، لسبب ما ، الى ذلك المنشور الذى  
 ألقاه مجهول عند قبلي في ليلى الدار . ومرة هو في غضب ،  
 والى به في المدافاة ، ساخناً على الامبالاة الشرطية وتغاضيها  
 عن التصدي لهذه الدعوات الهدامة . كان في المنشور كلام  
 عن سلطة القصر واكل من يزيد العرش واستحتاج بضرورة  
 القضاء عليهم . وفكر فاسيل شريخيتش في ان المنشور ،  
 رغم حماقته ، فيه شيء من الانصاف . فلان فون ميك تحمل  
 غلظ لبقا ارسنتراطيا فانيا تبيح لنفسها عدم استقبال شخص  
 مثل ايفان جروكفيتش جفوتوف الذى لا تساوى بالنسبة  
 له من حيث الطهارة والمهارة ، قلامة ظفر . يستغل روسيا

متخللة عن الدول الاخرى الى الأبد . ما لم تتغير المظلم  
 ويصل الى السلطة رجال مثل جفوتوف . وهكذا توصل  
 الوكيل ، دون ان يسدوى ، الى ادراك ضرورة الثورة  
 البرجوازية في روسيا ، أى حقق طفرة هائلة في تطوره  
 الذاتى . . .  
 . . . عند عودة فانكا من مكتب البريد عثر على الفور على  
 السيد جفوتوف المنتظر عند البوابة .  
 وقبض جفوتوف على كتف الصبي التحيلة ، ومتسلف  
 ضارعاً بوعيد :  
 - مه ؟

وأحس الصبي بثقل ذراع جفوتوف فلم يجرؤ على التفوه  
 بكذبه .

وهو جفوتوف الصبي في غضب فستملت رسالة من تحت  
 قميصه . واخفى جفوتوف فالتقط الرسالة وأخلى سبيل  
 الصبي . ولكن هذا لم يفكر حتى في الحرب . كان الشيق  
 الى معرفة رد فعل جفوتوف على ما كتب اقوى فيه من  
 الخوف .  
 فحس التاجر الرسالة ، قلبها بين يديه ، وعرضها  
 للنضوء ونظر ، وكاد يشمها ، ثم توقفت نظراته على الختم  
 فمرق المظروف مطبقنا ، وقرأ الرسالة وهو يحرك شفتيه  
 ببطء .

وسال الصبي دون ان يتسم :

- امقول أنت كتبها ؟ مكتوبة جيداً . . . وفي حركة  
 متناقضة لهذه الكلمات نقر الصبي ثلاثاً على جبينه بعظمة  
 سبابته المثنية .

واراد الصبي ان يلتصق ، ولكنه اكتشف مندهشاً ان  
 النقر لم يسبب له ألماً ، وكان اقرب الى التشجيع منه الى  
 العقاب .

قال فانكا مستجيحاً شجاعته :

- فضيل يدفع ربيع وروبل .

- فاذن : 1-5



وارتفع جفنا جفوتوف الثقبان المسدلان فكشفا فجأة عن  
بحيرتين زرقاوين .  
وتجرا فانكا فقال :

« طبعاً . الشرط ثور . وعدتني بربع روبل على  
الرسالة . »

وقال جفوتوف وكأنه يحدث نفسه :

— هذا الجرو لديه موهب كبيرة .

ودس يده في جيبه .

— لن اعطيك . . — قال جفوتوف — جزاء لك على  
مفوتك ، لن اعطيك . هذه الأعمال ينبغي اداؤها بدقة .  
بعيت لا يكون فيها أى عيب . أما أنت فطبعيت الختم فى غير  
الموضع المطلوب .

ولكن العلاقة بين فانكا وجفوتوف لم تنته عند ذلك ،  
لقد اعجب جفوتوف بمواهب الصبي الذى أبدى فى هذه  
السن المبكرة مثل هذه المهارة العملية الفسفة ، قرر أن  
ياخذه معه ، فمن الجيد أن يكون لديك شخص قريب موثوق  
به وذكى ، مدين لك بكل شئ ، فانت الذى رببته ورفعته .  
وللأسف فقد قسا القدر على إيفان بركوفيتش اذ وهبته  
إيشين داجيتين وابنا أبله ، البنات لسن مشكلة ، فسوف  
يزوجهن ، ويعطى البائدة المطلوبة لكل منهن وانتهينا .  
المصيبة عندما تجرى فى عروق ابنك دماء غريبة ، عندئذ لا  
تعنى أعمال الأب وموومه له شيئاً ، لا اهتمام ولا احترام !  
وكم ضربة أبوه ، وكم سجنه ، وكم هذه بفرمانه من  
الميراث ، فلم يجد ذلك شيئاً ، وهو الآن فى السادسة  
عشرة ، ولكنه لا يفعل سوى أن يجمع شتى الهوام  
والفراشات ويثبتها بالدبابيس فى العلب . النظر اليه يثير  
القرق ، وإمام الناس تشع بالهجل . وباختصار فهذا الولد  
سطر مشغول من العمر . أما أبناء الاخت فلم يكن جفوتوف  
يفكر فيهم أثناء غيابه الا بغضب . بالطبع هو يستخدمهم كما  
يشاء ، ولكنه لن يبتقيهم الى جواره ، فهم غربان منكون !  
عندما تعيش الى جوارهم ، جنباً الى جنب ، لا تلاحظ ذلك ،

ولكن على البعد يبدو كل شئ واضحاً . أما فانكا هذا  
فسيصبح بعد سنت أو سبع سنوات ، لا غنى عنه فى جميع  
الأمر . ودون أن يؤجل الموضوع تحدث جفوتوف فى نفس  
اليوم الى والدى فانكا : الحاجب القمى المتفخخ الأوداج ذى  
السوائل الهائلة المعسولة جيداً ، والطاوية السوداء الاشبه  
بالغراب ، التى تعد الطعام للخدم . وبالطبع لم يجد والدان  
ما يعبران به عن شكرهما للتاجر الكريم .

بحرود الاعوام سيصبح إبن جفوتوف عالماً كبيراً ،  
عضواً باكاديمية العلوم الروسية . وسيطلق اسمه على ثلاثة  
أنواع من الفراشات وعلى فصيلة من خنافس الخشب وعلى  
ذبابه جميلة زمردية ناقلة لعنوى جذبية ، وستدرس كتبه  
لطلبة الحشرات . . . أما فانكا فلم يصعد نجمه . . . لقد  
أخطأ جفوتوف فى تقديره له . إذ انصح أنه ذو شخصية  
مزعجة وذهن شارذ ، يهوى مصاحبة الغلمان وضروب اللهو  
والكأس والقليقارة . وهكذا ظل وكيل أعمال عادي ، لا يتميز  
عن الآخرين اللهم الا بأنه كان يزور أحياناً سندات بمبالغ  
صغيرة ، وكان يضرب ، ويردع الحيس . . .

بعد خروج الوكيل ظلت رائحة الغابة فى انف ناديجدا  
فيلاريفوتفا طويلاً ، فقد يحدث أحياناً ان يلوح أثناء الحديث  
أمر تافه ، ولكنه ينفجر فى القلب كالنارية فى الأصبع بينما  
يتمشى الحديث كله من الذاكرة . وقد تستحق المسألة  
التفكير : فلماذا مسك هذا الأمر التافه وأثارك وأغضبك ؟  
ولكن ناديجدا فيلاريفوتفا كانت عازفة عن إرهاق تفكيرها ،  
فحاولت إبعاد رائحة الغابة عنها بوسيلة بسيطة هى الحل  
من شأن محدثتها : « لماذا يلج الوكيل الاحق على هذه  
الغابة ؟ لابد أنه عيش عيشة كبيرة من التاجر . ولكن  
التاجر ، فيما يبدو يعرض سلعاً طيباً ؟ أوه ، يا إلهى —  
قالت مقاطعة نفسها — ما لى أنا بالتاجر وحساباته ؟ . . » .  
ولكن رائحة الغابة لم تتبدد . وقادتها هذه الرائحة المرة

المثيرة عبر الطريق المألوف الى تشايكوفسكى ، رغم ان الغاية ، فيما يبدو ، لم يكن لها أى دور فى علاقتها المتبادلة . مهلاً ! . بل كان لها دورا حتى ولو لم يكن ذلك بصورة مباشرة .

كان بيوتر ايليتش يعلق على الغاية المملوكة لآل ميلوكوف بعض الآمال البائسة . نعم ، نعم ، فقد اكدت له انطونيا ايفانوفنا ان لديهم غاية فى ناحية كلين وهناك شخص يريد شراها ، وسوف يكون ثمنها باثقة لها ، وهو مبلغ غير صغير ابداً بالنسبة للمضافة المالية التى كان تشايكوفسكى يعانى منها آنذاك . يا للانسان العظيم المسكين ! كان يأمل عن طريق الغاية فى تسديد ديونه وترقيع احواله الموهلة ودفع تكاليف العرس ورحلة شهر العسل وتأثيث البيت . وكتب لناديغا فيلاريتوفنا عن هذه الغاية بفخر ساذج واعتزاز . وربما لم يكن ثمة فخر ، ولكن الذى لا شك فيه ان الثقة فى اتصال الأحوال تجلت فى رسالته . وفوق ذلك فقد كان يرى فى الغاية ضمانه تشير الى ان عائلة ميلوكوف ، المشكوك فى أمرها ، ان لم تكن محترمة الأصل فعلى الاقل شريفة . ومهما كان بيوتر ايليتش بسيطاً وبرئاً ، فهو شخصية مبدعة ذات حدس مرهف وقدرة على تمييز قيمة الاشياء الحقيقية دون خطأ . ومن الواضح ان انطونيا ايفانوفنا لم تكن هى التى اثارت فيه نوبة التفرد التى افشت به الى محاولة الانجاز ، بل ما احس به من عار عندما كشفت الحقيقة . فقد اختلف مشترى الغاية فى اللحظة الأخيرة كالمعهد ، اما الغاية فقد ادعى ملكيتها بالوراثة اقرباء بعداء . هذا ان كان لتلك الغاية وجود اصلاً فى غير خيال ميلوكوف الملتهب . كما ان التشوش الذى وصف به بيوتر ايليتش فى رسائله قصة الغاية ، وهو المعروف بصدقته ، يؤكد القناعة بأنه لم يصدق رغم كل شئ تفسيرات انطونيا ايفانوفنا المتهاففة .

وهكذا انهارت مشاريع بيوتر ايليتش «الغاية» ، وبعد ان كان يؤمل بالتقاط انفسه ، اضطر الى أن يطلب نقوداً

من صديقه العزيز ، المساء اليه قليلاً ، والمغدوع قليلاً ، واليهجور قليلاً . نعم ، ان بيوتر ايليتش يعرف كيف يسأل نقوداً دون مذلة ، دون ان يفقد اعتزازه بكرامته ، لانه يعرف قيمة نفسه وقيمتى **انا** . - فكثرت ناديجدا فيلاريتوفنا بكبرياء . ولكنك كان فى هذه المرة معذباً ومحرجاً . فما كان يؤمن باستقلاله عن غير طريق بل عن طريق اعداء آل ميلوكوف الموروثه ، حتى اضطر الى طلب المال للزواج بل وحتى لشراء سرير العرس . بالطبع اجيب طلب بيوتر ايليتش على الدور وباقى قدر من اللباقة . ولم اسمح لنفسى الا بانتقام صغير طفيف ، حينما امرت الوكيل بتسجيل هذا المبلغ تحت بند : «الموسيقيون المعوزون» . ولكنه ، اى والده ، انتقام ليس رهيباً ابداً ، فالوكيل الاحق لم يدرك شيئاً ، ولن يعلم سواء باندفاعى هذه . ولكنى كنت بحاجة الى التنفيس عن نفسى ولو برفرة ، حتى لا ينفجر قلبى .

الآن بات واضعاً ان خيبة أمل بيوتر ايليتش فى زواجه بانطونيا ايفانوفنا كانت كاملة ومؤكدة ، اذ لم يجد فيها **تيتيانا** . لم يجد فيها العاشقة الراحلة ، ولا الزوجة - الأم ، ولا الصديق العاني الغامض ، ولم يجد فيها ذواقاً للموسيقى ، مع انه كان يثق له ان يتوقع ذلك من دارسة للموسيقى ، ولم يجد فى أسرته تلك الفضائل التى حلم بها فى سعيه المتحمس الى ركنه العزلى وطبق الحساء الدسم ، واخيراً لم يجد ولو راحة قصيرة من اضطراب أموره المادية الأبدى . غير انه رأى الكتب ، والنداء ، والرياء ، والابتذال السوقي ، وغفل عصفور وقبضة حديدية للبوقة مفتوحة انشبت اظفارها فى «رقصتها الأخيرة» . فصيحت الموسيقى فيه . ولحسن الحظ سبحت فترة راحة قصيرة تمكن فيها من انتهاء مسودة اوبرا «يفيجينى انيجين» والبدء فى توزيع موسيقاها . ولكن ايسن السيفونية الرابعة ، **سيمفونيتنا** ، **سيمفونيتى** ، اى هن ؟ .

\* بطلا رواية «يفيجينى انيجين» الشعبية . **المعرب** .

لقد رفض بيوتر ايليتش ان يلبي طلبا صغيرا لها بان يؤلف معزوفة «غائب» من وحى كوني ، متعللا بعدم وجود بواعث ابداعية لديه . وكان ما كتبه عن ذلك في رسالته شيقا وعميقا ، يكشف السر عن سر اسرار الفنان . لكن الحقيقة المحزنة تجلت في ان موسسه الابداعي قد تلاشى ، لقد كان يؤكد دائما انه يعمل كحرفي ، بلا كلل وباضرار ، ويوما بعد يوم ، ويكد ويعرق . كتب يقول انه مع عدم انكاره لاهمية الالهام ، وتاجع جميع القوى الروحية الباعث على السعادة ، فانه يقدر اكثر ما يقدر الكد اليومي العثابر ، والذي بدونه يصبح كل شيء هلاميا ، غير مضمون وخاليا من العظمة الحقيقية . فعبوده موتسارت ، الهش ، الرشيق ، ذو الخدين الممثلين كغودو الاطفال ، كان يكذب ايضا كحرفي . . . كحرفي حقيقى يحترق حرقته ويغار على سمعة ورشته . وبنفس الطريقة كان يعمل بهوفن ، ورافائيل المعبود الذى ابدع خلال عمره القصير اكثر مما ابدعته مدرسة تصوير كاملة . وكان بيوتر ايليتش ايضا يجيد العمل على هذا النحو ، اما الآن فقد تحطم شيء ما فى هذه الآلة الجبارة والهشة معا . لماذا لا يوجد قانون يحكم المبدعين ؟ لماذا يسمح باطلاق النار عليهم ، كما فعل دانتيس مع بوشكين ومارتينوف مع ليرمنتوف ؟ لماذا يسمح بصلبهم على صليب المتاعب المعيشية ، الثالثة أحيانا كائرساسة ؟ ينبغي على المجتمع ان يحى عبقريته ، بل وان يتدخل حتى فى حياتهم الخاصة فى الأحوال الاستثنائية . فيفسخ زواج تشايكوفسكى وترسل انطونيا ايفانوفنا الى الاشغال الشاقة ! لا ، هذا بالطبع تجاوز ، يكفى ان تغنى إلى الاقليم لتعيش فى كنف أمها ، ولتدبر لها تلك القوادة العجوز امر زواجها بأحد جبابه الاقليم أو أحد الصيادلة أو بهالك أطيان صغير من هواة القمص . ولكن ، اواه ، لمن يسمح بيوتر ايليتش بذلك ! ليس فقط انطلاقا من نبالته واستعداده للتضحية بنفسه فى سبيل الآخرين ، ولكن لأن هناك رسالته الاخيرة التى يقول فيها بوضوح وتحديد انه

عازم على ترتيب حياته مسج انطونيا ايفانوفنا بأى ثمن . لماذا أنسى هذه الرسالة كثيرا ، ولماذا انظر أمام نفسى وكأنها لم تكن ؟ مع ان فيها المفتاح لفهم كل ما يجرى . نعم ، اذا ما اعترفنا بمطابقتها لواقع الاشياء ، وهذا بالذات ما لا أقدر عليه ولا أريده . .

كانت ناديجدا فيلاريتوفنا تقدر تقديرا عاليا الموسوعيين الفرنسيين . وكان يعجبها فيهم أنهم ، مع تأكيدهم لتلقو العقل ، كانوا اشخاصا مشبوبى العواطف ، رقيقى المشاعر شديدى الحساسية . نعم ، لقد كانوا يعتقدون انه ينبغي ان تثق بالعقل ، وانه ليس هناك من ناصح فى جميع الأمور افضل من العقل الانسانى الجبار . لكنهم كانوا قادرين على الحب الشفانى وعلى الرقة والوفاء ، بمن فيهم جريم المتكبر ، ناهيك عن ديدرو الرقيق القلب . فقررت ناديجدا فيلاريتوفنا ان تخبر بالعقل البارذ ما ينتمى الى دولة العواطف . وان يكون ثمة شيء مذل لعلاقتها بتشايكوفسكى اذا ما أصبحت اليوم محققة صارما . سوف تراجع جميع الرسائل العائدة الى تلك الأيام السيئة الذكري ، التى كتب لها فيها عن خطيته ، وستحاول فهم مجرى حياته الروحية . وبهذه الطريقة تدرك المغزى الحقيقى لرسالته الاخيرة ولصمته الحالي ، وتعرف هل بقي السيد تشايكوفسكى الى جوارها ، أم ينبغي عليها ان تغنى من ميزانيتها الى الأبد بند النفقات الروحية ، والمادية ايضا . وهذا خافت هي نفسها من ابتسامتها الجافة التى خلصت بالم زاويتي فيها .

وبينا ناديجدا فيلاريتوفنا تستخرج الرسائل من العلبة العاجية الموضوعة على طاولة قرب النافذة رأت ، او بالأحرى خمنت ، زاوية الفناء خلف النافذة . ووخزها بصورة غريبة خاطرها على ذهنها عن ساكنى البيت العديدين ، الذين تقوم حياتهم على أسرة قون ميك ، والمربطين بهذه الأسرة بأمال وحسابات صفيصرة وبالغوف من فقدان أمانهم المربوعة ، ولكنهم فى الوقت نفسه لا علاقة لهم ابدا بها

يعتزل في نفس سيدتهم وغير مباينين به ولا همسين ، لا يدرون شيئا ولا يحاولون حتى ان يغفلوا خطوة واحدة بعيدا عن انانيتهم . كم من مرة فكرت فون ميسك الابية ، الانطوائية ، خلال الايام الاخيرة واعادت التفكير ، بظل من الالسى ، فى العواجز التى تفصل بين الناس . معاذ الله ان تكون رغبة اطلاقا فى ان يعطف عليها الخادم بتروشكا ، او الوكيل المحتال ، او الطاغية مارفا ، او المربية الجمراء الالنف مندوازيل بلاناش ، او مربى الصبيان المستر جونز الذى تفوح منه رائحة تبغ الغلابين القوية ، او السائس يروفي ، او العاجب نيكيتا سافيتش ، ولكن ثمة ما يرغب فى هذا التشتت البشرى وفى وحدة الانسان المتعيس .

ومن اين كان ناديجدا فيلاريتوفنا ان تعرف ، وهى التى عاشت كنيات فى دفيئة ، ولم تعان عذاب الروح الحقيقى ، اللهم الا الآن ولأول مرة تقريبا ، الى أى مدى يهتيم الناس بأمور بعضهم بعضا ، بل واهتماما منزها عن الغرض أحيانا ، وكيف يشخص الناس بأبصارهم الى اولئك الذين يتوقف عليهم ولو شيء من مصيرهم ! وأى خلق وانزعاج يعتل فى نفوس سكان دار فون ميك مما يجرى لسيدتهم المستملطة ! . . .

. . . منعت ناديجدا فيلاريتوفنا أى أحد من ان يزورها . ولأول مرة يسرى العطر حتى على يوليا ، التى أحزنها هذا كثيرا بل وعلى ميلوتشكا التى سرعان ما وجدت السلوان عند العربية ، هذا المخلوق الأكثر طراقة ولطافة عن أمها بكثير .

وتوقع جميع أهل الدار بعد عودة فانكا من البريد ان تبدأ الموسيقى والشبهات الثقيلة للصوت الرخيع الباكي ، غير ان الصمت المخيم أذهلهم وضغط على قلوبهم . كان هذا الصمت المطبق أشد هولاً من أى عاصفة ، فاستولى القنوط على أهل الدار تماما .

روضت ناديجدا فيلاريتوفنا على عينيها النظارات ذات العدسات السمكية ، والتى أوصت عليها فى استردام -

وكانت لا تظلم بها أبدا حتى للمقربين - وراحبت تقرا رسائل بيوت ايليتش مرة أخرى ولكن بنظرة جديدة . وخيل اليها ان اوراقها أصبحت أرق ، وكأنها نزع عنها علامة الإصابع الطينة تلو الطيقة بصورة غير ملحوظة ، وأخافها هذا ، فليس ينقصها الا ان تتأكل الرسائل .

واقبلت ناديجدا فيلاريتوفنا بجدية شديدة على عمل مضى ، الا وهو قراءة الرسائل بنظرة محايدة ، وكان الأمر لا يخصها . ولكن كل سطر فيها كان يجعل قلبها يخفق بعنف ، حتى لتضطر بين الحين والحين الى التوقف عن القراءة بل وتناول القطرات المهدئة . ومع ذلك أمكنها تدريجيا ان تتمالك نفسها ، ولم يعد الاضطراب او الدموع المترقرة فى عينيها تعوقها عن التركيز فى معنى ما تقرأه . بل وبدأت تظن ان التحليل المجرد أمر ممكن بالفعل .. فايا كانت الأحاسيس فان مضجع الجراح لن يهتز فى ديمها . ولكن الميضع اهتز بالطبع والزلق ، وراح يمزق اللحم حيث لا ينبغي ، وما كان من الممكن ان يمشى على غير هذا النحو . فهل كان بوسع ناديجدا فيلاريتوفنا ان تصبح شخصا آخر ، غير مبال بمصير تشايكونسكى ! لقد رافقته من جديد فى طريقه الى الجليظة ، ولكنها كانت جليظتها هى ايضا . لا جدال فى انه عانى بشدة عندما اكتشف ان انطونيا ايغانوفنا ليست هى تيتيانا لازينا أبداً ، وان «قدر الحساء» الذى دفع فيه هذا الثمن الباهظ ان يشبع من جوع ، لم يتضح له ذلك على الفور ، بيد ان رسالة ١٨ ابريل نبذت وكأنها وضعت الامور فى نصايها :

« . . . ما ان انتهت المراسيم ، وما ان أصبحت مع زوجتى على انفراد ، وفى ادراكى ان مصيرنا الآن قد ارتبط ارتباطا وثيقا ، حتى أحسست فجأة انها لا تنبهر فى نفسى حتى مجرد المشاعر الودية ، بل انها بغضبة الى بكل معنى الكلمة ، وخيل الى اننى ، او على الأقل جزء منى ، الجزء الأفضل ، بل والجزء الطيب الوحيد فى ، أى موسيقيتى ، قد ضاع بلا عودة . . . »



حسنا يا صديقي العزيز ، كان عليك وقد أدركت الشيء الرئيسي ان تقطع علاقتك بهذه المرأة فوراً ، حتى لو كنت تعتبرها «لا ذنب لها في شيء» . ولكنك بالنسبة ومتردد ، وقد فكرت في الانتحار ، ثم تذكرت اهلك ، فرحلت الى اختك في كامبكا . لابد ان اخذك مخلوق غير عادي طالما تحبها الى هذا الحد ، كما ان زوجها انسان رائس ، واطفالهما فائزون ، واخواتك التوام ساحران ، هذان اللذان تكتب لي عنهما بكل هذا التأثير والرفقة والاحترام والطيبة ، حتى اشعر بروحى تقيض فناء وحانا . وبين هؤلاء الناس ، ووسط الطليعة العزيرة عليك ، عدت الى الموسيقى ثانية ، بل وكتبت لي تخبرني بـ **سيمفونييتنا** ، وبدا لي اننى استعيد تشايكوفسكى ، صديقي العزيز . . . ولكن مشغنا بالجراح ، معذبة ، وليكن حتى قد. فقد شيئا ما (ما زلت اجد صعوبة في تحديد الأمور) ولكنه تشايكوفسكى **انا** . وقبعة أمنت بان هراء حياتك الموسكوفية قد مضى بلا رجعة ، واعترف لك باننى اردت ان اساعدك على الخلاص من قيودك المضنية . ولكن لا ، لقد شاء القدر ان تضى الأمور في طريق آخر ، فاذا ارتياح اعصابك ، ونجاحك في العمل يجعلناك تبيل الى مصالحة زوجتك ، التى تسمى «العش» في موسكو . واخذت تأمل فى تأثير المادة المسكنة للألم ، بل وتذكرت «محبوبك يوشكين» : «وهيئتنا الأقدار» العادة ، لتكون بدلا لسعادة» . وتملكنى أسى لا يوصف مسن تذاؤلك العاجز هذا . واحسست ان الميزان ثروى عادت لتلقى بظلمها الأسود على وكتبت لك عن ذلك . فاجبتى برسالة غريبة ، مكتوبة على دفتين ، ورسالة اعترفت بنفسك انك لم تكن تريد ارسالها ، ومع ذلك قررت ارسالها مع ملحوظة اطول من الرسالة نفسها ، والاعم من ذلك انها ، هذه الملحوظة ، تلغى تماما معنى الرسالة . ماذا حدث لك حينها يا بيوترن ايليتش ، وكيف جرى هذا التحول الجاد فى مشاعرك ؟ وطالما حدث التحول ، فما الداعى اذن لإرسال رسالة توقفت فيها عند كلمات الكرامية التى تجس بها نحو زوجتك ؟ لم

أنهيتها بكلمات الوئام التام معها ؟ فى البداية كتبت انك تفهم اساي العميق وتشاطرني اياه ، وتعتبر ان «الموت هو بالفعل اعظم النعم» وتدعوه اليك بكل قوى روحك . لقد كنت صادقاً عندما كتبت ذلك . ولكن بعد مرور ساعتين لم تعد تفكر فى الموت ، وبنفس صدقك الرقيق والجذاب كتبت عن استعدادك للتصالح مع انطونيئا ايفانوفنا والعيش معها فى وفاق وسلام .

فما الذى حدث اذن خلال هاتين الساعتين ؟ ضغلت ناديجدا فيلاريترنا على صدغيها بأصابعها الخفيفة الطويلة . وراحت تعيد قراءة الرسالة ، وتلفظ الكلمات جهرا ، يسلم ومقطعا مقطعا تقريبا ، وكأنها تريد ان تحفرها حفراً فى ذاكرتها . حسنا ، انه يقول انه لم يرد ارسال الرسالة . ولكنه لا يستطيع ان يتركنى بلا جواب . «وفى الوقت نفسه لا استطيع ان اكذب عليك» . اكذب عليك . . . لتذكر هذه الكلمة . «ومن الجائز جدا فى القريب العاجل ان تهدأ نفسى وتطمئن . لابد من خوض المحادثات الصعبة» . . . لقد تنبأت بذلك . . . . متى وأين يا صديقي العزيز ؟ . . . «عندما جلست لأسطر هذه الرسالة كنت اريد ان اخفف عنك اساك وسخظك على الحياة . وكم أود ان اواسيك ، ولكنى لا أجد ما اقول لك سوى اننى اعطفت عليك من صميم قلبى يا ناديجدا فيلاريترنا ، فلتبخرني عن الغراء والوئام فى الحياة عن طريق تأمل الطبيعة» . لا يا صديقي العزيز ، انت تتجاوز الحدود ، انت لست طبيبى الخاص حتى تصبغنى بالتنزه وشم النسيم والاستحمام وبعدم القلب . ومواساتك بدأ يلوح فيها الكثير من البرودة والغربة . اما الجملة التالية فى محض تطاول : «ان ميزة الثروة هى انها توفر لصاحبها امكانية ان يهرب دائما من الناس ويختل بالطبيعة ، التى هى فى ايطاليا اجمل واخفم مما هى فى اى مكان آخر» . كلا يا صديقي العزيز ، ان ميزة الثروة هى انها توفر امكانية مساعدة الاصدقاء . ولست انت الذى يقول عن ثروى هذا الكلام الملتبس . . .

انك تبتعد عني اكثر فأكثر منزع كل كلمة تكتبها ،  
ويملأك غرور غير معتاد ، يتزداد غالبا بصفة خاصة في نهاية  
المخلوطة : « انتهيت من توزيع الجزء الأول من السيمفونية »  
فلماذا لم تكتب « سيمفونية » ؟ أم انها لم تعد  
سيمفونية ؟ وتكتب : « الآن سأقضى بضعة أيام في التعود  
على الحياة الجديدة وسأقطع فيها عن العمل » . غريب انك  
تصمد على كلمة « التعود » لا على كلمة « الجديدة » . لقد عدت  
الى زوجتك يا بيوتر ايليتش ، ورغم ان حياتكما المشتركة  
لم تدم الا قليلا ، لكنها لم تعد جديدة . وعلى أي حال ففى لا  
يبدو كذلك ابدا في النصف الأول من رسالتك ، بالعكس ،  
انها تترك انطباعا تاما بانك عدت الى حياة قديمة ، مملّة ،  
كانت منذ البداية لا تطاق ولم تتغير ابدا ، اذا ما تجاوزنا  
عن المظاهر الخارجية البحتة . فانت لم تشعر بان الشقة  
الجديدة والاثاث الجديد هي جديدة ، لم تشعر الا بالثغور  
القديم المزعج من زوجتك ومن كل ما يحيط بها ، ورحبت  
بتمتدح الموت المخلص ، وفجأة تصبح هذه الحياة الجديدة  
عليك وتسعى الى التعود عليها !

انك تكتب : « عندما سأحس بالحاجة الى العمل » . وتلك  
اولى علامات النشوء النفسى - فسوف اشرع إما في توزيع  
الأوبرا وإما في إنهاء السيمفونية ، وذلك حسبما يتضح  
أيضا أكثر ضرورة ، غفرا يا صديقى العزيز ، ولكنك تتفوه  
بجماعات ، أنسيت حقا ان السيمفونية مهداة الى « أما  
الأوبرا فان لم تكن مهداة الى انطونينا ايفانوفنا فهى على  
الاقل مرتبطة بها برباطة من وحى « رسالة تيتانا » ؟ وما معنى  
قولك « أكثر ضرورة » . اننى اعتقد بسذاجتى وعدم خبرتى  
ان مفهوم **الضرورة** ، البالغ الاهمية بالنسبة لبيساريف الذى  
احبه انا وتكرهه انت . - غير مناسب هنا ابدا . لم انك يا  
صديقى العزيز تعتبر نفسك مثل العجل الخوف الذى يرضع  
من تدين ؟ . . . - وهنا قاطعت نفسها بالهـ - ولكنى كنت  
أعرف ذلك واقدمت عليه ! فهل كنت اترى بالفعل ان  
اتناول على مكانة انطونينا ايفانوفنا ؟ كلا . بالطبع ! - فقلت

ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . انطونينا ايفانوفنا لها مكانة  
الزوجة الشرعية . . . . . وانا لى مكانة الشخص الذى اهديت اليه  
السيمفونية الرابعة . نعم كل شىء هكذا . . . ولكن ، ألم يكن  
من حقى ان أأمل بما هو أكثر من ذلك خاصة وان مراسلاتنا  
تقنعنى بهذا ، تأملين بماذا ايها العجوز ، ايقسى ! ما هذه  
الاحلام العذرية واثت في هذه السن ؟ . . .

تملكها خجل لا يطلق ودهشة من هذه الاحاسيس والافكار  
التي تفجرت فجأة من أعماق كيانها . وأوحى اليها الرغبة  
القوية فى التخلص فورا من هذا الخجل بالجل . فقالت  
لنفسها : إن تخرجى امام نفسى ، وقبلى كل شىء امام نفسى ،  
زائد عن الحد ، فانا لم أكن اطمع الا فى تملك روح الفنان ،  
تملكا ليس فيه من تملك الاقطاعيين شىء . - وانا لا اطمع  
ابدا فى ذات بيوتر ايليتش الفانية ، ومن هذه الناحية  
فليس هناك ما اتفاسمه بملعب زوجة البروفيسور  
تشايكوفسكى . - ماشانك انتى بقلب زوجك وروحه وعقله ؟  
انت لا تهتمين الا بحافظة نقوده وبالمركز فى المجتمع .  
دعيني انا اهتم بموضوع المال ، وسوف يهتم هو بالمركز  
عندما يستأنف العمل .

ولكن لماذا احشر انطونينا ايفانوفنا دائما فى هذه  
المسألة ؟ ما دخل هذه الناحية هنا ؟ ترواها لم تسمع حتى  
بوجودى ؟ اللهم إلا اذا كان ذلك متعلقا بالمرحوم كارل  
نيودوروفتش ، المعيسود الذهبي لابناء الطبقة الوسطى  
الروس . اساس التقنية ينحصر فى تشايكوفسكى . فى هذا  
التحول الحاد وغير الطبيعي فى عواطفه وبنبرته على تلك  
الرقة الصغيرة من الورق فى رسالة واحدة . غير ان ذلك  
ايضا يمكن فهمه . لقد وقع تحول جديد فى طبيعته الفنية ،  
الموسيقية ، الفائقة العنسانية والمرونية والاستجابة . لقد  
اصبح يكره انطونينا ايفانوفنا وهو ما يزال معها فى عربة  
القطار الذى اقلعهما فى رحلة شهر العسل ، خلال المسابقة  
القصيرة من موسكو الى قير . ثم اكتشف فيها فضائل  
مجهولة خلال الساعتين الممتدتين بين بداية الرسالة

ونهايتها . يا إلهي ، قد يحتاج بعض الرجال الى زمن أقبل لاكتشاف المرأة . تكفي لحظة ، او نظرة ، او قبلة . ان بيوتر ايليتش المقتون والمأسور لم يعد يرى فسي انطونينا ايفانوفنا امرأة حاقدة ، ببسـل رأى فيها فجأة بنسيسة ، وبنلوب ، واندروماخ في صورة واحدة . ها انذا اصل اخيراً الى ادراك كنه ما حدث ، الى ما كنت اطرده عن ذهني عندما كتبت بحب ورقة وود متسامح رداً على هذه الرسالة الهرائية . لم أكن اصدق ، وما اردت ان اصدق بوقوع هذا التحول ، هذه المعجزة التي أعادت بيوتر ايليتش الى احضان انطونينا ايفانوفنا ، وخشية ان يصاب بخيبة امل جديدة ، بدت لي محتمة ، فصحتت بان يسافر الى ايطاليا ، لينظر من بعيد الى عش ميلوكوفا الوداع . وأمنت بانني ساجد فسي موسكو رسالة جديدة في انتظار ، رسالة مختلفة تماماً . « اذا اردت ان تواسيني برسالة يا بيوتر ايليتش فلتكتب من فضلك الى عنواني : بوليفار القياصة ، الى دارى الخاصة » . ولكن هذا الرجاء الدليل لم يعد بظان ، اذ لزم بيوتر ايليتش الصمت . حسناً ، ايضا رد ، وقد يكون ابلغ رد . . .

دعكم من اللعبة المفضلة لذوى النفوس الضعيفة ، لعبة الاحالة الى وقوع شيء مجهول : مرض ، او سفر مفاجئ ، او تصادم ناجع او حادثة قطار ، . . . هراء ! بيوتر ايليتش فى كامل صحته ، والا لكان المدعوون بالاصداقد قد اسرعوا اليه ليعلموني بحالته الخطيرة . ولم يرسل لا الى القتراز ، ولا الى مسرح العمليات الحربية فى البلقان ، ولم يلق مصرعه فسي مبارزة . فيبوتر ايليتش لن يستل سيفه ابداً ، فليست ساحة معده هي تلك التي تراق فيها الدماء . وخلال الاسابيع الاخيرة لم يقع حادث واحد على السكك الحديدية ، الأمر الذي يعد نادراً . كلا ، انه لم يرسل الى اى مكان ، فهو مشدود الى بيته الجديد اللطيف ، كما ان السفر يتطلب نقوداً . لقد حدث ما هو اسوأ بكثير : ان بيوتر ايليتش سعيد . وسكوته هو الصمت الاتاني للانسان السعيد .

الشبعان روحاً وجسداً . اما انا فليست انسانة شيعى ، رغم انى ثرية ، كما ذكرنى بيوتر ايليتش بذلك عن حق ، وبامكاني ان املك كل ما يشتري بالمال ، ولكن كثيراً من الاشياء ، ويا للأسف ، لا تشتري بالمال . على أى حال يمكننى ان اشبع جوعى البدنى ، اذ لم أبـل ريقى لليموم الثاني .

نظرت ناديجدا فيلايتوفنا الى الساعة ، لقد فاتت مواعيد جميع الوجبات . حسناً ، ستعشى بمفردها : كوب من المرقق الدسم سيحدد قواها . استدعت الوصيفة وامرتها بان تجهز لها ملاسهما ، ورفضت بتقزز هنداها المنزلى المألوف . فكل ما فيه زاء الى حد مغفل ومزكى وطائش ، وكأنها هي ليست امرأة عجوزاً وجة ، بل صبية متفتحة . اختارت الفستان الذي ارتدته عند انتهاء الحداد الرسمي على زوجها . ذي حزن صارم من قماش قفاه غامق . ومع الفستان قلنسوة من الباتمسة البيضاء ، وهذا مغفل يلون الفستان . عزت نفسها بان شيئاً مأساوياً لم يحدث ، ولم تلم بها اى حسارة . كل ما فى الأمن ان شعاعاً رفيعاً قد خبا فى روحها ، ولهذا ارتدت هذا الزى شبه الحدادى حزناً عليه . اما بيوتر ايليتش فسيكتب يوماً ما ، نعم سيكتب ، فهو يكنّ لها الود وقد أهدي لها سيمفونية ، كما ان موارده لن تكفيه للمعيشة . التي لم تصبح أرخص فى الغالب يظهرو انطونينا ايفانوفنا . وسوف تستأنف مراسلاتهما ، مراسلات الاشباح ، الذين اصبحوا منذ الآن اشباحاً الى الابد . واهبشت ناديجدا فيلايتوفنا ، المعروفة بقدرتها على ضبط النفس فى جميع الظروف ، اهبشت بيهك مرير لم تبكه على زوجها ، بل بكته مرة واحدة فى حياتها ، عندما كاذ التهاب الرئتين يودى بحياة ميلوتسكا وهي فى الثالثة من عمرها . واسرعت تحتفى فى غرفة الحمام حتى لا ترى الوصيفة دموعها .

وخرجت من هناك بوجه تعلوه صغرة الموت وقد غاضت عفه الحموة ، وبعينين جاثقين ملتهمتين . وطلبست يوليا

جديد وتفتح نفسها بضرورة الحياة الغالية من النور . رأت  
فستانها الغامق ، الملحق على مسند المقعد باصمال - كانت  
قد صرخت الوحيفة ونزعست ملايسيا بنفسها - فاثار منظر  
هذه الدرع الكثيبة فى نفسها شعورا غريبا بالارتياح . كان  
هذا الفستان علبة صماء تحفل وتخفى جوهرها الهش .

نظرت ناديجدا فيلاريتوفنا الى قدميها الصغيرتين فاحست  
برثاء لنفسها لا يحتمل اشبه برثاء فلاحه معولة ، فارتوت  
بوجهها على الوسادة ومدت ذراعيها كصليب ، واطلقت لنفسها  
عنان النحيب . وبعد ذلك ظلت طويلا ترتب وجهها بالكمادات  
الساخنة ، وتبرده وتدلكه وترش عليه البودرة ، وكانت  
حركاتها بطيئة وغير وانقة . . عجزت !

وفى الطابق الاسفل ايضا سادت الكآبة . كان ايفان  
بروكوفيتش يستعد للرحيل . وفى الصباح اوصلوا بغادم  
الى محطة كازان ليلتاق تذكره له اخرى لفانكا ، كما اوصوا  
على عربة ، واخذت الطاهية الباكية تجهز ابنها للسفر فاعدت  
له شتى الاطعمة من فطائر حلوة ودجاج محمر وببيض مسلووق  
وسجق . وكان الوكيل على غير عادته مجعد الشياى ، محمر  
العينين ، وانفه يترشح ، فقد كان يصاب بالبرد دائما بعد  
كل سكرة . وكان يأتى الى غرفة الغدس بين العين والعين  
ليشرب ماء خيار مبلع مع الغسل ، ولم يحاول استيقاظه  
جفوتوف . لقد فقد هو نفسه كل أمل فشرى حتى الثمالة  
تابينا لأحلامه المبهارة .

ولم يوجه جفوتوف الى ايه عتاب ، بل لمح الى امكانيه  
صفقات اخرى عندما تسترد ناديجدا فيلاريتوفنا رشدها .  
ولكن الوكيل لم يثق بهذه التلميحات ، ورغم خيبة امله  
الشديدة لم يجعل فون ميك اى ذنب . لقد كان يدرك ان  
القضية فيها مناس بشغاف قلب انسانى ، ومن ثم لا يجوز  
محاكمة ناديجدا فيلاريتوفنا المسكينه .

ورجاسه فانكا ، الذى كان فى ملايس سقر ثقيلة جيدة -  
سكرة من الجوخ الرمادى مشدودة بحزام وعمره مبهنة  
بالظن - ان يسمعوها له بان يركضى الى البريد لأخر مرة

السماح لها بمشاركة امها عشائها المتأخر ، فهى ايضا لم  
تتناول شيئا طوال اليوم بسبب الصداق . واذهلها منظر  
امها وفستانها الغامق الاشبه بزي الراهبات . وكانت يوليا  
تدرك انه من الممكن الانزواء فى الدير دون ان تدخل صومعة  
او تذو نفسك ، فتملكها الياس ، اصبحت على يقين من انها  
لن تستطيع مساعدة امها . وظلت طوال الليل تؤلف رسالة  
الى السيد تشايكوفسكى ، ولكن عندما حاولت فى الصباح  
نقلها الى الورق تعثرت عند اول كلمة . اذ لم تعرف كيف  
تخاطب تشايكوفسكى : «سيدى الكريم» - تبسدت وجافة الى  
حد الالهانة . «بيوتر ايليتش المحترم» - متبسطة اكثر مما  
يجب . «السيد تشايكوفسكى» - لا صدق فيها ، وتبدو  
مكتئبة . فرغما عن يوليا اقامت امها بينها وبين الموسيقى  
علاقة شبيحة . فهى لم تعرف عليه ولم تره ابدا ، ولكن  
اسمى يوليا وميلوتشكا جرى فى المراسلات بين الام  
وتشايكوفسكى . وهذا ما زاد الامر تعقيدا . من الممكن  
بالطبع ان تبدأ الرسالة عموما بدون عبارة المخاطبة هذه ،  
فهل يفكر احد فى ذلك عندما يدعو الآخرين لاناذاه ؟ كلا ،  
بل يصبح فقط «النجدة !» . ولكن يوليا ربيت تربية صارمة  
بعيث كانت تفضل الموت على ان ترتكب عملا غير لائق .  
غير انها كانت مستعدة لمخالفة قواعد الذوق من اجل امها ،  
لو انها فقط تدري ما الذى تكتبه لتشايكوفسكى وكيف  
تكتبه . كانت الكلمات قوية ومريرة فسى نفسها . وما ان  
تمس الورق حتى تبعت بصورة قريبة .

.. تناولت ناديجدا فيلاريتوفنا جرعة كبيرة من  
الحبوب المنومة فنامت على الفور . واستيقظت ، كما غيل  
اليها فى نفس اللحظة . ولكن نور الضحى الساطع لاح خلف  
الوفاذ ، وقد مرت ليلة كاملة بلا احلام وبلا لحظات افاقة  
معضة ، عندما تشعر وانت بين النوم واليقظة لانك ترفض  
غطاء تاويت للحظة ثم تتركه يهوى على الفور وقد خارت  
قواك . آه لو امكن التغلب على الواقع بهذه الصورة ! لكن  
هذا ليس فى الامكان . ينبغي ان تستيقظ ، وان تنتظر من



فنبهوا له . ألم يكن يطعم في المنحة ، كما أنه لا وقت للملحن فالسفر قريب ، ولكنه أراد آخر مرة ان يسير في الشوارع المألوفة ويودع موسكو ، فمن يدرى متى يأتي إليها ثانية .

عاد فانكا بسرعة غير متوقعة ، وفي يده رسالة . وكان جفوتوف الذي خرج من الغناء بفعل الملل اول من شاهد هذه الرقعة البيضاء الصغيرة التي تركزت فيها كل شمس الصباح ، وخطر له خاطر غريب ، ان ظن ان فانكا ، بحماقة غير مفهومة ، كرر خدعة الأسس ، التي عادت عليه في المحصلة بمكسب عائل ، حتى ان التاجر من الطبقة الأولى تقصد عرفا من فكرة انه يأخذ معه من موسكو صبيا على هذه الدرجة من البهالة ، ولكن فانكا تقدم راكضا ، معجم الوجه ، متقطع الانفاس ، متفعلا ، فصاح جفوتوف نحو الغناء للوكيل الخارج توا من غرفة الخدم :

— سرجيفيتش ، اتسمع ، الصبي جاء برسالة !  
لم يدر جفوتوف كيف اصبح الوكيل بجانيه في غمضة عين .

— هي . ا . ا . — قال الوكيل وقد خطف الرسالة من فانكا وعرف على الفور الخط الذي كتب به العنوان .  
وتراث له عينا ناديجدا فيلاريتوفنا السوداءوان ، المعذبتان ، الناظرتان الى داخلهما ، فخرج وجهه بالحمرة ، فوضع يده في جيبه واخرج حفنة من النقود ودسها في يد فانكا ، وعندها صدق جفوتوف ان الرسالة حقيقية ، أراد ان يكافئ البشير هو ايضا ، ولكنه أمسك حتى لا يفقد بالتدليل الصبي الذي انعم عليه بما يتجاوز كل حد .

— هيا ! — قال الوكيل دونما برأسه الى جفوتوف واندفع الى البيت دون ان ينظر ان كان هذا قد لبي نداء الامر ام لا .  
وهو جفوتوف رأسه مضى خلفه بخطوات واسعة .

وخفت السجاجيد السمكية الكتنة من وقع الخطوات بل وامتصته تقريبا ، الا ان خداء جفوتوف المصنوع من الجلد الغليظ صر صريرا عاليا ودفع الهواء بصخب من فتحتي

الرقبة ، وفي هذا الصمت المطبق على المنزل كصمت القبور تردد هذا الصخب اللفظ غريبا مقلقا ، واصيب جفوتوف بالذهول من السجاجيد والرايا والمرمر والتماثيل البرونزية على بسطات الدرج ومن كل هذه العظمة التي لم يرها فسي حياته . واذا به ، الذي لم يكن يحفل ابدا بظهور المسكن وزينته — فالمهم ان يكون دافئا وغير رطب — يشعر فجأة بالارتياح من حرارة وقذارة وثقانة وبته الاضيق بذكر وحش . وقال في نفسه وهو يقلب عينيه الزرقاوين الحادثين فيما حوله : «انظر كيف يعيشون !» الظاهر ان لديهم لكل امنر محلا : للأكل وللعمل وللنوم ولاستقبال الضيوف . والاولاد لا يتخطون بين الأرجل ، بل يجلسون في غرفهم ، فقد لاحت وجوههم المدورة عدة مرات في الابواب التي فتحت قليلا بذر . وفي كل مرة كان يظهر بجوارهم وجه امرأة ساحر ، فقال جفوتوف في نفسه : انها هي ! ولكن الوكيل مضى حتى دون ان يلتفت ، فحث جفوتوف خطاه حتى لا يتخلف عنه . وتجاوزا قاعة عالية شبه مظلمة ، بها صفوف مقاعد ليثة ، وبجوار احد الجدران امتدت انابيب فضية معاطة باطار من خشب البلوط . وسأل اثنا سيرة الوكيل : «ما هذا؟» فاجاب ذاك باقتضاب : «ارغن» ، ولكن هذا الجواب لم يكشف لجفوتوف عن الغرض من هذه الانابيب الفضية .

— انتظرني هنا . — قال الوكيل لسبب ما بلهجة متبسطة — عندما اعطيك اشارة ادخل فوراً ، وسوف تفهم بنفسك ما ينبغي ان تقول . — ووضع يده على قبضة الباب النحاسية المحلولة الى درجة اللعان الباهر ، ودفع الباب الفائق الارتعاج ، ودون انتظار للاذن بالدخول دلف بعجلة الى الغرفة . وترك الباب خلفه مواربا فكان بإمكان جفوتوف ان يرى كل ما يجري في الغرفة .

كانت ناديجدا فيلاريتوفنا واقفة في وسط غرفة المكتب ، في فستان الرهيبان الغامق ، وقد قست ملاعجا من شمعة الغضب ، كانت عيناها السوداء الواسعتان في وجههنتا الاليسيري شرعيتين ، كانها ليستا عيتين بشريتين بل عيني

ساحرة شريرة ، كانت قد سمعت من وقت بعيد تلك الضجة المنفرة التي ملأت البيت فراحت تغل من الغضب المسعور . ولكن سلوك الوكيل المنقلب الوقح شل حركتها . لقد اقتحم الغرفة بذلك الاستهتار الشرير الذي يدلف به قتلة القياصرة الى مخدع القصر مستمدين الجراءة من وقاحتهم الصاخبة .

— ما معنى هذا ؟ — قالت بصوت رهيب ولكنه خافت — انك ثمل ! اخرج من هنا !

فقال الوكيل بلهجة غائبة وبأسلوب شعبي مزيف ، فرحا لادراكه انه في مأمن من العقاب ومتوقعا رد الفعل السعيد : — سيدتي ومولاتي ، عفوك ورضاك ! تعطفني وتكرمي بقبول هذا . . . — ومد الرسالة الى ناديجا فيلاريتوفنا بحركة مسرحية .

تناولت الرسالة في وجل وكأنها لا تصدق ، ياصباح ارتعشت على الفور . وتضرج وجهها الهزيل الشاحب ، وامتلا صبا فاتنا . وقضت الظروف فاذهلها ان الرسالة مرسلة من سويسرا . ولم تستطع ان تقرأ سوى الكلمات الأولى اذ انهمرت الدموع من عينيها الواسعتين . وشهق الوكيل الخبيث المحتال باكيا وقد نسي الغاية وجميع الحسابات وهو يفرح لفرحة انسان آخر ، وفي هذه العاطفة المنزهة عن الغرض ادرك لحظة الحياة السامية الرائعة .

تراقضت السطور امام عيني فون ميك ، واكتست عدسات عويناتها القوية بالضباب . وكان ما استطاعت ان تقرأ آتيا عبر ضباب المجهول .

«ناديجا فيلاريتوفنا ! ربما تدعشين للغاية وانت تسلمين هذه الرسالة من سويسرا . . . لقد قضيت اسبوعين في موسكو مع زوجتي . وكان هذان الاسبوعان سلسلة من احسن صنوف العذاب . احسست على الفور انني لا أستطيع ان احب زوجتي ، وان العادة التي كنت اعول عليها كثيرا لن تتعق ايدا . ورحت ابعد عن الموت ، وبدا لي انه هو المتخرج الوحيد . واخذت تنهاني لعقبات جنون كانت روحي خلالها

تمتلئ بعقد رهيب على زوجتي التعيسة للوحة انني كنت ارفع في خفتها . . . » .

وهست ناديجا فيلاريتوفنا في نشوة : — ايها الغالي ! انه تعيس ! انه مغذّب ! اوه ، يا للفرحة . . . » .

«وفي تلك الانثناء تلتقيت برقية من اخي يخبرني فيها بانه من الضروري ان اذهب الى بطرسبرج . . . وسافرت الى بطرسبرج وانا اكاد اطير من السعادة لاني ساهرب ولو ليوم واحد من مستنقع الكذب والزيف والادعاء الذي سقطت فيه . وغنيما التقيت بأخي طفا الى السطح كل ما كنت اخفيه في اعماق نفسي خلال اسبوعين طويلين لانهاية لهما . وحدث لي شيء فطعن لا اذكره . وعندما بدأت اعود الى رشدي ، انفضح ان اخي تمكن من السفر الى موسكو والتفاوض مع زوجتي وروينشتين وتسوية . . . » .

انه حر ! انه حر ! — غنى قلب ناديجا فيلاريتوفنا . بالطبع لن تخلي تلك اللثيمة سراج بيوتر ايليتش هكذا ببساطة ، بل ستطالب بقدية ، بل وبقدية كبيرة . ولكن طالما خرجت المسألة من مجال المشاعر الموهف وانتقلت الى مجال الحسابات المادية ، فقد استردت ناديجا فيلاريتوفنا قوتها . ولما كانت على يقين من ان الرسالة تعرض لشروط انطونينا ايفانوفنا ، فقد تخطت هذه الصفحة — فعل اي حال سوف تقرأ هذه الرسالة وتعيد قراءتها عشرات المرات — ونظرت في نهايتها . لقد اخطأت . كان بيوتر ايليتش يطلب مالا ، ولكن لنفسه فقط . «انني مرة اخرى بحاجة الى مال ، ومرة اخرى لا أستطيع ان اطلب ذلك من احد سواك . هذا فطعن ، هذا شاق الى حد الألم ، الى حد الدموع ، ولكنني مضطر الى اقدام على ذلك ، مضطر الى اللجوء الى طيبة قلبك التي لا تنفد . . . » .

قالت ناديجا فيلاريتوفنا وعيناها مغرورتان : — سرجييفتش ، حول ثلاثة آلاف للسيد تشايكوفسكي ، فابسم الوكيل قالاً :



تحت أي بند نسجلها ؟ تحت بند «مساعدة الموسيقيين المعوزين» ؟

«هذا الشيطان يعرف كل شيء» - قالت فون ميك فى نفسها وادهمشها انها لم تشعر باى استياء .

- كلا ، سنغير البند الى «للصديق العزيز» . . . سنكون بحاجة الى كثير من المال يا سرجيقتش . جهن عشرة آلاف روبل لكى نرسلها بمجرد الطلب الى نفس العنوان .

كان المعارف قد لاحظوا فى ناديجدا فيلاريوفنا ، عندما كانت بعد آتسة تدعى ناديا فرولوفسكايا ، ائتلافا ناسداً للروح الرومانسية العالية والعقل الرجولى اليقظ . وقد وزنت ناديجدا فيلاريوفنا عن ايها سجاياها العاطفية الانثوية ، اما قدراتها العملية فورتتها عن امها . وفى هذه المرة ايضا ، فى لحظة النشوة القصوى ، استطاع المحاسب الماهر القابع فى باطن ناديجدا فيلاريوفنا ان يحدد بدقة المبلغ الذى ستطلبه انطونينا ايفانوفنا فى القريب العاجل مقابل اطلاق سراح بيوتر ايلييتش من اغلال الحياة الزوجية .

واكد الوكيل وهو يشعر وكأنه شخصية مثل بيرون او الامير المعظم بوتيومكين \* :

- سنفعل يا مولاتى .  
ثم نظر بطرف عينه نحو الباب وغمز لجفوتوف غمزة موحية .

ولم يضعب التاجر وقتا . اقتحم الغرفة والقى بنفسه تحت قدمى ناديجدا فيلاريوفنا . كان قد رأى وسمع كل شيء ، وقد رعبه لعبة الوكيل الماهرة - رغم فجائتها الظاهرية - فقام هو الآخر بتمثيل دور الخادم المطيع .

- مولاتى رحماك . . تعطلنى يا صاحبة النعم . . .  
- ماذا يريد هذا الرجل ؟ - سألت فون ميك بعطف وقد رققها عذابها وخفف حديثا - مم يعانى هكذا ؟

\* الكونت بيرون ، حظي الامبراطورة انا ايرانوفنا ، كما سبقت الانسابة ، والجنرال بوتيومكين (١٧٢٩-١٧٩١) حظي الامبراطورة كاترينا الثانية ومن اقرب معاونيها . المحرر .

فاجاب الوكيل بصوت باك :  
- انه يريد الغاية .

وناح جفوتوف دون دموع :  
- بيعينى الغاية ! اعرض سعرا جيدا !

ومن جديد تحركت فيها طبيعتها المورقة عن امها ، فكشفت لها انهم يخدعونها ، وان السعر الجيد الذى يعرضه جفوتوف ليس هو الثمن الحقيقي الذى يمكن ان تساويه الغاية الآن . وفى الوقت نفسه تحركت فى روحها اوتار اخرى ، اوتار من ايها . لقد خدعت ميلوكوفا تشايكوفسكى بالغاية ، حسنا ، فليكن انتقاذه ايضا بالغاية ، ولكن بغاية تملكها امرأة اخرى .

قالت فون ميك وهى تغشى ابتسامة :  
- حسنا ، حسنا ، بع له الغاية يا سرجيقتش . فليهدأ عذابه .

فقال جفوتوف ببرود وهو يتعش من ركوعه :  
- يا ولىة النعم !

وعجل قدم يوليا بانها المباحثات ، وراح جفوتوف ينحن ويتقهقر حتى خرج من الغرفة .

وصاحت يوليا :  
- ماما ! كم انت جميلة ! . . يا الهى ، كم انت جميلة ! . . .

وقالت فون ميك فى نفسها : نعم ، ينبغي ان اكون الآن جميلة . الانسان يصبح جميلا فى اللحظات الحاسمة من حياته . فما اجمل نيكولاى روبنشتين البدين ، الطويل الانف ، وهو جالس الى المعزف . وكم كان المصارع مانولر جميلا عندما صرع آخر ثور فى حياته فى حلبه توليدو . وما اروع جمال المسيح وهو على الصليب ، وسباستيان المرمسى بالسهم . ويا لعزة الجمال الذى يضفيه الموت المخلص على كل وجه ، حتى لو كان قافيا ، ذلك لان الموت هو اسمى لحظة فى حياة الانسان ، لن يكون فى حياتى شيء اروع ، فقد عرفت انى احب تشايكوفسكى ، احبه كما تحب امرأة لم

يفقد قلبها ولا جسدها القدرة على الحب . وسأجيد في نفسى القوة لكى اخبره بذلك . . .

ولكنها لم تخبر تشايكوفسكى بمشاعرها نحوه وبوقوع زواجه على قلبها الا بعد عامين ، فى رسالة مفعمة بالحب المذهل والصدق والقوة . «لقد مقت هذه المرأة لانك كنت تعيشا معها ، ولكنى كنت سامعتها اكثر لو انك كنت سعيدا معها . . .»

بعد ان انصرف ايفان بروكوفيتش جفوتوف من عند فون ميك احسن ، بدلا من الراحة المتوقعة ، بغواء غريب اطل من خلاله غل أو حسد أو غيرة ، اوزبا كل هذه المشاعر مجتمعة ، علاوة على احساس بالاسى المرير على حياته البليدة القذرة ، الغالية من اى جمال .

وقال جفوتوف فى نفسه وهو يدب بجذاه على السجاجيد والباركيه والمرمر : «كلا ، ما زلنا بعيدين كثيرا عن هؤلاء السادة فون ميك . نحن نعرف كيف تكسب القروش ، ولا نعرف كيف نعيش . وما جدوى ان يكون الكيس ممتلئا بالنقود ، بينما البيت غفن ، قذر خاقر ، مقلع ؟ الثروة يجب التمتع بها . انظر الى هذه «الميك» . لا بأس بها ، جسمها متناسق ، رغم سننها وخلقتها العديدة - وتذكر زوجته داريا اجنايتفنا . . . ما جور عجيب محشور فى معطف مبقع - كيف انتفخت وانبعجت بعد انجاب ثلاثة اولاد فقط !» . وازدادت المرارة فى نفسه .

«حان الوقت لان يظهر التجار عظمتهم . نحن ايضا سيكون لدينا المرايا والسلالم والتمائيل والأرائين والزهور والمعازف ، وسنعمل نساءنا كيف يتائقن ، فاذا لم يتعلمن نتزوج غيرهن ، فما اكثر هذه البضاعة - وقال يتشف - اما تشايكوفسكى فسننتزعه منها . فليكن ارستقراطيا او جنرالا ، لا يهم ، فالذهب يصيد اى سمكة . وسوف يؤلف لنا روائع الموسيقى الروحية ولما فيه متعة الاحاسيس . وسيكون عليه ان يتخلى عن القمار ، فلن نسمح له بهذا اللهو . المكتتب والمليس والمسكن والراتب والنساء . . . تفضل ، سنقدمها لك مع اول كل شهر . اما القمار فدعك منه ، والغطسة ايضا

دعك منها ! والرسائل عليك ان تكتبها فى مواعيدها ، نعم . . كل شىء ، يعنى ، لازم يكون تمام التمام ! اما اذا حاولت ان ترفس ، فلا تظن اننا مثل هؤلاء «الفونات» ، لا ، نحن تجار ، سنسليخ لك جلدك ، فى غمضة عين . . .»

جمع ايفان بروكوفيتش من الاموال كل ما امكن جمعه . واصبح مقاولا كبيرا للسكك الحديدية وصاحب معامل ومصانع ، وانتقل من زمن بعيد الى سكنى المدينة بعيد ان اشترى فيها قصرا اثيريا رائعا ، وشرع فى ترميمه ولكنه ، لضيق الوقت ، لم يتمكن من اتمام العمل . واذا به يصاب بالشلل ، فاصبح لديه من الوقت قدر ما يشاء ، ولكنه فقد الرغبة فى استكمال بناء قصره . وقد مشلولوا وراح يفكر فى حياته التى مرت ، او بالأحرى مرت ، فتذكر فجأة الموسيقار تشايكوفسكى ، الذى كان يعتزم منذ سنوات بعيدة ان يستقدمه لديه فى مركز هرموق . وحرك بمشقة لسانه الذى فقد سيطرته عليه وبدا كأنما اصبح غليظا - فطلب ان يستدعوا تشايكوفسكى على وجه السرعة ويلقوه بالخدمة . ولم يستطع اهل البيت طويلا ان يفهموا ما يريد ، ولكن الوكيل ايفان ، فانكا السابق ، الذى تصادف وجوده هناك ، اخرجهم من الورطة . قال :

- لقد مات تشايكوفسكى منذ حوالى عشر سنوات .

- مات ١٩ . . . . . رد العجوز وبكى . . .

لم يبك على تشايكوفسكى بل على نفسه ، على حياته التى انتهت هى ايضا . . حياته التى كان دائما يزلج شيئا هاما فيها ، ربما اهم من كل اعماله العظيمة الباهرة .



قہر ست

الفصل الثاني

ان دار و اردوگاهي تكون شاكره لكم اذا  
تفضلتم و ابيديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع  
الكتاب و ترجمته . و شكل عريشه و طباعته ،  
و اعريتكم لها عن رغباتكم .  
العنوان : زويوفسكي يولفار ، ١٧  
موسكو - الاتحاد السوفيتي

٢	مقدمة المؤلف
١٧	التأليف
٦٢	الطبعة الشريفة
٧٥	المعري
٩٦	المدى
١١٨	قلب آخر
١٢٩	هولك ناعم
١٥٨	مصرع طيار
١٧٨	جنينا روميانتيقا
١٨٨	الربيع الصامت
٢٠٣	الطائر الاخضر ذو الرأس الاحمر
٢١٧	سوف تعيشين
٢٢٤	كيف تم شراء الغاية رواية